في عالم الأرواح

المطالب القدسية

في أحكام الروح وآثارها الكونية

للعلامة الإمام شيخ شيوخ الأزهر وخاتمة المحققين

الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوي المالكي

رحمه الله

الطبعة الثانية

١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

محمود نصار الحلبي وشركاه - خلفاء

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله بارئ النسم ، والصلاة والسلام على منبع العلم والحكم ، سيد العرب والعجم ، وعلى آله وأصحابه ذوى المفاخر والهمم .

وبعد : فهذا كتاب [المطالب القدسية فى أحكام الروح وآثارها الكونية] لوالدنا الأستاذ العلامة ، الغنى بعلمه وشهرته عن التعريف والعلامة ، طيب الله ثراه ، وأعلى فى فراديس الجنات مثواه ، فرغ من تأليفه فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ألف وثلثمائة وخمسين هجرية ، وأخرجه كتاباً قيماً فريدا فى بابه ، واضحاً فى تبيانه ، رصينا فى أسلوبه ، قويا فى براهينه ، مسفرا عن حقائق علمية رفيعة فى عالم الأرواح ، لا يستغنى عنها باحث روحى ، ومحقق نفسى ، فى روحه صفاء ، وفى قلبه نقاء ، لم تحجبه المادة عن البحث فى الأسرار الروحية ،

ولم يعقه جمود فكرى ، أو جحود قلبى عن استجلائها ، والوقوف على كنهها ، من مصادرها ، وعن الإيمان اليقينى بما ورد فى شأنها عن الشارع الحكيم .

* * *

تحدث رحمه الله فى هذه المطالب عن الروح ، ومذاهب الفلاسفة ، وأئمة الإسلام فى تعريفها ، وفى آثارها ، وآلاتها ، وقواها ، وعن الروح الحيوانية والروح الإنسانية ، وهل الثانية من عالم المجردات أو عالم الماديات ؟ وهل هى مخلوقة قبل خلق الأبدان أو بعدها ؟ وعن شأنها قبل تعلقها بالأبدان و بعد تعلقها بها فى الأجنة ، وفى الحياة الدنيا ، وفى البرزخ بعد الموت ، وفى النشأة الآخرة .

* * *

كما تحدث فى أثناء ذلك عن نظرية علماء التنويم فى الأرواح ، وعن موهبة الفراسة والقيافة وما روى فيهما من الطرائف . وفى أطوار تخليق الجنين ونفخ الروح فيه ، وما ورد فى ذلك من الآيات والأحاديث وما قرره الطب فيها . وعن الإسراء والمعراج ، وعن رفع عيسى وإدريس عليهما السلام إلى السماء ، وعن خاصية أرواح الأنبياء والأصفياء ، وعن انسلاخ أرواحهم عن البشرية المادية ، وعن نعيم القبر وعذابه ، ووصول ذلك إلى الأبدان ، وعن مستقر الأرواح عامة فى البرزخ ، وعن حياة الشهداء والأنبياء فيه ، وعن النشأة الآخرة وخلق الأبدان فيها خلقا جديدا بديعا ملائما لها ، وصالحا للبقاء السرمدى .

كما تحدث عن معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، وخصائص أرواحهم فى الحياة و بعد الممات ،وأن لله تعالى ـ وهو على كل شىء قدير ـ أن يخص ما شاء بمن شاء ، وأن يودع فى بعض مخلوقاته من الأسرار والمزايا والخصائص ما يكون

آية للناس على عظيم قدرته ، وهاديا لهم إلى الحق واليقين (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) . وغير ذلك من المباحث التى جمع فيها بين القديم والحديث .

* * *

وعلى الجملة ، ففى هذه المطالب القدسية ، وما احتوته من المباحث الهامة الدقيقة ، التى عنى المؤلف بجمعها وتحقيقها ، غذاء روحى لمن تتوق نفسه إلى استقصاء البحث فى عالم الأرواح على المنهاج القويم الذى درج عليه الأثبات الثقات من أئمة الإسلام وأساطين العلماء ، كالغزالى فى إحيائه ، وابن القيم فى كتاب الروح ، والآلوسى فى مواضع عديدة من تفسيره ، وابن سينا ، والصدر الشيرازى ، وابن تيمية وغيرهم .

وفيها سكينة وطمأنينة للقلوب ، وترسيخ للعقيدة ، فيما يجب الإيمان به فى أمر الإسراء والمعراج، ورفع بعض الأنبياء إلى السماء ، والسؤال فى القبر ، والنعيم والعذاب فيه ، والبعث فى اليوم الآخر .

* * *

هذا ، ولما رغب السادة الفضلاء السيد / محمود نصار مصطفى الحلبى وشركاؤه فى إعادة طبعه ونشره على النمط الحديث فى الطباعة شكرنا لهم حرصهم على نشر العلم ، ونفع الناس به ، ورأينا أن نعلق عليه بعض ما يحسن تعليقه ، وأن نضم إليه زيادات هامة ، كان والدنا رحمه الله أشار قبل وفاته بزيادتها فى الطبعة التالية ، مع تغيير رآه فى بعض العبارات ، ونسأله تعالى أن ينفع به ويجزيه عن العلم وأهله خير الجزاء ، إنه خير مسئول ؟

كتبه

حسنين محمد مخلوف

مفتى الديار المصرية السابق وعضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن والاه .

وبعد : فإن الداعى لتأليف هذه الرسالة أن رجلا من أتباع أحد مشايخ الطرق أذاع فى جهة الشرقية بمصر ، أن شيخه كان يرى النبى صلى الله عليه وسلم يقظة ويقول النبى له « أولادك أولادى وأحبابك أحبابى » فورد خطاب إلى مشيخة الجامع الأزهر من أحد أهالى الشرقية فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٤ هـ يتضمن السؤال الآتى :

ما قولكم فى رجل ادّعى أن النبى صلى الله عليه وسلم قام من قبره وتوجّه إلى بعض الجهات ، وخاطب أحد مشايخ الطرق شفهياً وقال له « أولادك أولادى وأصحابك أصحابى » فهل هذه الدعوى صحيحة ؟ .

فمهدت إلينا مشيخة الأزهر الإجابة عنه إذ ذاك . وجاء فيها كما سيأتى

«أن جسمه الشريف لاينتقل من قبره المنيف . وإنما الذى يُرَى خارجَه ويتنقل إلى الجهات مِثَالُهُ صلى الله عليه وسلم وصورته لا جسمُه وبدنُه » .

وفى سنة ١٣٣٤ هـ قد كثر لغط من لا دراية لهم فى معنى الحياة البرزخيَّة[1] واضطربت أقوالهم فى أحكام الأرواح فى الدور الثلاث : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار الآخرة حتى أنكر بعضهم ما أثبته صريح الكتاب والسنة ، وأجمع عليه عقلاء الأمة من حياة الأنبياء والشهداء فى قبورهم ، وخاض بعضهم فى الكلام على الروح وتصرفاتها ، قبل الموت وبعده ، بما لا يساعده عقل ولا نقل ، وما كفاهم ذلك بل زادوا فى الطُّنبور[2] نغمةً ، فأنكروا وجود الروح الإنسانى[3] وما إليه من جنٍّ ومَلَكٍ ، فرأيت أن أعيد النظر فى هذا الجواب وأضيف إليه مايثبِّت فؤاد الناظر فى هذا الموضوع الدقيق ، ويزيده استبصاراً فى نشأة الروح ، وفى تعلقّها بالأبدان وهى أجنَّة ، وفى حالتى النوم واليقظة ، وفى عالم البرزخ ، وفى عالم الآخرة وفى آثارها الكونية وشئونها البرزخية ، وفى مقرِّها بعد الموت ، وفى معنى حياته صلى الله عليه وسلم ، وحياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والشهداء فى قبورهم ، وأنها نوع من الحياة أقوى وأكمل من الحياة الدنيوية ، وفيما يتبع ذلك من مباحث .

---

(١) البرزخ : مابين الموت والبعث الأخروى .

(٢) الطنبور : بضم أوله من آلات العزف .

(٣) الروح : لغة يذكر ويؤنث .

وقد عولت فى كثير من المباحث على ما ذكره الإمام الغزالى[1] فى إحيائه و ابن القيم[2] فى كتاب الروح والعلامة الآلوسى[3] فى تفسيره، وأكثرت من نقل نصوصهم القيِّمة ، وعباراتهم المتينة الجيدة ، وخصوصا فى مباحث التعلق البرزخى وتعلق البعث الأخروى . والحقُّ أن ابن القيم فى هذا الكتاب سبق الباحثين فى أحوال الروح قديماً وحديثاً ، إسلاميين وغيرهم ، من الوجهتين : وجهة الدين ووجهة العلم ، فقد أوسع فى مطالبه ، ودلل عليها بالنظر الصحيح ، والنقل الصريح عدا مسائل فذة لا يلتفت إليها .

وعولت أيضاً فى نقل آراء الباحثين عن الروحانيات من الغربيين على ما ذكره الكاتب المجيد الأستاذ البحاثة « محمد فريد وجدى بك » وجعلت ذلك فى خمسة مطالب وخاتمة :

المطلب الأول : فى معنى الروح وآلاتها الجسمية ، وفيه مباحث .

المطلب الثانى : فى تعلقاتها البدنية ، وفيه مباحث .

المطلب الثالث : فى معنى الحياة البرزخية ، وفيه مباحث .

المطلب الرابع : فى مستقر الأرواح فى البرزخ ، وفيه مباحث

---

(١) هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى ، المتوفى بطوس سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) هو الإمام علم الإسلام أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الزرعى ثم الدمشقى ، الشهير بابن قيم الجوزية ، المتوفى بدمشق سنة ٧٥٠ هـ .

(٣) هو الإمام المفسر شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله الآلوسى ، صاحب روح المعانى فى التفسير ، وهو من أجل التفاسير ، المتوفى ببغداد سنة ١٢٧٠ هـ .

المطلب الخامس : فى كرامات الأولياء ، وتصرف أرواحهم حال الحياة و بعد الممات ، وفيه مباحث .

الخاتمة : فى نص السؤال والجواب السابق المشار إليه وسميتها :

« المطالب القدسية ، فى أحكام الروح وآثارها الكونية »

وسألت الله أن ينفع بها الناظرين ، و يشفى بها صدور قوم مؤمنين .

المطلب الأول

فى معنى الروح وآلاتها الجسمانية

وفيه مباحث :

المبحث الأول

فى وجود الروح الإنسانية

دلت نصوص الشريعة الإسلامية كتابا وسنة و إجماعا ، على وجود الروح الإنسانية ، وأنها أنزلت من العالم الروحانى إلى عالم الشهادة ، ونُفِخَت فى الجنين وهو فى بطن أمه كما سيأتى بيانه . وأجمع المليون وغيرهم ـ إلا شرذمة من الماديين لا يُعْبَأ بها ـ على وجود الروح الإنسانية ، وأن هناك شيئا مغايراً لأعضاء البدن بالذات ، يسمى رُوحًا ، وهو مصدر التصوُّر والتعقُّل والتخيُّل والإرادة والفكر ، فليست الروح آلة من آلات البدن ، كاليد والأصبع والرجل والرأس والعين ، بل البدن وسائر أعضائه وقواه آلة لها ، وليست أداة من أدواته الخارجة عنه ، كفأس النجار ، ومطرقة الحداد ، و إبرة الخياط ، وقلم الكاتب ،

وما شاكل ذلك من الأدوات ، التي يستعملها الصناع في صناعاتهم . كيف وهي في الحقيقة الإنسانُ المقوِّم لتلك الآلات ، والصانعُ المستعمل لهذه الأدوات ؟ فهي جوهر روحاني خارجٌ عن البدن أو سارٍ فيه[1] مخالفٌ بالذات لسائر الأجسام وأبعاضها .

* * *

والأمم القديمة قبل المسيحية بأزمان متطاولة كانوا يعتقدون وجود الروح وخُلودها ، وأن الموت انتقال من دار العمل إلى دار الجزاء ، وأن الإنسان إذا مات ظهرت روحه في جسد نوراني شفاف ، أرق من الجسد الدنيوي وأرق منه، لا تؤثر فيه المؤثرات الكونية ، ولا تعدُو عليه النواميس الطبيعية .

وكان بعض الحكماء يقول : إن الأرواح محيطة بنا من كل جانب، وأن لها قدرة على الظهور بمظاهر جسدية ، وأن بين أرواح الأحياء والأموات علائق يمكن التوصل بها إلى مخاطبة بعضهم بعضاً ، والشريعة الإسلامية ونصوص علمائها لا تأباه كما سيأتي بيانه .

* * *

وأهل صناعة التنويم والتحضير الباحثون في الأرواح يشايعون هذا المذهب ، فقد قالوا بوجود الروح الإنسانية ، وأن لها غلافا ماديًا أرق من مواد الطبيعة الجسمانية ، وهو الذي تخلد به الروح في العالم الثاني ، ويذكرون لذلك عدة

(١) خارج عن البدن بناء على القول بتجردها ، أو سار فيه بناء على القول بماديتها ، كما سيأتي .

حوادث وغرائب تدل دلالة واضحة على وجود الروح الإنسانية، وأنها مغايرة لأعضاء البدن مغايرة بالذات والأثر ، خلافا لشرذمة من الماديين أنكروا وجود الأرواح البشرية، زاعمين أن القوة العقلية في الإنسان مصدرها الدِّماغ ، وأن الشعور والفكر وظيفة عضوية نسبتها إلى الدِّماغ كنسبة الصفراء إلى الكبد، والبول إلى الكلى، وأن الإنسان آلة مادية تعرض له التأثيرات الخارجية ، وعند الموت يتلاشى منه كل شيء ، وينطفئ فيه نور الشعور والفكر ، فإن هذا قول باطل ومذهب عاطل[1] أصبح بنور العلم قديمه وحديثه ، كسراب بِقِيعَة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

ونصوص الشرائع جمعاء وأبحاث مشاهير العلماء الذين اعتنقوا مذهب الروحانية من الغربيين وغيرهم، بل والذين تعمقوا في علم الفزيولوجيا [فن وظائف الأعضاء] أسفرت عن وجود الروح الإنسانية ، وتميزها عن قوى المجموع العصبي ووظيفته ، فلا يلتفت لمثل هذا المذهب بعد انعقاد إجماع المسلمين وغيرهم على خلافه :

وَلَيْسَ كُلُّ خِلَافٍ جاءَ مُعْتَبَرًا   إلَّا خِلَافٌ لَهُ حَظٌّ مِنَ النَّظَرِ

وسيأتي الخلاف في كونها مادية أو مجردة .

الجنّ والملائكة

أما الجن ، وهو جسم لطيف ناري قادر على التشكل في صور مختلفة فقد تواترت فيه أخبار الأنبياء تواترا لا مِرْيةَ فيه ، وآياتُ القرآن ، وأحاديث النبوة ، التي لا تكاد تحصى كثرةً صريحةٌ في وجوده . وأنه فاعل بالإرادة ،

(١) تعليل لقوله : خلافاً لشرذمة الخ .

عاقل ، مأمور ، منهيّ كأصناف البشر ، له ما لهم وعليه ما عليهم[1] فلا يسوغ لأحد يؤمن بالله ورسله وكتبه إنكاره ، ومن جحده بعد علمه بما ورد فيه فقد كذّب بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وبما تواتر من أخبار الأنبياء السابقين على نبينا، وعليهم أفضل الصلاة والسلام .

* * *

وكذلك الملائكة الكرام ، وهى أجساد لطيفة نُورانية ، قادرة على التشكل فى صور مختلفة . فقد تواترت فيها أيضا أخبار الأنبياء ، ونصوص القرآن ، وأحاديث النبوة ، وأنها موجودات عاملة فاعلة بالقدرة والإرادة كأصناف البشر ، وأنهم مطيعون لربهم عزّ وجلّ ، كما قال تعالى (لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) .

وكم من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والإجماعات المليّة ، دلّ

---

(١) قال تعالى (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا) الآيات .

وقال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا) الآية .

وقال تعالى (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) الآية .

وغير ذلك من الآيات الواردة فى عالم الجن وتكليفهم بالشريعة ، والإيمان بالرسالة .

دلالة واضحة على وجود عالَمى الجن والملائكة وجوداً حقيقياً لا يقبل الإنكار ولا التأويل .

وبالجملة ، فوجود هذه العوالم الثلاثة من الروحانيات لا نزاع فيه عند أهل الشرائع ، وإنما الخلاف فى الأسماء والألقاب .

المبحث الثانى

فى الروح الحيوانى وثبوته للإنسان

اعلم أن للإنسان روحا تسمى الروح الحيوانى ، وهو جسم لطيف ، مبعثه تجويف القلب الجسمانى ، ينتشر بواسطة العروق والشرايين فى سائر أجزاء البدن ، ويُفيض أنوار الحياة والحس ، فيضان أنوار السراج الذى يدار فى أنحاء البيت .

والأطباء يعبرون عنه ببخار لطيف ، أنضجته حرارة القلب ، فإن للقلب تجويفا فى جانبه الأيسر ينجذب إليه لطيف الدم ، فيبخّره بحرارته المفرطة ، وذلك البخار هو المسمى روحا عندهم . وهو أول ما تتعلق به الروح الإنسانية ، فيكون كمادة لها ، وبواسطة تعلقها به يستفيد قوة بها يسرى فى جميع أجزاء البدن ، فيفيد كلّ عضو قوةً ، بها يتم نفعه ، وتُؤدّى وظيفته .

والفلاسفة يعبّرون عن الروح الحيوانى مطلقاً بالنفْس ويعرفونها بأنها كمالٌ أولُ لجسم طبيعى آليّ من جهة ما يحس ويتحرك بالإرادة ، ويعنون بالكمال الأول — ما به يتم النوع فى ذاته، كصورة السرير مثلا، فإنها كمال أول للخشب

السريرى لا يتم السرير فى حدّ ذاته إلاّ به ، بخلاف الـكمال الثانى فإنه ما به يتم الشىء فى صفته ، كالعلم والقدرة وغيرهما من الصفات المتفرّعة على تحصّل الأنواع فى أنفسها .

والـكمال الأول كما يشمل النفس الحيوانية المنطبعة فى مادة الحيوان من جهة ما يحس ويتحرك ، يشمل النفس النباتية المنطبعة فى مادة النبات ، التى هى لجسم النبات من حيث يتغذّى وينمُو ، ويشمل النفس الناطقة فى الإنسان من حيث تتعقّل الـكليات ، وتستنبط بالرأى ، فهو جنس يشمل النفوس الثلاث المتنوعة بالحيثيات المذكورة .

وقد يعبر عن هذه الحيثيات بلازم واحد ، فيقال : « من حيث إنه ذو حياة بالقوة » ويُعرّف حينئذ مطلق النفس بأنه « كمالٌ أولُ لجسم طبيعى آلىٍّ من حيث إنه ذو حياة بالقوّة » واحترزوا « بالجسم » عن كمال المجرّدات ، « وبالطبيعى » عن صُوَر الأجسام الصناعية كالسرير والـكرسى « وبالآلىّ » عن صور العناصر والمعادن فإنها وإن كانت كمالات أولية لأجسام طبيعية ، إلاّ أنها غيرُ آليّة ، إذ لا يصدر عنها أفعال بواسطة الآلات فلا يسمى كل ذلك نفْسًا .

والمراد بالآلىِّ أن يكون ذا أجزاء وقوى مختلفة ، كالغاذية والنامية وغيرهما ، فإن آلات النفس بالذات هى القوى وبواسطتها الأعضاء[1] .

* * *

(١) راجع المواقف للعضد وشرحها للسيد الشريف الجرجانى .

والنفس الحيوانية والنباتية حالّتان فى البدن ، بخلاف النفس الناطقة فإنها مجردة عندهم ، وتسمى نفسًا باعتبار تعلقها بالبدن ، وحين انقطاعها عنه تسمى عقلا ؛ فالروح الحيوانى المعبّر عنه عند الأطباء بالبخار القلبى أو الجسم اللطيف الخ كمال جوهرى، وهو موضوع القوى الحيوانية المنبثة فى سائر أجزاء البدن التى بها يتم الحيوان من حيث كونه حيوانا . ويمتاز عن مشاركاته فى القوى الطبيعية ، وهو الصورة النوعية التى يتميز بها الحيوان عن النبات ، ويتحصّلُ نوعاً إضافيًّا مقابلا لنوع النبات .

وبعضهم يطلق الروح الحيوانى على نفس تلك القوى القائمة بسائر أجزاء البدن ، فتكون عَرَضا بخلاف الروح الإنسانية ، فإنها جوهر مجرد عن المادة عند الحـكماء ، تتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كما سيأتى .

* * *

والمذهب المعوّل عليه عند أهل الحق أنها مادية متعلقة بالبدن سارية فيه سريان الماء فى العود ، والنّار فى الفحم ، كما سيأتى بيانه .

وعلى هذا فيكون للإنسان روح حيوانىّ وروح إنسانىّ ، وممن صرح بذلك العز بن عبد السـلام ، ونقل عن ابن مسعود وغيره « إحداهما » روح اليقظة والإدراك ، التى أجرى الله العادة بأنها إذا كانت فى الجسد كان الإنسان مستيقظا ، وإذا خرجت منه مع نوع اتصال به نَامَ ، ورأت تلك الروح المنامات « والأخرى » روح الحياة التى إذا كانت فى الجسد كان حيًّا ، وإذا فارقته مات ، ولا تفارقه فى الإنسان إلا إذا فارقته الروح الأولى مفارقةً كليّة ، أما فى حالة النوم فلها به نوع اتصال .

وقيل : إن الروح التى فى الجسد واحدة ، وأنها إذا فارقت البدن مفارقة كلية بطلت آلاته فمات ، وإذا كان لها نوع اتصال به ، كما فى حالة النوم ، حفظت عليه قواه وآلاته فبقى حيًّا .

والصحيح الأول[1] ، وهو مذهب الأكثرين كما تدل عليه الآثار ، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان جالسا مع جمع من الصحابة ، وفيهم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فالتفت إليهم عمر وقال : إنى سائلكم عن أشياء ، ومن جملة ما سأل عنه أن الرجل يحب الرجل ، ولم يَلْقَه ، ولم يجتمع به ، وعن الرؤيبين[2] إحداهما حقٌّ والأخرى باطلة ، فسكت القوم ، فقال عمر : ولا أنت يا أبا الحسن ؟ فقال : بلى ، عندى علم ذلك . فأما الرجل يحب الرجل ولم يَلْقَه ، فإن الأرواح جنود مجنَّدة ، فما تعارَف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . وأما الرؤيبان ، إحداهما حقٌّ والأخرى باطلة ، فإن فى ابن آدم روحين فإذا نام خرجت روح فأتت العدوّ والحميم ، والبعيد والقريب ، فما كان منها فى ملكوت السموات والأرض ، فهو الرؤيا الصادقة ، وما كان منها فى الهواء فهى الأضغاث ، وأما الروح الأخرى فللنَّفَس والتقليب فقال عمر : صدقت .

وقال مقاتل : للإنسان حياة ، ورُوحٌ ، ونَفْس ، فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد ، بل تخرج كحبل ممتدّ ، له شعاع ، فيرى الرؤيا بالنَّفْس التى خرجت منه ، وتبقى الحياة والرُّوح فى الجسد ، فبهما يتقلَّب

(١) أى القول بأن للانسان روحين : روح اليقظة وروح الحياة .

(٢) راجع تفسير الآلوسى لآية (الله يتوفى الأنفس حين موتها) ففيه توضيح قول على رضى الله عنه .

ويتنفَّس ، فإذا حُرِّك رجعت إليه أسرع من طرفة العين ، ويدلّ له كما ذكره بعض المفسرين قوله تعالى (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) فهما نفسان : إحداهما : روح اليقظة (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)[1] . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن فى ابن آدم نَفْسًا ورُوحًا بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس هى التى بها العقل والتمييز ، والروح هى التى بها التنفُّس والتحرّك فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم اهـ .

المبحث الثالث

فى اختصاص النفس الناطقة بنوع الإنسان

ذهب جمهور العلماء من الحكماء وغيرهم إلى اختصاص النفس الناطقة بنوع الإنسان ، وأنها لا توجد فى أى نوع من أنواع الحيوان ، وما يصدر عن بعض الحيوانات كالنحل والنمل والعنكبوت من أفعال عجيبة ، يتخيّل منها أنها ذات عقل وتمييز ، فذلك إنما هو بمحض الإلهام والتعليم الإلٰهى ، أو بتسخير الله طبيعتها لما يراد منها ، بمعنى أنه تعالى جعل مزاجها الخاص مصدر تلك الآثار ، فهى آثار طبيعية ، ووظيفة عضوية لا يستند ترتيبها ، وبديع نظامها إلى نَفْس ذات عقل وتمييز ، وفكر وروية ، بحيث تتعقل الكليات وتستنبط بالرأى، وقد فسر بكل منهما الإيحاء فى قوله تعالى (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ

(١) آية ٤٢ الزمر .

الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)[1] أى ألهمها وعلّمها أو سخر طبيعتها لما يراد منها ، ومثل ذلك ما يصدر عن بعض الحيوانات الأخرى ، كالكلاب ، والجوارح (الطيور) المعلّمة .

وذكر الأستاذ محمد فريد وجدى أن المادّيين أنكروا الإلهام الحيوانىّ وعزَوْا جميع الحيل التى يستخدمها الحيوان لحفظ وجوده ، والبحث عن غذائه ، وتربية أولاده ، إلى الطبيعة العمياء . وزعموا أن ذلك بطريق العادة الموروثة ، هروباً من القول بأن للحيوان قصداً وإرادةً ، ولكن أثبت غير الماديين من علماء الحيوان أن هذا الزعم باطل ، فقد أخذوا حيوانات كالنحل ، وكلب البحر ، وهى صغيرة جدّاً ، وربُّوها حتى كبِرت ، وهى لم تر ما يفعله آباؤها ، ثم تركوها فعملت نفس أعمالهم ، من بناء مساكن ، وإقامة جسور ، بحيث لم يوجد أدنى فارق بين العمَلَين ، فكيف تعلل هذه المشاهدة بغير الإلهام الذى أودعه فيها الخالق ؟ وإذا كان ذلك عادة موروثة فلِمَ لم يرث الإنسان عادة آبائه فى البناء والنحت ، وهم قد اعتادوها من ألوف من السنين إلى آخر ما ذكره فى كتابه المسمى [على أطلال المذهب المادى] .

ونقل العلامة الآلوسى عن بعض حكماء الإشراق ، أنهم قالوا بثبوت النفس الناطقة لجميع الحيوانات ومثل هذا المذهب لا يلتفت إليه .

٭ ٭ ٭

والحق مذهب الجمهور من اختصاص النفس الناطقة بالإنسان ، وأنها مبدأ

(١) آية ٦٨ سورة النحل ، ويعرشون : أى يبنون من الخلايا .

تلك الآثار . وتفوّقُ بعض الطبائع الحيوانية ، وجعلُها على مزاج مخصوص ، بحيث يصدر عنها أفعال غريبة لا يخرجها عن أصلها ، ولا يلحقها بعالم الإنسان ، كما أن تفوُّق بعض النفوس البشرية ، وبلوغَها من الكمال حدًّا لاتحتاج معه إلى فكر ورويَّة ، فيما تتصل به من الكمال علما وعملا ، لا يخرجها عن نوع الإنسان وإن ألحقت بعالَم آخر ، كعالم الملائكة الروحانىّ .

على أن حقيقة الإنسان هى النفس الناطقة المتعلقة ببدنه تعلق التدبير والتصرف ، ساريةً فيه ، أو مجردةً عنه ، والهيكل المخصوص خارج عن حقيقته ، فلو وجدت الرّوح الإنسانية الناطقة فى حيوان مثل النحل لما كان حيواناً ، بل كان إنساناً فى صورة حيوان ، والنفسُ الإنسانية من أخص أوصافها النطق الفكرى[1] الذى يتأهب الإنسان به إلى النطق البيانى . ويخوض به غمار البحث عن حقائق الأشياء وأحوالها ، ليتكمل به علما وعملا ، وذلك ليس بموجود فى الحيوان مهما اهتدى إلى أى عمل من الأعمال .

وقد وصف الله النفس الإنسانية بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، لا توجد فى غير الإنسان ، فسماها « مُطْمَئِنَّةً » لكونها تحت الأمر الإلٰهى ، و« لَوَّامَةً » لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه أو ارتكابه ذميم فعاله و« أَمَّارَةً بِالسُّوءِ » لإذعانها لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان .

على أن الكلام فى الروح المنفوخة التى هى من عالم الأمر ؟ ولم يثبت نزولها ونفخها فى غير الإنسان .

(١) والمنطقيون حين يعرفون الإنسان بأنه حيوان ناطق إنما يعنون هذا النطق ، وحاصله أنه مفكر بقوة عاقلة امتازت بها ماهيته عن سائر أنواع الحيوان .

ما يطلق عليه اسم النفس ، والروح والقلب والعقل ، والبصيرة ، والسريرة

تقدم إطلاق النفس على ما تطلق عليه الروح .

وقد يراد بها ذات الشيء وحقيقته .

وقد يراد بها المعنى الجامع لقوتى الغضب والشهوة فى الإنسان ، وهذا الاستعمال هو الغالب عند أهل التصوف ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة فى الإنسان فيقولون لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « أَعْدَى عَدوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ » وهى على هذا المعنى قوة طبيعية مستتبعة للصفات المذمومة ، شهوانية أو غضبية ، وجهادها وعداوتها من جهة كونها مستتبعة لهذه الصفات ، وإلا فالقوة الشهوانية والغضبية قد تتعلق بالصفات المحمودة الملائمة للطبع ، فتكون من جانب القوة العاقلة .

وقد يراد منها ذات اللطيفة الربانيَّة من حيث وجودُها البدنى ، المستتبع للصفات الذميمة ، وجهادُها كسرُها وإضعاف قوتها ، حتى تتغلب عليها النفس الكاملة بواسطة قوتها العقلية ، وما لديها من الأدلة العقلية والنقلية ، وإلى هذا المعنى يشير قول البوصيرى فى بردته :

وَالنَّفْسُ كالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تفطِمْهُ يَنفَطِمِ

فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ ... إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ

وقولُ الإمام اللقانى فى جوهرته :

فَحَاسِبِ النَّفْسَ وَقَلِّلِ الأَمَلاَ ... فَرُبَّ مَنْ جَدَّ لِأَمْرٍ وَصَلاَ

أى حاسب نفسك كل صباح على ماعملته ليلا ، وكل مساء على ما عملته نهارا ، فما وجدتَ من حسَنة حمدتَ الله عليها ، وَمَاوجدتَ من سيئة استغفرتَ الله منها . والأقربُ للسلامة أن تحاسبها على كل فعل قبل الإقدام عليه حتى لا تتلبس به إلا بعد معرفة حكم الله فيه ، فما كان خيراً فعلته ، وما كان غير ذلك أمسكت عنه ، لتريح الملائكة من التعب ، ولأن من حاسب نفسه فى الدنيا هان عليه أمر الآخرة . وفى الحديث « حَاسِبُوا أَنفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا » ، وعقلاء العامة يحاسبون أنفسهم لفعل الطاعة وترك المعصية ، والخاصة يحاسبون أنفسهم لهذه الغاية ، وللتحفظ من دسائس النفس فى الأعمال الصالحة كما يشير إليه قول البوصيرى :

وَرَاعِهَا وَهْىَ فِى الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ ... وَإِنْ هِىَ اسْتَحْلَتِ الْمَرْعَى فلاَ تُسِمِ

كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً ... مِنْ حَيْثُ لَمْ يدرِ أَن السُّمَّ فِى الدَّسَمِ

وخاصة الخاصة يحاسبون أنفسهم لذلك ، وللسير فى المقامات ، ومراقبة الله فى جميع اللحظات ، كما يشير إليه حديث « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي [1] فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ » مع أنه غَيْنُ أنوار لا غَيْنُ أغيار .

وقد نظم أستاذنا العارف بالله تعالى سيدى أحمد بن شرقاوى قصيدة غرّاء

---

(١) يقال : غين على قلبه ، إذا غطى عليه ولُبس أوغشى عليه أو أحاط به الرين ، وهو مايغلبه .

فى محاسبة النفس سماها [منحة الفتاح ورُقْية الأرواح] وأشار بتلاوتها بعد مجلس الذكر وبعد الغروب كل ليلة ، منها :

يَا نَفْسُ كُفِّى عَنْ سِوَى مَوْلاَكِ ⁂ وَابْغِى حِمَاهُ فَالسِّوَى أَرْدَاكِ
يَا نَفْسُ ضَاعَ الْعُمْرُ فِى مَرْضَاتِكْ ⁂ يَا نَفْسُ بُعْدِى صَارَ مِنْ لَذَّاتِكْ
يَا نَفْسُ رُمتِ الْخُلْدَ فِى قَطِيعَهْ ⁂ يَا نَفْسُ فَارَقْتِ الصَّفَا جَمِيعَهْ
يَا نَفْسُ سُقْتِينِى إلى حِرْمَانِى ⁂ مِنْ خَمْرَةِ التَّقْدِيسِ والمَعَانِى
يَا نَفْسُ تَبْغِينَ سَنَى التَّدَانِى ⁂ وَتَشْغَلِينَ الْقَلْبَ بِالأَكْوَانِ

إلى أن قال :

يَا نَفْسُ رُومِى حَالَكِ الأَصْلِيَّا ⁂ وَحَاوِلِى مَشْهُودَكِ الْقَبْلِيَّا

والحكماء يطلقونها على ما يشمل النفوس الفلكية والطبيعية من لدن الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض .

وفى كتاب الروح لابن القيم : والروح فى القرآن على عدة أوجه أحدها : الوحى كما قال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا[1]) وقوله : (يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ[2]) . الثانى: القوة ، والثبات والنصرة التى يؤيد الله بها من يشاء من عباده المؤمنين كما قال تعالى : (أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ[3]) . الثالث : جبريل كقوله تعالى : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ[4]) . الرابع : الروح التى سأل عنها اليهود ، فأجيبوا بأنها من أمر الله تعالى كما قال تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

(١) آية ٥٢ الشورى . (٢) آية ١٥ غافر .
(٣) آية ٢٢ المجادلة . (٤) آية ١٩٣ الشعراء .

الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى[1]) وهى الروح التى نفخها الله تعالى فى آدم وفى ذريته . ويعبر عنها بالنفس الناطقة العاقلة العالمة ، وهى موضع البحث هنا .

* * *

والعقل قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب .

وقد يسمى به العلم المقرون بالعمل ، أو العمل على قضية العلم ، ومنه قول أهل النار : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ[2]) .

وقد يطلق مصدر عقل يعقل عقلا .

وقد يراد به المدرك للعلوم فيكون مرادفا للروح والنفس .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : كثرت المسائل يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ لِكُلِّ شَىْءٍ مَطِيَّةً ، وَمَطِيَّةُ الْمَرْءِ الْعَقْلُ ، وَأَحْسَنُكُمْ دَلاَلَةً وَمَعْرِفَةً بِالْحُجَّةِ أَفْضَلُكُمْ عَقْلاً » .

وقد يطلق ويراد به الوصف الذى يفارق الإنسان به سائر البهائم ، وهو الذى استعد به لقبول العلوم النظرية ، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية ، وهو الذى أراده الحرث بن أسد المحاسبى حيث قال فى حد العقل : إنه غريزة يتهيأ بها الإنسان لإدراك العلوم النظرية ، فهو للنفس بمنزلة الحياة للجسم ، فكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية ، والإدراكات الحسية ،

(١) آية ٨٥ الإسراء . (٢) آية ١٠ الملك .

كذلك العقل غريزة بها يتهيأ الإنسان لإدراك العلوم النظرية .

و إطلاقُه على اللطيفة الربانية باعتبار هذه الغريزة .

والحكماء يطلقون اسم العقل على الجوهر المجرد القائم بنفسه ، الصادر عن واجب الوجود مباشرة ، وهو العقل الأول ، أو بواسطة ، وهو العقول التسعة المشهورة عندهم فى ترتيب الموجودات الواجبة بالغير ، ونحن نسميها كغيرها من العالم الروحانىّ ملائكة مدبرة .

والقلب يطلق على اللحمة الصنوبرية الشكل ، وعلى اللطيفة الربانية فيرادف النفسَ والرُّوحَ .

والقوم يطلقون البصيرة على القوة المهيئة لإدراك المعانى ، والسريرة على القوة المستعدة لتمكين العلم والمعرفة .

المبحث الخامس

فى معنى الروح الإنسانية وكيفية تعلقها بالبدن وهل هى حالَّة فيه أو مجردة ؟

اختلف العلماء فى معنى الروح الإنسانية وكيفية تعلقها بالبدن وسريانها فيه أو تجردها عنه[1] على أقوال كثيرة ، أشهرها قولان :

الأول : و إليه ذهب الفلاسفة ووافقهم عليه من أئمة المسلمين الإمام الغزالى ، والراغب الأصفهانى وجمع من الصوفية ، أنها ليست جسما ولا عرَضاً ، بل هى

(١) ومع ذلك تتعلق به تعلق التدبير والتصرف .

جوهر مجرَّد قائم بنفسه ليس حالا فى بدن الإنسان ، ولا متعلقاً به تعلُّقا يسهل زواله بأدنى سبب كتعلق الجسم بمكانه ، و إلا تمكنت النفس من مفارقة البدن بمجرد المشيئة من غير حاجة إلى أمر آخر ، ولا تعلقا بغاية القوة ، بحيث إذا زال التعلق بطل المتعلَّق ، مثل تعلق الأعراض والصور المادية بمحالِّها ، بل هو تعلق وسَط بَيْنَ بيْنَ ، كتعلق العاشق بالمعشوق عشقاً جِبِلِّيًّا إلهاميًّا لا ينقطع مادام البدن صالحا لأن يتعلق به[1] لتوقف كمالاتها ولذاتها العقلية والحسية عليه ، واحتياجها إلى آلات مختلفة يكون لهـا بحسب كل آلة فعلٌ خاص ، وليست داخلة فى العالم الجسمانى ولا خارجة عنه ، ولا متصلة به ، ولا منفصلة عنـه ، ولا جهةَ لهـا ولا مكان ، لأن الاتصال والانفصال والدخول والخروج والجهة والمكان إنما هى من لوازم الأجسام المتحيزة والروحُ ليست كذلك .

وليس فى ذلك إثبات المِثْل له تعالى الذى هو محالٌ عقلاً ونقـلاً ، لأن هذه السلوب التى أثبتت للروح ليست من أخص أوصاف الإله التى يستحيل ثبوتها لغيره ، بل أخص أوصافه تعالى التى لا يجوز أن يشاركه فيها غيره ، مثل وجوب الوجود لذاته . وكونِه عالما بجميع الأشياء علما مبدؤه الذات . وكونِه قيُّوم السموات والأرض . وكونه مستحقا للعبادة دون غيره ، وما إلى ذلك مما وجب له واستحال على غيره ، والروح بل وسائر المجردات عند من أثبتها ليست كذلك فى وصف من هـذه الأوصاف ، كيف وتعلقُ الأرواح بالأبدان على

(١) تعلق تدبير وتصرف ، وقال ابن القيم : إن هذا أردأ المذاهب وأبطلها ، وسيأتى اختياره القول الثانى .

الوجه الذى ذكروه من امتناع انفكاكها عن البدن متى شاءت ، وتدبيرُها لأكثر من بدن واحد ، وغير ذلك مما يُقْصيها عن مرتبة واجب الوجود غايةَ الإقصاء ، ويجعلها من الممكن الذاتى المستند فى وجوده لغيره .

مذهب الصوفية فى كيفية تعلق الروح بالبدن

وقد أشار بعض الصوفية إلى نوع هذا التعلق وأنه تعلق تَجَلٍّ وظهور ، كتجلِّى القمر فى الماء ، والوجه فى المرآة ، أى ظهور صورتهما فى الماء والمرآة ، فإن ذلك نوع من التعلق بين الظاهر ، وهو ذات القمر والوجه ، و بين مَظْهَره ، أى محل ظهور صورته لا يقتضى حلول ذات القمر فى الماء ولا حلول الوجه فى المرآة ، فكذلك تعلق الروح بالبدن واتصالها به وهى فى سماء تجردها تتجلى فيه وتظهر بصورتها فى البدن ، أى فى مرآة روحه الحيوانىّ وتنتشر بواسطته فى سائر أقطار البدن بدون حلول ذاتها فيه أو اتحادها به .

نعم يصح باعتبار حلول صورتها ومجلاها فى أقطار البدن أن يقال بحلولها فيه ، ودخولها وخروجها ، واتصالها به وانفصالها عنه ، إلى غير ذلك من الأوصاف التى تسند إلى الشىء وحقيقتها لغيره . وإذا انقطع التعلق بهذا المعنى انقطاعا كليا ، بحيث يتلاشى معه صورة المُجْلَى وموضوعه وآثاره ، فحالة الموت وإلاّ فحالة النوم .

والقول بالمجالى وظهور الروحانيات مجردةً أو غير مجردة فى صور منفصلة عن حقيقتها ، كالجنّ والملائكة مذهب المحققين من الصوفية وغيرهم ، ومنه

ماوقع لجبريل عليه السلام ، حيث تمثّل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة دِحْيَة الكلبى ، وذاتُه لم تفارق سدرة المنتهى ، وما وقع له فى قصة مريم كما قال تعالى (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) فنفخ جبريل عليه السلام أو ملك آخر بأمر الله فى جَيْب درعها فأحست بالحمل فى بطنها مصوّرا (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا[1]) ومن ذلك التنزلات[2] الإلهية يوم القيامة فى صور مختلفة ، كما ورد به الحديث الصحيح .

أدلة القائلين بتجرّد الروح

ومعنى كونها من عالم الأمر

واستدلوا على تجرد الروح بأنا نشاهد أجساما تصدر عنها آثارها على نهج واحد من الحس ، والحركة ، والتغذى ، والنموّ ، والتوليد ، وليس ذلك للجسمية المشتركة بين الأجسام كلها لتخلّف تلك الآثار عن الأجسام الأخرى المشاركة لها فى الجسمية ، فهى لمبادٍ فى تلك الأجسام غير جسميتها ، وليست هذه المبادئ

---

(١) آيات : ١٧ — ٢٢ مريم .

(٢) أى مما يرجع إلى القول بالمجالى هذه التنزلات .

أجساما . وإلاّ عاد الكلام فيها ، بل هى قوى متعلقة بالأجسام تسمى نفسا ، إلا أنها فى النبات والحيوان منطبعة فيهما ، وفى الإنسان مجردة عنه غير حالّة فيه ، ولكن لا يتناولها اسم النفس إلا باعتبار تعلقها بالبدن ، وحين انقطاعها عنه تسمى عقلا .

ولا يخفى ضعفه ، ولِمَ لايجوز أن تكون حالّة فى الأنواع الثلاثة ؟

وتمسك بعض القائلين بتجرد الروح عن البدن بقوله عزّ وجلّ (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي[1]) حيث جعل الروح من عالَم الأمر فقال (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ[2]) والخلق والتقدير فى الأشباح الظاهرة ، والأمر والتدبير فى الأرواح الباطنة . فعالم الخلق عبارة عن كل ما يقع عليه مساحة وتقدير ، وهو الأجسام وعوارضها . وعالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحسّ والجهة ، والمكان والتحيز ، وهو مالا يدخل تحت المساحة والتقدير لانتفاء الكمية عنه .

وعلى هذا فحدّ الروح - كما فى الألواح العمادية - جوهر غير جسمى من شأنه أن يدرك المعقولات ويتصرف فى الأجسام ، وهو نور من أنوار الله القائمة لا فى أين ، فسبحان فاعلِ العجائب ، مبدع الحقائق ، مظهر الآيات ، إلهِ العالَم ، واهب الحياة ، له الأمر ، وإليه المآب ، تبارك الله أحسن الخالقين اه .

ولا يخفى مافى هذا التمسك من المقدمات الخطابية التى لا تقوم حجة فى هذا المقام ، إذ « الأمر » كما يحتمل ذلك يحتمل أن يراد به الفعل ، كما فى قوله تعالى

---

(١) آية ٨٥ الإسراء .
(٢) آية ٥٤ الأعراف .

(وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ[1]) بناء على أن السؤال كان عن قِدَم الروح وحدوثها .

أو عالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن دائرة الحسّ ، وإن كانت فى جهة ومكان ، وعالمُ الأرواح من هذا القبيل .

والظاهر أن السؤال فى قوله تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) كان من اليهود عن حقيقة الروح الذى هو مدار بدن الإنسان ومبدأ حياته ، لأن ذلك من أدق الأمور التى لا يسع أحداً إنكارها ، ويشرئبّ كل إنسان إلى معرفتها ، وتتوفر دواعى العقلاء إليها ، وتكِلّ الأذهان عن إدراكها ، ولا تكاد تعلم إلا بوحى ، فلذلك أوحى الله تعالى إلى النبى صلى الله عليه وسلم (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) أى من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من الأسرار الخفية التى لاتكاد تدركها عيون عقول البشر .

وقال غير واحد : معنى كون الروح من أمره تعالى أنه من الإبداعيات الكائنة بالأمر التكوينى من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كالجسد الإنسانى فالمراد من الأمر واحد الأوامر أعنى كن . والسؤال كما علمت عن الحقيقة ، والجواب إجمالى ، ومآله أن الروح من عالم الأمر مبدَعة من غير مادة لا من عالم الخلق المبدع من المادة . وهذا الجواب من الأسلوب الحكيم كجواب موسى عليه السلام لسؤال فرعون (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ[2]) إشارة إلى أن كنه حقيقته مما

---

(١) آية ٩٧ هود .
(٢) آية ٢٣ ، ٢٤ الشعراء .

لا يحيط به دائرة إدراك البشر ، وإنما الذى يُعلَم هذا المقدارُ الإجمالى المشار إليه بقوله تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً[1]) وعلى هذا فلا دلالة فى الآية على أن الروح من المجردات .

* * *

وفى الفوز الأصغر للإمام أبى على أحمد بن محمد ، المعروف بابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ : أن النفس الإنسانية ليست بجسم ولا عرَض ، بل جوهر قائم بنفسه ، واستدل له بأن الجسم إذا قَبِل صورة لم يمكنه أن يقبل صورة أخرى من جنسها إلا بعد أن يخلع الصورة الأولى ، كالفضة إذا قبلت صورة الجام لم يمكنها أن تقبل صورة الكوز إلا بعد أن تزول عنها صورة الجام وتخلعها خلعاً تاما ، وهكذا الشأن فى جميع الأجسام . والنفس ليست كذلك ، فإنها إذا قبلت صورة معقولٍ مّا ، وثبتت تلك الصورة فيها ، ازدادت بها قوة على تصور معقول آخر ينضاف إليها من غير أن تُفصَل الصورة الأولى ، بل كلما كثرت وتواردت عليها صور المعقولات اقتدرت بها على قبول غيرها ، وقويت فى هذا القبول قوةً متزايدةً بحسب تزايد المعقولات ، فإذاً ليست النفس الناطقة جسما ، بل ولا عرَضا ، لأن الأعراض التى توجد فى الجسم كلها تابعة له ، والتابع للشىء أخسُّ منه وأقل حظًّا فى الوجود ، إذ لا يوجد إلا بوجوده ، فكيف يكون مدبِّراً له ، متصرفاً فى شئونه ، وكيف يستعمله كما يستعمل الصانع آلته ، وجميعُ أعضاء البدن ، ما ظهر منها وما بطن ، إنما هو آلة مستعملة لغرض لم يكن لِيناله إلا به انتهى .

(١) آية ٨٥ الإسراء .

ولا يخفى أن عدم تزاحم الصور فى النفوس يجوز أن يكون منشؤه أن صور المعقولات المجردة لا تزاحم فيها ، بخلاف الصور المادية بدون أن يكون للمحل دخل فى ذلك ، أو أن اختلاف ماهية الجسم الروحانىّ والجسم المحسوس هو الذى أوجب اختلاف أحكامهما .

القول بأن الروح جسمانية وأدلته

وكلام ابن القيم فى ذلك

القول الثانى : وإليه ذهب جمهور المتكلمين وأئمة الصوفية وغيرهم أنها جسم نورانى سار فى جوهر الأعضاء سريان الماء فى الورد ، والدهن فى الزيتون ، والنار فى الفحم ، لا يتبدل ولا يتحلل ، حتى لو قطع عضو من البدن انقبض مافيه إلى جميع الأعضاء ، وهى فى كل عضو منه تامة كاملة بحسب ذلك العضو ، إذ هى المقوِّم للجميع بالذات ، وهى الحامل لصفات الكمال من العقل والفهم وهى المشار إليه ، بـ«أنا» دون الهيكل المحسوس القابل للزوال ، وهى التى تسمى إنسانا بالحقيقة ، والهيكل المحسوس إنما يطلق عليه اسم الإنسان مجازاً ، كما يسمى ضوء الشمس شمساً ، فكما أن ضوء الشمس قائم بها تابع لها يستدل به عليها ، فكذا الإنسان الظاهر ظِلٌّ وَشَبَح للإنسان الحقيقى أطلق عليه اسم الإنسان لأنه مظهر أفعاله ومحل تصرفاته ، وهو المراد بقوله تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ[1]) فأشار بقوله « أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » إلى الفطرة المقرَّرة

(١) آية ٤ التين .

بالربوبية ، والغريزة الإنسانية المستعدة لإدراك الحقائق الكلية والجزئية .

واشتهر هذا القول عن مالك رضى الله عنه ، كما قال الإمام اللقانى فى جوهرته :

لمالك هى صورةٌ كالجسدِ فحسبُك النصُّ بهذا السَّندِ

واشتهر أيضاً عن أصحابه ، واختاره الإمام الرازى وقال : إنه مذهب قوىّ وقول شريف يجب التأمل فيه ، وأنه شديد المطابقة لما ورد فى الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت ، وعليه قول إمام الحرمين : إنها جسم لطيف شفاف مشتبك بالجسم كاشتباك الماء بالعود الأخضر .

وفى كتاب الروح ، للإمام ابن القيم مايزكى هذا القول حيث قال: إن حقيقة الإنسان هى هذا الروح ، وأنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، نورانىّ عُلْوىّ ، خفيف حىّ متحرك ، ينفذ فى جوهر الأعضاء ، ويسرى فيها سريان الماء فى الورد ، والدهن فى الزيتون ، والنار فى الفحم ، وما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم مشابكا لهذه الأعضاء ، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية . وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروحُ البدن وانفصل إلى عالم الأرواح .

قال : وهذا القول هو الصواب فى المسألة ، وهو الذى لايصح غيره ، وكلّ الأقوال سواه باطلة . وعليه دلّ الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، وعنى بالأقوال الباطلة ما أشار إليه فى صدر البحث[1] .

(١) ومنها القول الأول المذكور فى ص ٢٤ .

وساق على ما صوّبه زهاء مائة دليل مابين منقول ومعقول .

منها : قوله تعالى (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)[1] أخبر سبحانه بتوفّيها وإمساكها وإرسالها ، والأعراضُ والمجرّدات لاتتصف بذلك .

ومنها قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ . وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)[2] أخبر سبحانه ببسط الملائكة أيديهم لتناولها ، ووصفها بالإخراج والخروج ، وأخبر عن عذابها ذلك اليوم وعن مجيئها إلى ربها ، والأعراضُ والمجردات لاتوصف بذلك .

ومنها قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[3] الآية .

أخبر سبحانه بتوفّى الأنفس بالليل وبعثها إلى أجسادها بالنهار ، وتوفّى الملائكة لها عند الموت ، والأعراضُ والمجرداتُ لاتتصف بذلك .

(١) آية ٤٢ الزمر . (٢) آية ٩٣ ، ٩٤ الأنعام .

(٣) آية ٦٠ ، ٦١ الأنعام .

ومنها قوله تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[1] . أخبر سبحانه أنه سوّى النفس كما أخبر أنه سوّى البدن فى قوله (الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)[2] فسوّى سبحانه نفس الإنسان كما سوّى بدنه ، بل سوّى بدنه كالقالَب لنفسه ، فتسوية البدن تابعة لتسوية النفس والبدنُ موضوع لها ، كالقالب لما هو موضوع له ، ومن ههنا يعلم أن النفس تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها ، وأنها تتأثر وتنفعل عن البدن كما يتأثر البدن وينفعل عنها فيكتسب البدن الطِّيب والخبث من طيب النفس وخبثها ، كما تكتسب الطيب والخبث من طيبه وخبثه ، فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلا وتأثراً عن أحدهما بالآخر الروحُ والبدنُ ، ولهذا يقال لها عند المفارقة : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب واخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، فلو كانت عرَضاً أو مجردة لم تتصف بشىء من ذلك .

ومنها : قوله صلى الله عليه وسلم «إنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ وَرَدَّهَا إِلَيْكُمْ حَيْثُ شَاءَ » .

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن الأرواح تتلاقى فى المنام ، وأن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام وتتساءل، وأن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خُضْر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ترد أنهارها ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش ، وأن الرب تعالى خاطبها واستنطقها فأجابته وخاطبته ، وأنها طلبت الرجوع إلى الدنيا .

---

(١) آية ٨ الشمس . (٢) آية ٧ الانفطار .

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن بصر الميت يتبع روحه إذا قبضت ، وأن الملَك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نَفْحة مسك وجدت على وجه الأرض ، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض . والأعراضُ والمجرَّدات لاريح لها ولاتمسَك ولا تؤخذ من يد إلى يد ، ولا تتصف بشىء من الأوصاف السابقة .

وقد رأى صلى الله عليه وسلم أرواحَ الناس عن يمين آدم ويساره ليلة الإسراء متحيزة بمكانٍ وأرواحَ الأنبياء فى السموات ، فسلموا عليه ورحَّبوا به ، وأرواحَ الأطفال حول الخليل عليه السلام ، وأرواحَ المعذبين فى البرزخ بأنواع العذاب ، كما فى حديث سَمُرة الذى رواه البخارى فى صحيحه . كل ذلك أخبر به صلى الله عليه وسلم كما أخبر بغيره مما لا يكاد يحصر فى هذا الباب .

وعلى الجملة فقد وصف الله تعالى ورسوله الأرواح بالدخول والخروج والقبض والتوفِّى، والإمساك والرجوع ، والصعود إلى السماء ، وفتح أبوابها لها ، وغلقها عنها ، ورؤيتها متحيزة بمكان ، وغير ذلك من الأوصاف التى لايتصور إسنادها للأعراض والمجردات ، ولا يصح اتصافها بها ، فدلّ ذلك على أنها جوهر مادىّ سارٍ فى البدن سريان الماء فى العود ، والدهن فى الورد ، والنار فى الفحم .

على أن أدلة إثبات المجردات عندالقائلين بها مدخولة ، وليس فى قضايا العقل مايقضى بصرف هذه النصوص المتضافرة على هذا الرأى تضافراً لا يقبل التأويل بل فى العقل والفطرة ما يؤيده اه بنوع اختصار وزيادة .

كلام أهل صناعة التنويم المغناطيسى
فى معنى الروح الإنسانى

وكاد أهل صناعة التنويم الباحثون عن حال الروح من الغربيين وغيرهم [١] أن يصلوا باكتشافاتهم الفكرية وتجربياتهم العملية إلى هذا المعنى الذى وصل إليه علماء الإسلام بِهَدْى النبوة ، وهو أن الروح جوهر ذو جسم لطيف الخ ، حيث قالوا : إن الروح كأنّ محدود مكتسٍ بقالَبٍ بشرىٍّ يحل فى الجسم وقت الحياة ويبارحه بالموت دون انفصال هذا الكساء عنه . وأن الإنسان مركب من أصول ثلاثة : « الأول » النفس والروح ، وهى العنصر العقلى . « الثانى » الجسم المادى الغليظ الذى تكتسى به الروح مؤقتاً لإتمام المقاصد الربانية فيها . « الثالث » الجسم الروحانىّ وهو الوثاق اللطيف الذى يربط الروح بالبدن ، وبالموت تخلَع النفس عنها الكساء الغليظ ويبقى لها جسمها الروحانىّ المركب من المادة الأثيرية الأصلية التى لاتقع لخفتها ورقتها تحت الحواسّ ، وهو فى الحياة الجسدية الوسيط الذى ينقل إلى النفس التأثيرات الخارجية وإلى الجسد أوامر الإرادة ، وبعبارة أخرى هو السلك الكهربائى الذى يتقوم بواسطته علاقات النفس مع الخارج .

* * *

(١) لأكثرهم اطلاع على آراء علماء الإسلام وعلى ماأثر عنهم من هذه المباحث واقتباس منها ، وكم أخذوا منها وانتحلوه لأنفسهم فى هذه الموضوعات وغيرها .

وقد اكتشف علماء التنويم فى سنة ١٩٠٤ أشعته خارج الجسد قالوا : وصورته كصورة الجسم البشرى لاينفك عن النفس، بل يلازمها فى كلا الحياتين: الحياة الجسدية ، والحياة البرزخية ، وهو جزء جوهرى من الروح ؛ كما أن البدن جزء جوهرى من الإنسان، وهو مادة بسيطة لاعقل له ، كما أن الجسد بذاته لا إدراك له .

وبالاختصار هو آلة لأعمال النفس كما أن البدن آلة لخدمة الإنسان فى أعماله . وعندما يتجلى الروح لأحد إنما يتجلى بواسطته ، لأن المادة الدقيقة الأثيرية المركب منها هذا الكساء اللطيف تُمَكِّنُ النفس من تقليبه أشكالا وألوانا بما لديها من السهولة فى ضغطه أو تحديده .

والامتحانات الروحانية أثبتت أن للنفس جسما سيالا لايمكن لأحد عوامل الحركة أن تفعل فيه ، وأن هذا الجسم الروحانىّ يخترق الأجسام ويقطع المسافات فى لمح البصر ، وقد يتجلى حسًّا ويتكلم أيضا ، وهو فى منتهى الدقة واللطافة .

قالوا : ولكونه مع الروح شيئا واحدا كالهواء مع الصوت يسوغ لنا بطريق المجاز أن ننسب إليه ما للروح ، ونقول عنه : إنه عالم عامل مريد قادر سميع بصير ، وقد أثبتوه بعد الموت وذكروا له حوادث صحيحة تؤيد بقاء شخصية الإنسان فيه بعد الموت وأظهرُوا وَجْه المشابهة بين تجلياته فى الحياة ، وتجلياته بعد الموت ، لصدورها عن علة واحدة وهى النفس العاقلة المزمَّلة بكسائها السيال الذى لاينفك عنها فى كلا الوجودين ، إلى آخر ما ذكروه فى كتبهم »

مما يدل دلالة واضحة على أن المعنى الذى أثبته الاكتشاف الفكرى ، وهو أن الروح جوهر ذو جسم لطيف، حىّ باق ، له صورة كصورة الجسم البشرى ، غير بعيد من المعنى الذى أثبته الهَدْى الإسلامى ، وهو أنها ذلك الجسم اللطيف خصوصاً مع عدم الاختلاف بينهما فى اللوازم والأحكام ، وسيأتى بيانه فى مبحث نفخ الروح فى البدن .

أقوال أخرى فى معنى الروح

وهناك أقوال أخرى فى معنى الروح لا يلتفت إليها لظهور فسادها كالقول بأن الروح الإنسانى جزء من أجزاء البدن، أو قوة فى الدماغ أو القلب، أو مجموع قوى ، أو هى الأخلاط الأربعة ، أو اعتدال المزاج ، أو الدم المعتدل ، إذ بكثرته واعتداله تقوَى الحياة وبالعكس ، أو هى الهواء ، إذ بانقطاعه طرفة عين تنقطع الحياة إلى غير ذلك من الأقوال التى لم يقم عليها دليل ولا يقبلها عقل سليم، إن لم نقل إنها مصروفة عن ظاهرها ، وأنها على ضرب من التسمح .

تحديد حقيقة الروح لاسبيل إليه

والحق كما ذكره الإمام الغزالى وغيره أن تحديد حقيقة الروح ومعرفة كُنْهِ ذاتها وكيفية تعلقها بالبدن[١] مما لاسبيل إليه[٢] والخوض فيه بالرأى ،

(١) أهو تعلق سريان أم تعلق تدبير وتصرف ؟ أم تعلق تجل وظهور ؟

(٢) أى إلى العلم به على وجه الجزم واليقين .

إذاعة سرٍّ الروح الذى لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس لغيره أن يخوض فيه ، وكل ما يؤثر عن العلماء فى ذلك إنما هو من قبيل ذكر الأوصاف والأحوال التى هى من باب الرسوم والأحكام لا من باب الكشف عن الحقيقة فى ذاتها ، وفى قوله سبحانه وتعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) إشارة إلى ذلك حيث لم يكشف عنها القناع بالمرة ، بل أتى بالجواب مرموزا ليعلمه العلماء بالله ، واقتضت المصلحة العامة منع الكلام فيه لغيرهم ، لأن الأفهام لا تحتمله خصوصا على طريقة الحكماء ، وبعض أكابر الصوفية . إذ من غلب على طبعه الجمود لا يقبل القول فى صفة البارى ولا يصدِّق به ، فكيف يصدّق به فى حق الروح الإنسانى انتهى .

وعليه فبيان مالك والجمهور المتقدمُ ليس من الكشف عن حقيقة الروح كالجواب فى الآية الشريفة ، وإنما هو رسوم تتفاوت بالإجمال والتفصيل ، وحاصلها أن الروح ليست من جنس أعضاء البدن ، كالقلب الصنوبرى والمجموع العصبى ، ولا من جنس العناصر ، وهى الماء والهواء والنار والتراب على ماذهب إليه الفلاسفة الأقدمون ، ولا من جنس المواليد ، وهى الحيوان والنبات والمعدن ، ولا من جنس الأفلاك والكواكب ، وأنها غير الملائكة والجن ، وأنها فى ذاتها بالغة من اللطافة إلى حَدٍّ ليس له نظيرٌ من جنس ما نشهده ، ولا مثيلٌ من جنس ما نعهده ، ولذلك سميت روحاً ، فإن لفظ الروح يقتضى اللطف . وتسمى نفساً باعتبار تدبيرها للبدن .

القول فى أن من عرَف نفسه عرَف ربَّه

ومن هنا قيل[١] [من عرف نفسه عرف ربه] [وأعرفكم بنفسه أعرفكم بربه] وقال تعالى (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ[٢]) أى جهل نفسه[٣] ، فمعرفة النفس طريق إلى معرفة الله تعالى [إما من جهة العجز والامتناع] كأن يقال : إذا كانت نفس الإنسان التى هى أقرب الأشياء إليه بل هى هُوِيَّتُه ، لايعرف كيفيتها ولا يحيط علما بحقيقتها فالخالق جلّ جلاله أولى أن لا يُعلم كنه ذاته ولا يحاط علما بحقيقته وحقيقة صفاته، وقد قيل : العجز عن الإدراك إدراك ، والبحث عن سر كنه الذات إشراك .

والمراد بكيفية الروح كيفيتها الخاصة بها فإنها غير معلومة لنا ، لعدم علم حقيقتها من بين حقائق الموجودات الممكنة . وأما كيفيتها العامة المشتركة بينها و بين الحقائق الأخرى ، ككونها جسما لطيفًا نورانيًّا عُلْويًّا أو سُفْليًّا ، فمعلومة كعلمنا بالصفات العامة المشتركة بين الله تعالى و بين غيره ، كالعلم ، والقدرة ، والإرادة ، و إن كانت حقيقتها الخاصة به تعالى غير معلومة لنا كذاته جلّ شأنه ،

(١) فيه إشارة إلى أنه ليس بحديث . قيل : إنه من قول يحيى بن معاذ الرازى وله أصل ، فعن عائشة كما فى أدب الدنيا والدين : سئل النبى صلى الله عليه وسلم : من أعرف الناس بربه ؟ فقال : أعرفهم بنفسه اه من كشف الخفا .

(٢) آية ١٣٠ البقرة .

(٣) أى لخفة عقله وعدم تفكره ، وهو قول الزجاج .

وبهذه الأوصاف العامة تُرسم الرُّوح[١] لتصويرها وجريان الأحكام عليها [وإما من جهة الاعتبار والقياس] فإن من عرف نفسه أنه حىّ عليم قدير سميع بصير متكلم ، أمكنه أن يتوصل به إلى أن يفهم ما أخبر الله تعالى به عن نفسه من أنه حىّ عليم إلى آخره ، كما يَتَوَصَّل بتصور مافى الدنيا من العسل ، واللبن والماء ، والخمر ، والحرير ، والذهب ، والفضة ، إلى تصور ما أخبر الله تعالى به من ذلك فى الجنة ، ولكن لايلزم أن يكون الغيبُ مثل الشهادة ، بل الحقيقة غير الحقيقة ، والأوصاف غير الأوصاف ، والأحكام غير الأحكام ، ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء ، فإذا كان ذلك المخلوق يوافق ذلك المخلوق فى الاسم و بينهما قدر مشترك ومتشابه نعلم به معنى ماخوطبنا به ، مع أن الحقيقة ليست مثل الحقيقة . فالخالق جلّ جلاله أبعد عن مماثلة مخلوقاته مما فى الجنة لما فى الدنيا ، فإذا وصف نفسه بأنه حىّ ، عليم ، سميع ، بصير ، قدير ، لم يلزم أن يكون مماثلا لخلقه ، إذْ كان بُعْدُه عن مماثلة خلقه أعظم من بُعْدِ مماثلة كل مخلوق لكل مخلوق ، ولكن الله سبحانه وتعالى سمى نفسه وصفاته بأسماء ، وسمى بها بعض المخلوقات ؛ فسمى نفسه حيًّا، عليماً ، سميعًا ، بصيراً ، عزيزاً ، جباراً ، متكبرًا ، ملكاً ، رءوفاً ، رحيماً ، وسمى بعض عباده كذلك ومعلوم أنه ليس العلم كالعلم ولا السمع كالسمع ، وكذلك سائر ما ذكر ، لكن الإنسان يعتبر بما عرفه مالم يعرفه ، ولولا ذلك لانسدَّت عليه طرق المعارف للأمور الغائبة .

(١) أى تعرف بالرسم ، وهو نوع من التعريف بالصفات غير الذاتية يذكره المناطقة فى باب التعريفات فى سائر كتبهم .

المبحث السادس

فى آلاتها الجسمانية

تحتاج الروح عند اتصالها بالبدن إلى آلات وقُوًى تستعد بها لأعمال وإدراكات جزئية لبلوغ الكمال المُعَدّ لها فى جانبى العلم والعمل .

منها ماهو باعث ومستحث لجلب المنفعة ودفع المضرة ، ويعبر عنه بالإرادة وبالقوة الشهوية والغضبية .

ومنها : ماهو محرك للأعضاء إلى تحصيل هذه الغاية ويعبر عنه بالقدرة المثبوتة فى سائر الأعضاء .

ومنها : ماهو مُدْرِك معرِّف للأشياء ، وهى قُوَى الحواس الظاهرة — السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس — وقُوَى الحواس الباطنة عند مثبتيها من الحكماء ، وهى :

« الحِسُّ المشترك » وهو القوة التى ترتسم فيها صور الجزئيات المحسوسة بالحواس الخمس الظاهرة فتطالعها النفس هنالك فتدركها ، ومحلها مقدَّم البطن الأول من الدِّماغ .

« والخيال » وهو قوة تحفظ الصور المرتسمة فى الحس المشترك إذا غابت المحسوسات عن الحواس الظاهرة ، فهو كالخزانة له ، وبه يعرف ما يرى فى زمان ثم يغيب ثم يحضر ، ومحلها مؤخر البطن الأول من الدِّماغ .

« والوهمية » وهى قوة تدرك المعانى الجزئية المتعلقة بالصور المحسوسة ،

كالعداوة التى تدركها الشاة من الذئب فتهرب منه ، والمحبة التى تدركها فى أمها فتميل إليها ، وهى التى تحكم بأن هذا الأصفر هو هذا الحلو ، ومحلها مقدم البطن الأخير من الدماغ .

« والحافظة » وهى قوة تحفظ المعانى التى تدركها القوة الوهمية كالخِزانة لها ، ونسبتها إلى الوهمية كنسبة الخيال إلى الحس المشترك ، ومحلها مؤخر البطن الأخير من الدِّماغ .

« والمتخيِّلة » ويقال لها المتصرِّفة ، وهى القوة التى تتصرف فى الصور المحسوسة والمعانى الجزئية المنتزعة منها ، وتصرفُها فيها بالتركيب تارة ، والتفصيل أخرى ، مثل إنسان ذى رأسين ، وإنسان عديم الرأس ، وحيوان نصفه فرس ونصفه إنسان ، وهذه القوة إذا استعملها العقل فى مُدْرَكاته بضم بعضها إلى بعض أو فصله عنه سميت مفكرة ، كما أنها إذا استعملها الوهم فى المحسوسات مطلقاً سميت متخيِّلة ، ومحلها الدُّودة[1] الحاصلة فى وسط الدماغ الموضوعة بين البطنين لتأخذ من هذه المحسوسات التى فى أحد جانبيه ، ومن هذه المعانى الجزئية التى فى الجانب الآخر فتتصرف فيما فيهما بالتركيب والتفصيل .

والمشهور فى الكتب الحكمية أن المتخيلة فى مقدم الدودة ، والوهمية فى مؤخرها . والحافظة فى مقدم البطن الأخير ، وليس فى مؤخره شىء من هذه القوى .

وإنما عرفت محالّها المذكورة بعروض الآفة لها ، فإنه إذا تطرقت آفة إلى

---

(١) هى اسم للبطن الوسط من الدماغ ، لكونه على شكل الدودة المعروفة اه مواقف .

محل من هـذه المحال اختل فعل القوة المخصوصة به دون غيرها من أفعال سائر القوى .

وفى الحقيقة المدرِكُ هو الحس المشترك والوهم والباقى مُعِينٌ على ذلك ، بل الحق أن المدرِك هو النفس وجميعُ هذه القوى آلات لها .

والنفس تتعلق بالبدن فتفتقر إليه فى هـذه النشأة الدنيوية ليكون لهـا مَرْكَبًا تسافر عليه كما يسافر راكب السفينة إلى مطلبه ، وتقطع منازل هذه الدار إلى لقاء الله تعالى ، وزادُها العلوم والمعارف والأعمال الصالحة تتزود بها ، إلى أن يسكن البدن ويجاوز الدنيا ، ويدخل فى عالم آخر ، وهو عالم البرزخ ، وأول منازل الآخرة (انظر إحياء العلوم وشرح المواقف وغيرهما فى هذا الباب) .

رأى ابن سينا فى قوى الروح الحيوانية والإنسانية

وفى كتاب [النجاة] للشيخ الرئيس الحسين أبى على بن سينا المتوفى سنة ٤٢٧ هـ أن جميع الأفعال النباتية والحيوانية والإنسانية إنما تـكون من قوى زائدة على الجسمية ، بل وعلى طبيعة المزاج ، وأن النفس كالجنس تنقسم بضرب من القسمة إلى ثلاثة أقسام : نباتية ، وحيوانية ، وإنسانيـة . [وللنفس النباتية] قوى أربعة : « غاذية » تحيل الغذاء إلى مشاكلة الجسم الذى تغذوه بدلا عما يتحلل منه ، و« نامية » تداخل الغذاء بين أجزاء الجسم فتزيد فى أقطاره بنسبة طبيعية إلى غايةٍ مَّا ثم تقف ، و« مولدة » تأخذ من الجسم الذى هى فيه جزءاً شبيهاً به بالقوة ، وتفعل فيه من التخليق والتمزيج ما يصـير شبيهاً به بالفعل ،

و« مصوِّرة » تفيد الأجزاء المتخالفة بالحقيقة الصُّور والقوى والأشكال والمقادير التى بها تصير مِثْلا بالفعل بعد أن كانت مِثْلا بالقوة . وهـذه القوى الأربع تجذبها أربع أخرى « الجاذبة » التى تجذب مايحتاج إليه من الغذاء « والهاضمة » التى تُعِدُّ الغذاء لأن يصـير جزءا بالفعل « والماسكة » التى تمسك الغذاء ريثما تفعل فيه الهاضمة فعلها « والدافعة » التى تدفع الغذاء المهيأ إلى الأعضاء وتدفع الفضل عنه .

وهذه القوى الثمان يشترك فيها الإنسان والحيوان .

[وللنفس الحيوانية] معهذا قوتان: محرِّكة ومدركة، والمحركة إما «باعثة» وهى القوة النزوعية والشوقية ، ولها شعبة تسمى قوة شهوية ، وأخرى تسمى قوة غضبية ، وإما « فاعلة » وهى قوة مبثوثة فى الأعصاب والعضلات ، من شأنها أن تشنج الأعصاب فتجذبها إلى جهة المبدأ ، أو ترخيها فتصير إلى خلاف تلك الجهة.

وأما القوى المدركة فالحواس الظاهرة وهى : السمع ، والبصر ، والذوق ، والشم ، واللمس ، والباطنة ، وهى الحس المشـترك ، والخيال ، والمتصرفة ، والواهمة ، والحافظة . ومن المدركة ما يدرك ولا يفعل ، ومنها ما يدرك ويفعل كالقوة المفـكرة ، فإن من شأنها أن تركب بعض مافى الخيال مع بعض وتفصل بعضه عن بعض .

[وأما النفس الناطقة الإنسانية] فتنقسم قواها أيضا إلى قوة عاملة ، وقوة عالمة ، وكل واحدة من القوتين تسمى عقلا باشتراك الاسم .

فالعاملة : قوة محركة لبدن الإنسان إلى الأفاعيل الجزئية بالفـكر والروية ،

وقياسها إلى القوة النزوعيـة أن تحدث فيها هيآت يتهيأ بها الإنسان بسرعة وانفصال ، مثل الخجل ، والحياء ، والضحك ، والبكاء ، وما أشـبه ذلك ، وقياسها إلى المتخيلة والمتوهمة أن تستعملها فى استنباط التدابير فى الأمور الكائنة والفاسدة ، واستنباط الصناعات الإنسانيـة وقياسُها إلى نفسها الناطقة أن فيما بينها وبين العقل النظرى تتولد الآراء الذائعة المشهورة ، مثل أن الكذب قبيح والظلم قبيح ، وما أشـبه ذلك من المقدمات التى ليست بعقلية محضة ، وهذه القوة لها السلطان على سائر قوى البدن حسبما توجيه أحـكام القوى الأخرى .

وأما القوة العالمة فهى القوة النظرية التى من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة عن المادة ، إما بذاتها أو بتجريدها إياها ، ولها بالنسبة إلى قبول هذه الصور نسب متفاوتة وأسماء مختلفة ، وتفاصيل آثارها ووظائف أعضائها وما احتوت عليه من الأسرار والعجائب لايحيط به إلا اللطيف الخبير (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[1]) اهـ بتصرف وزيادة .

(١) آيات : ٧ — ٩ السجدة .

إدراك الروح قد يكون بالذات وقد يكون بالآلات

ثم إن النفس الناطقة المعبر عنها بالروح الإنسانى تدرك المعقول والمحسوس بقوة واحدة وهى العقل ، إلا أنها فى إدراك المعقول لاتحتاج إلى آلة تستعين بها ، بل جميع مايفرض آلة قد يكون مانعا لها ، وفى إدراك المحسوس تحتاج لآلاته المتنوعة ، ولذلك إذا عنى الإنسان بتحصيل معقول هام ، واستخراج رأى دقيق خلا بنفسه وأبعد جميع الشواغل عنها ، ورجع إلى ما لديها من المعلومات ، ورتبها ترتيبا يؤدى إلى المطلوب . وبحسب قوته فى الرجوع إلى نفسه وما لديها من العلوم وخلوِّه عن عوارض الوهم ، وشواغل الحس ، والالتجاء إلى المبادئ العالية — تتفاوت النفوس فى إدراك ما تتلمسه من المطالب ، بل النفس الواحدة يتفاوت إدراكها سرعة وبطئًا بحسب ذلك ، وجَوَلانُ النفس فى طلب المعقول على هذا الوجه يسمى فكرًا .

قال العلامة ابن مسكويه : إن النفس الناطقة لاتحتاج فى إدراك ما يخصها من المعقولات إلى آلات تستعين بها ، بل جميع ما يفرض آلة فهو مما يعوقها ويمنعها من إدراكه ، وأنها إذا همَّت بإدراك معقول فإنها تتداخل وترجع إلى ذاتها كأنها تلتمس شيئا من نفسها ، وتعطل حواسها وسائر آلاتها وتلتجئ إلى المبادئ العالية لتأخذ عنها ماهو عندها وحاضر لديها ، وبحسب قوة هذا الفعل يكون صحة إدراكها لما تدركه من المعقولات ، وأنها إذا طلبت أمرًا محسوسًا خرجت عن ذاتها كأنها تلتمس شيئا خارجا عنها إلى آلة تتوصل بها إلى

مطلوبها ، فإن وجدت الآلة صحيحة استعملتها وأدركت ذلك الأمر الخارجى ، وإن لم تجد ذلك لايمكنها أن تتصور ما تلتمسه ، كالأكمه لايمكنه أن يتصور الألوان لأنه لم يجد آلتها انتهى .

تفاوت النفوس البشرية فى إدراكاتها

اعلم أن إدراك النفوس على أنحاء شتى ، ووجوه متفاوتة ، لاتكاد تدرك أطرافها ولا تضبط حدودها ، فمن الناس من يكون مستعدًّا للكمال العلمى ، بحيث إذا التفتت نفسه إلى المطالب النظرية أدركتها بدون تجشم فكر ولا توسط استعداد آخر ، ويسمى هذا الاستعداد الفطرى وإدراكه «حَدْسًا» وقد يشتد فى بعض الناس حتى لايحتاج فى اتصال نفسه بالمبادئ العالية ، والأخذ عنها إلى أكثر من لفت النظر إلى المطلوب ولوازمه ، فتحضر معه مباديه بغاية السرعة كما يحضر الملزوم مع لازمه البيِّن ، وهذه المرتبة هى أعلى مراتب الاستعداد الفطرى ، وتسمى « عقلا قُدْسِيًّا » وأصحاب هذه النفوس تكون غالب علومهم بديهية لايحتاجون فيما يريدون من المطالب إلى مراعاة منطق يعصم الذهن عن الخطأ ، بل مجرد الحدس كاف فى الوصول إلى المطلوب الذى يراد حصوله .

عجائب للإمام علىّ كرم الله وجهه

ومنهم : الإمام علىّ كرم الله وجهه . فيروى من عجائبه أنه كان إذا سئل عن معضلات المسائل التى لايتوصل إليها فحول العلماء إلا بأنظار دقيقة فى أوقات عديدة أجاب عنها بديهة من غير تأمل ، وقضاياه فى ذلك مشهورة ، وفى كتب أهل السنة مسطورة .

منها : قضاؤه رضى الله عنه فى المسألة المنبرية المشهورة « زوجة وبنتين وأم وأب » فقد سئل عنها وهو يخطب على المنبر فأجاب على البديهة ، وقافية الخطبة (صار ثمنها تُسعا) .

وقضاؤه أيضا فى توأمين ولدا مقترنى الوَرِكين فى زمن عمر رضى الله عنه ، فقد خاض الناس فى شأنهما إذا مات أحدهما قبل الآخر ، هل يقطع جلد الميت طلبًا لسلامة الحى ؟ أم الميت أولى بالاحترام فيقطع شىء من جلد الحى ليدفن الميت بجميع بدنه ؟ وقد سئل عنها عمر رضى الله عنه ، فقال : سلوا عليًّا ، فسألوه ، فقال على البديهة : سَلُوا أمهما ، هل ينام أحدهما ويبقى الآخر صاحياً ؟ فقالت : لا ، بل إذا نام أحدهما نام الآخر معه ، فقال كرّم الله وجهه : حينئذ لاتقع هذه النازلة ولا يموت أحدهما إلا حين موت الآخر ، فقيل له : من أى دليل استنبطت هذه المعضلة ؟ فقال : من قوله تعالى (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) فسرّ عمر بذلك .

ومنها : أن امرأة جاءته تشكو القاضى شُرَيْحًا[1] قالت له : مات أخى عن ستمائة دينار فأعطانى ديناراً واحدا ، فقال رضى الله عنه على البديهة : لعل أخاك خلف سواك زوجة وأمًّا وابنتين واثنى عشر أخا ، فقالت : نعم ، فقال : ذلك حقك ، وقد نظم هذه المسألة بعض العلماء فقال :

(١) هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس الكندى من أشهر قضاة الإسلام ولى القضاء بالكوفة فى عهد عمر وعثمان وعلى ومعاوية وتوفى بها سنة ٧٨ ﻫ .

وَصَائِحَةٍ جَاءَتْ عَلِيًّا لِتَشْتَكِي ... شُرَيْحًا تُنَادِي الظُّلْمَ سِرًّا وَإِجْهَارًا

فَقَالَتْ: أَخٌ عَنْ نِصْفِ أَلْفٍ وَعُشْرِهَا ... تُوُفِّي فَأَعْطَانِي عَنِ الْكُلِّ دِينَارًا

فَقَالَ عَلِيٌّ : مَاتَ عَنْكِ وَزَوْجَةٍ ... وَبِنْتَيْنِ مَعْ أُمٍّ أَتَى الْخَيْرُ مِدْرَارًا

وَمِثْلِ شُهُورِ الْعَامِ فى الْعَدِّ إِخْوَةً ... فَحَقُّكِ مَا أَعْطَى شُرَيْحٌ وَمَا جَارَا

وأخرج أحمد فى مسنده، عن علىّ كرّم الله وجهه : أنه كان باليمن فاحتفروا زُبْيَةً (حفرة) للأسد ، فجاء حتى وقع فيها رجلٌ قد تعلق بآخر ، وتعلق الآخر بآخر ، وتعلق الآخر بآخر ، حتى صاروا أربعة ، فجرحهم الأسد ، فمنهم من مات فيها ومنهم من أخرج فمات ، قال : فتنازعوا فى ذلك حتى أخذوا السلاح فأتاهم علىّ رضى الله عنه فقال: ويلكم تقتلون مائتى نفس فى شأن أربعة أناس ؟ تعالَوْا أقض بينكم بقضاء ، فإن رضيتم به وإلا فارتفعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقضى ـ للأول ربع دية ، وللثانى ثلث دية ، وللثالث نصف دية ، وللرابع الدية كاملة ، فرضى بعضهم وكره بعضهم ، وجعل الدية على قبائل الذين ازدحموا، فارتفعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال بهز : قال حماد : أحسبه كان متكئاً فاحتبى ، وقال سأقضى بينكم بقضاء ، فأخبر أن علياً قضى بكذا وكذا فأمضى قضاءه اهـ .

وقد حدثنى بهذه النوازل الثلاث أخونا فى الله العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى وعزا تفسير علىّ الآيةَ فى مسألة قضاء التوأمين إلى تفسير القرطبى [1] .

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٦٠ طبعة أولى .

وحدّثنا أيضا أخوه الأكبر العلامة الشيخ محمد الخضر مفتى المدينة المنورة ، المقيم الآن بعمان ، بقضاء آخر لعلىّ كرم الله وجهه فى مسألة الثلاثة الذين اشتركوا فى أكل أرغفة ثمانية ، وحاصلها : أن رجلين جلسا يتغديان ، مع أحدهما خمسة أرغفة ، ومع الآخر ثلاثة ، فدخل عليهما ثالث وأكل معهما حتى استوفوا الثمانية الأرغفة ، ثم أعطاهما ثمانية دراهم عوضاً عما أكل فتنازعا ، فقال صاحب الخمسة لصاحبه : لى خمسة دراهم ولك ثلاثة ، فقال صاحبه : لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين، فترافعا إلى أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه وقصّا عليه قصتهما، فقال لصاحب الثلاثة الأرغفة : قد عرض عليك صاحبك ماعرض وخبزه أكثر من خبزك فارض بالثلاثة ، فقال : لا والله لا أرضى منه إلا بمُرّ الحق ، فقال علىّ رضى الله عنه : ليس لك فى مرّ الحق إلا درهم واحد وله سبعة ، فقال الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين هو يعرض علىّ ثلاثة فلم أرض ، وأشرتَ علىّ بأخذها فلم أرض ، وتقول لى الآن إنه لا يجب فى مُرِّ الحق إلا درهم واحد ؟ فقال له علىّ : عرض عليك صاحبك أن تأخذ الثلاثة صلحاً فقلتَ لم أرض إلا بمرِّ الحق ، ولا يجب لك بمرِّ الحق إلا واحد ، فقال الرجل : عرّفنى بالوجه فى مرّ الحق حتى أقبل، فقال علىّ رضى الله عنه: أليس الثمانية الأرغفة أربعة وعشرين ثلثاً أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس ولا يعلم الأكثر منكم أكلا ولا الأقل فتحملون فى أكلكم على السواء ؟ قال : بلى ، قال: فأكلت أنت ثمانية أثلاث وإنما لك تسعة أثلاث ، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثاً أكل منها ثمانية فيبقى له سبعة أكلها الثالث وأكل لك واحداً من تسعة ، فلك واحد بواحدك ، وله سبعة بسبعته ، فقال له الرجل : رضيت الآن اهـ ، ذكره

الحافظ ابن عبد البر فى الاستيعاب والحافظ المحب الطبرى فى الرياض النضرة فى مناقب العشرة .

وفى خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملى[1] وسئل رضى الله عنه عن مخرج الكسور التسعة ، فقال على البديهة : اضرب أيام أسبوعك فى أيام سنتك ، ومخرج الكسر أقل عدد يخرج منه وحاصل ضرب سبعة (أيام الأسبوع) فى ثلاثمائة وستين (أيام السنة) يبلغ ألفين وخمسمائة وعشرين ، وهو أقل عدد يخرج منه الكسور التسعة وهى : النصف ، والثلث ، والربع ، والخمس ، والسدس ، والسبع ، والثمن ، والتسع ، والعشر .

ومثله كما فى الخلاصة أيضا : مالو ضربت أيام شهرك فى عدة الشهور والحاصل فى أيام الأسبوع ، أو ضربت مخارج الكسور التى فيها حرف العين بعضها فى بعض وهى : الربع ، والسبع ، والتسع ، والعشر ؛ فإذا ضربت أربعة فى سبعة والحاصل فى تسعة والحاصل فى عشرة بلغ (٢٥٢٠) ولكن جواب الإمام أقصر من هذا وأيسر عملا . وكم . وكم له رضى الله عنه من البديهة فى معضلات المسائل فى كل علم من علوم الدنيا والآخرة .

وهناك مراتب[2] أخرى للحدْس متفاوتة سرعةً وبُطْئًا .

وجمهور الناس يحتاج فى كسب المطالب إلى استنباط الحدود بالفكر والتعليم ، وترتيب المقدمات تارة على قانون منطقى ، وتارة على أسلوب لغوىّ

(١) للوالد رحمه الله شرح لها مطبوع منذ نيف وسبعين عاما .

(٢) هذا مقابل لقوله سابقا أول هذا المبحث فمن الناس من يكون مستعدا الخ .

أو عرفىّ ، وبالضرورة لا يكون ذلك إلا بعد تمرين القوى النفسية واقتدارها على الإحساس الصادق ، حتى يتسنى للنفس أن ترجع إلى المبادئ التى توصلها إذ لابد لها من مادة محصَّلة ، ومن إرادة تنبعث إلى ما يناسب منها ، وذلك لا يكون لعامة الناس إلا بالمران والتعليم الصحيح .

وهناك أناس يكتفون فى فهم المطالب العلمية وغيرها بدلالات عامة ، وإشارات خفية لا تصلح أن تكون طريقاً لغيرهم ، كما شاهدنا بعض الناس وهو أصم لا يسمع يفهم ما يوجه إليه من الكلام بمجرد تحريك الشفتين ، وإذا سئل عن المسائل الدقيقة أجاب عنها بسرعة ، مع أن الحروف ليست كلها شفوية وبعضهم يكتب له بأصبع فى الهواء أو على ذراعه أو ساقه ما يراد منه ، فيقرأ ويفهم ما كتب له بأسرع حركة وغيره من الحاضرين العارفين برسوم الكتابة لا يمكنه أن يفهم شيئا بهذا الطريق وتلك الدلالة .

وهناك أناس يطالعون مافى عالم الملكوت من لوح الهيكل الإنسانى ، فإن الله تعالى قد شرف للنفوس هذا الهيكل حيث جعله نظير العالم المحيط الأكبر معنًى معنًى ، وحرفاً حرفاً ، حتى كأنه هو ، فما تفرق فى العالم الأكبر تجده مجموعا فيه من ملك وملكوت كما هو مفصل فى محله ، وإليه يشير قوله تعالى : (وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[1] .

ومن ذلك ما يستطلعه بعض النفوس ، من خطوط الأكف ، وأسارير الجباه ، وأشكال الحواجب والعيون ، وغير ذلك من الأسرار والآثار التى

(١) آية ٢١ الذاريات .

تضمنتها رسوم الألواح الكونية ، ورواها عالَمَ الملك عن عالَمَ الملكوت ، وهذا باب من العلم نسيناه وما كان ربك نسيا .

وهناك أناس آخرون لهم فى هذا الباب غرائب وعجائب يزداد بها الناظر فى الشؤون الكونية إيمانا باللطيف الخبير ، ويعلم أنه جلّ شأنه جعل مظاهر علمه على وجوه لا تحيط بها العقول ، وأن هذه الآلات والقوى وطرق التعليم ، وقوانين الدلالة ليست أسبابا عقلية لازمة ، وإنما هى أسباب عادية أكثرية ، ولله أن يدع فى نفوس الخلق من مواهبه اللدنية ماشاء .

موهبة الفِراسة والقِيافة

ومن ذلك موهبة الفراسة والقيافة المشهورة فى العرب ؛ فان هذا الصنف من النفوس البشرية قد وهب من قوة الملاحظة ، ودقة النظر ، وبُعد التفكير ، وإصابة الحدس ، ما يبهر العقول ويحير الألباب ، ويدل على أن إمداد الله تعالى نفوس البشر بالمواهب الفطرية وإعدادها للكمالات والإفاضات الربانية لا يُبلَغ مداه ولا يدرك منتهاه .

والقيافة على ضربين : « قِيَافة بَشَرِيّة » وهى الاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتخاطيط أطرافه على ما بطن من القرابة والولاد ، وهذه الظاهرة كانت معروفة فى قوم من العرب يقال لهم بنو مُدْلج ، فكان أحدهم يعرض عليه المولود فى عشرين نفراً أو أكثر فيلحقه بأبيه[1] . وحكى عن بعضهم أنه

(١) وقد أقرها النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة أسامة وزيد ابنه رضى الله عنهما وكانا مختلفين جدا فى اللون .

كان فى بعض أسفاره راكباً على بعير يقوده غلام أسود ، فمرّ بهذه القبيلة فنظر إليه واحد منهم فقال : ما أشبه الراكب بالقائد فوقع فى نفس الراكب شىء ، فلما رجع إلى أمه ذكر لها القصة فقالت : ياولدى إن أباك كان شيخا كبيراً ذا مال ، وليس له ولد ، فخشيت أن يفوتنا ماله فمكنت هذا الغلام من نفسى فحملت بك ، ولولا أن هذا شىء ستعلمه غدا فى الدار الآخرة ، لما أعلمتك به فى الدنيا ، ولهم فى هذا الباب عجائب وغرائب .

« وقيافة أثَرِيَّة » وهى الاستدلال بالأقدام للانسان والحيوان ، والحوافر والخفاف فى المسير ، وقد اختص بها قوم من العرب أراضيهم رملية ، فكانوا إذا هرب منهم هارب ، أو دخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به[1] .

ومن عجيب مايروى عنهم أنهم كانوا يعرفون قدم الشاب من الشيخ والمرأة من الرجل ، والبكر من الثيب ، والغريب من المتوطن ، وحكى : أنه اختلف رجلان من القافة فى أمر بعير وهما بين مكة ومِنى ، فقال أحدهما : هو جمل ، وقال الآخر : هى ناقة ، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بنى عامر ، فإذا بعير واقف ، فقال أحدهما لصاحبه : أهوذا ؟ فقال : نعم ، فوجداه خنثى فأصابا جميعا .

ومنهم من كان يخط الرمل فى الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتى بعد .

ومن ذلك ما يحكى أن رجلا شَرَدت له إبل ، فجاء إلى خِراش فسأله عنها ،

(١) وفى بلاد النوبة والسودان قبائل مشهورة بقص الأثر ، ولهم فيه خبرة عجيبة ، وكثيرا ماتستعين بهم الحكومات فى استكشاف الوقائع .

فأمر بنته أن تخط له فى الأرض فخطّت ، ثم قامت فضحك خراش ثم قال : أتدرى لأى شىء قيامها ؟ قال : لا ، قال : قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوجها فاستحيَت ، ثم خرج الرجل فوجد إبله و تزوجها .

وأصل خط الرمل كان فى العرب موهبة يختص الله بها من يشاء منهم ، ثم صار علما وصناعة لايهتدى لفهمه والعمل به على وجه صحيح إلا النذر اليسير .

وأما الفِراسة وهى : الحذق والتثبت من الشىء ، فلا تختص بقبيل من الناس وإن كانت تتفاوت فى بعض النفوس إلى حدٍّ معجز ، وفى الحديث « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » قال ابن الأثير : الفراسة تقال بمعنيين : « أحدهما » مادلّ ظاهر الحديث عليه ، وهو ما يوقعه الله تعالى فى قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات و إصابة الظن والحدْس . « والثانى » نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلقْ والأخلاق فتعرف به أحوال الناس ، وللناس فيه تصانيف كثيرة قديمة وحديثة .

وقال علىّ رضى الله عنه : ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر فى فلَتات لسانه وقَسَمات وجهه ، وأشار ابن عباس رضى الله عنهما على علىّ رضى الله عنه بشىء فلم يعمل به ثم ندم ، فقال : يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان فى الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته ، فأنفتْ نفسى منه فتفرّس ذلك منى فقرأ قوله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَافِى أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ) فندمت واستغفرت الله تعالى فى قلبى ، فتفرّس ذلك أيضاً فقرأ (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) .

وحكى عن الشافعى ومحمد بن الحسن : أنهما رأيا رجلا ، فقال أحدهما : إنه نجار وقال الآخر : إنه حداد ، فسألاه عن صنعته ، فقال : كنت حداداً وأنا الآن نجار . ومن ذلك حكايات ووقائع كثيرة عن العرب وغيرهم تدلّ على بلوغ النفوس البشرية الغاية القصوى من علم هذا الباب الذى هو للنفوس بمنزلة الكشف للأولياء .

قصة نزار بن معدّ بن عدنان

و بنيه ربيعة ومُضَر وإياد وأنمار

وأغرب ما وقفت عليه من ذلك ما روى أن نزاراً لما حضرته الوفاة جمع بنيه مضر و إياداً وربيعة وأنمارا ، فقال : يابَنِىَّ هذه القبة الحمراء لمضر وكانت من أدم ، وهذا الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة ، وهذه الخادمة وكانت شمطاء لإياد ، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون فأتوا الأفعى الجُرْهُمى ومنزله بنَجران[1] .

و بعد موته تشاجروا فى ميراثه ، فتوجهوا إلى الأفعى الجرهمى كما أمرهم ، فبينما هم فى مسيرهم إليه إذ رأى مضر أثر كلأ قد رُعى فقال : إن البعير الذى رَعى هذا لأعْوَرُ ، وقال ربيعة : إنه لأزور ، وقال إياد : إنه لأبتر ، وقال أنمار : إنه لشَرُودٌ ، فساروا قليلا فإذا هم برجل ينشد جَمَلَه فسألهم عن البعير ، فقال

(١) جرهم كقنفذ : حى من اليمن تزوج منهم إسماعيل عليه السلام ، ونجران : موقع باليمن فتح سنة عشر من الهجرة .

مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ، قال ربيعة : أهو أزور ؟ قال نعم ، قال إياد : أهو أبتر ؟ قال : نعم ، قال أنمار : أهو شرود ؟ قال : نعم ، هـذه والله صفة بعـيرى فدلونى عليه ، قالوا : والله ما رأيناه ، قال : هـذا والله الـكذبُ ، وتعلَّق بهم وقال : كيف أصدقـكم وأنتم تصفون بعـيرى بصفته ، فساروا حتى قدموا نجران ، فلما نزلَوا نادى صاحب البعـير : هؤلاء أخذوا جملى ووصفوا لى صفته ثم قالوا لم نره ، فاختصموا إلى الأفعى وهو حَـكَمُ العرب ، فقال الأفعى : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ قال مضر : رأيته يرعى جانبا و يترك جانبا فعلمت أنه أعور ، وقال ربيعة : رأيت إحـدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته فعلمت أنه أزور ، لأنه أفسده بشدة وطئه لازوراره ، وقال إياد : عرفت أنه أبتر باجتماع بعره ولو كان ذيَّالا لمصَع به[1] ، وقال أنمار : عرفتُ أنه شرود لأنه كان يرعى فى المـكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان أفرغ منه وأخبث نبتا فعلمت أنه شرود ، فقال الأفعى للرجل : ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ، ثم سألهم من أنتم ؟ فأخبروه فرحب بهم ثم أخبروه بما جاء بهم ، فقال : أتحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى ؟ ثم أنزلهم فذبح لهم شاة وأتاهم بخمر وجلس لهم بحيث لا يُرى وهو يسمع كلامهم ، فقال ربيعة : لم أر كاليوم لحما أطيب منه لولا أن شاته غذيت بلبن كلبة ، فقال مضر : لم أر كاليوم خمرا أطيب منه لولا أن حَبَلَتها نبتت على قبر ، فقال إياد : لم أر كاليوم رجلا أسرى منه لولا أنه ليس لأبيه الذى يدعى له ، فقال أنمار : لم أر كاليوم كلاما أنفع فى حاجتنا من كلامنا . وكان كلامهم بأذُنِه فقال : ما هؤلاء إلا شياطين ، ثم دعا القهرَمان

(١) يقال : مصعت الدابة بذنبها : حركته وضربت به .

فقال : ما هذه الخمرة وما أمرها ؟ قال : هى من حُبْلَة[1] غرستها على قبر أبيك لم يكن عندنا شراب أطيب من شرابها ، وقال للراعى ، ما أمر هذه الشاة ؟ قال: هى عَناق أرضعتها بلبن كلبة ، وذلك أن أمها كانت قد ماتت ولم يكن فى الغنم شاة ولدت غيرها ، ثم أتى أمه فسألها عن أبيه فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال وكان لا يولد له ، فخفت أن يموت ولا ولد له فيذهب الملك ، فأمكنت من نفسى ابن عم له كان نازلا عليه ، فخرج الأفعى إليهم فقصَّ القوم عليه قصَّتهم وأخبروه بما أوصى به أبوهم ، فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر فسمى مُضَر الحمراء ، قال : وأما صاحب الفرَس الأدهم والخباء الأسود فله كل شىء أسود فصار لربيعة الخيل الدهم فقيل ربيعة الفرَس ، قال : وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد فصار له الماشية البلق من الحَبَلَّق والنَّقَد ـ الحبلَّق : غنم صغار لا تـكبر ، والنَّقَدُ صنف من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه ـ فسمى إياد الشمطاء ، وقضى لأنمار بالدراهم و بما فضل فسمى أنمار الفضل فصدروا من عنده على ذلك اهـ .

فانظر إلى هذه القصة الغريبة فإذا صحت[2] فهل مثل ذلك يتوصل إليه باعتدال مزاج ، أو كسب علم ، أو قوة مجموع عصبى ؟ كلا ، و إنما هى النفوس الصافية الملهمة والاستعدادات الفطرية والمواهب الإلهية التى يختص الله بها من يشاء من عباده ، وسبحان واهب المنن جلت قدرته وعظمت حكمته (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ـ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ـ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

(١) الحبلة بالضم : الكرم أو أصل من أصوله ، ويحرك .

(٢) فيه إشارة إلى الشك فى صحتها .

المبحث السابع

فى تقدم خلق الأرواح على الأبدان أو تأخره عنها

وقد اختلفوا فى تقدُّم خلق الأرواح على أجسادها ، فذهب جمهور المتكلمين إلى أنها مخلوقة قبل الأجساد ، وممن ذهب إلى هذا القول محمد بن نصر المروزى ، وأبو محمد بن حزم الظاهرى الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ وغيرهما من العلماء ، حتى حكاه ابن حزم إجماعا ، واستدلوا له بآيات وآثار منها قوله تعالى (وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى[1]) وهذا الاستنطاق والاستشهاد إنما يكون للأرواح ، إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن هذه الآية ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها فقال « خَلَقَ اللهُ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : خَلَقْتُ هٰؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ ، وَخَلَقْتُ هٰؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ » .

وعن أبى هريرة مرفوعا « لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ » .

وعن عمرو بن عَبَسَةَ السُّلَمِى قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

---

(١) آية ١٧٢ الأعراف .

« إِنَّ اللهَ خَلَقَ أَرْوَاحَ الْعِبَادِ قَبْلَ الْعِبَادِ بِأَلْفَيْ عَامٍ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » إلى غير ذلك مما احتج به أصحاب هذا القول

وذهب آخرون إلى أن خلق الأرواح ليس متقدما على خلق الأبدان ، واستدلوا له بأدلة : منها قصة خلق آدم عليه السلام . فإن الله سبحانه أرسل جبريل عليه السلام فقبض قبضة من الأرض ، ثم خمَّرها حتى صارت طينا ، ثم صوَّره ، ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوَّره . فلما دخلت الروح فيه صار لحما ودما حيًّا ناطقا ، وعند ذلك أمر الملائكة بالسجود له كما قال تعالى (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح ولو كانت روحه مخلوقة قبل بدنه مع جملة أرواح ذريته لما عجبت الملائكة من خلقه ولما تعجبت من خلق النار ، وقالت لأىِّ شىء خلقتها ؟

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه الإخبار عن خلق أجناس العالم وتأخر خلق آدم إلى يوم الجمعة ، ولو كانت الأرواح مخلوقة قبل الأجسام لكانت من جملة العالم المخلوق فى ستة أيام ، فلما لم يخبر عن خلقها فى هذه الأيام علم أن خلقها تابع لخلق الذرية وأن خلق آدم وحده هو الذى وقع فى اليوم السادس . وأما خلق ذريته فعلى الوجه المشاهد المعاين .

ولو كان للروح وجود قبل البدن وهى حية عالمة ناطقة لكانت ذاكرة لذلك فى هذا العالم شاعرة به ولو بوجهٍ مَّا .

وقد اختار هذا القول ابنُ القيم ، وأجاب عن أدلة الجمهور بما لا يخلو عن تعسف ، ثم قال : على أن هذه الآيات والآثار لا تدل على سبق الأرواح على

الأجساد سبقا مستقراً ثابتاً ، وغايتها أن تدل بعد صحتها وثبوتها على أن بارئ الأرواح سبحانه صوّر النَّسَم وقدَّر خَلْقها وآجالها وأعمالها ، واستخرج تلك الصور من مادتها كما يشير إليه حديث مسح الظهر ، ثم أعادها إليها ، وقدّر خروج كل فرد من أفرادها فى وقته المقدر له ، ولا دلالة لها على أنها خلقت خلقا مستقراً ، ثم استمرت موجودة فيه عالمة ناطقة كلها فى موضع واحد ثم ترسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قاله أبو محمد بن حزم .

نعم ، الرب تعالى يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الذى سبق به التقدير أولا، فيجيء الخلق الخارجى مطابقا للتقدير السابق كشأنه تعالى فى جميع مخلوقاته فإنه قدر لها أقدارا وآجالا وصفات وهيئات ، ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير الذى قدره لها لا تزيد عليه ولا تنقص اه .

ولا يخفى أن الآيات والأحاديث التى ساقها وأجاب عنها ظاهرة فيما ذهب إليه الجمهور وكثرة النصوص المتضافرة على معنى واحد ، يبعد معها ارتكاب التأويل إلا لقاطع خصوصا إذا كان التأويل بعيدا .

على أن ماذكره من الأدلة لتأييد رأيه ضعيف كما ترى .

وفى المواقف وشرحه اتفق المليّون على أن النفس الناطقة حادثة ، إذ لاقديم عندهم سوى الله وصفاته ، لكنهم اختلفوا فى أنها هل تحدث مع حدوث البدن أو قبله[1] ، فقال بعضهم : تحدث معه لقوله تعالى بعد تعداد أطوار البدن

(١) أى هل خلق الروح بعد خلق البدن أو قبله ؟ فقال بعضهم : بعده ، لقوله تعالى الخ . تأمل فى السابق واللاحق .

(ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)[1] والمراد بهذا الإنشاء إفاضة النفس على البدن ، وقال بعضهم : بل قبله لقوله عليه الصلاة والسلام « خَلَقَ اللهُ الأَرْوَاحَ قَبْلَ الأَجْسَادِ بِأَلْفَيْ عَامٍ » ، وغاية هذه الأدلة الظن دون اليقين الذى هو المطلوب . أما الآية فلجواز أن يريد بقوله « ثم أنشأناه خلقا آخر » جعل النفس متعلقة به وإنما يلزم من ذلك حدوث تعلقها لا حدوث ذاتها . وأما الحديث فلأنه خبر واحد فتعارضه الآية ، وهى مقطوعة المتن مظنونة الدلالة والحديث بالعكس فلكل رجحان من وجه فيتقاومان اه .

وفى الآلوسى ما يفيد نسبة القول بحدوث الأرواح بعد حدوث الأبدان إلى أكثر الإسلاميين ، حيث قال فى تفسير قوله تعالى (ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قيل : الخلق الآخر الروح ، والمراد بها النفس الناطقة ، والمعنى أنشأنا له أو فيه خلقا آخر ، والمتبادر من إنشاء الروح خلقها ، وظاهر العطف بثم يقتضى حدوثها بعد حدوث البدن[2] وهو قول أكثر الإسلاميين ، وإليه ذهب أرسطو . وقيل : إنشاؤها نفخها فى البدن وهو عند بعضٍ عبارة عن جعلها متعلقة به ، وعند أكثر المسلمين جعلها سارية فيه ، وإن أريد بالروح الروح الحيوانية ، فلا كلام فى حدوثها بعد البدن وسريانها فيه ، وقيل : الخلق الآخر القوى الحساسة اه .

* * *

(١) آية ١٤ المؤمنون .

(٢) لأن أكثر مايستعمل فيه لفظ ثم الترتيب الزمانى .

هذه آراء علماء الإسلام فى خلق النفس الناطقة ، وأما الفلاسفة فمنهم من ذهب إلى أنها قديمة بالنوع حادثة بحدوث الأبدان ، فكلما حدث بدن حدثت له نفس تليق به وباستعداده الذى أفيض عليه من المبادئ العالية ، وهى غير متناهية الأبدان . وقيل : إنها متناهية وقديمة بالشخص وأبدان الإنسان غير متناهية ، وهو مذهب القائلين بالتناسخ : أى تعلق بعض نفوس الأبدان بأبدان أخرى بعد فناء الأولى .

والقولُ بأن الأرواح لو كانت موجودة قبل الأبدان لكانت قبل تعلقها بها معطلة ، ولا تعطيل فى الطبيعة ، كما أن تعريف النفس بأنها كمال أوّل لجسم طبيعى آلىّ من حيث أنه يعقل الكليات ويستنبط بالرأى يقتضى أنها لا تتحقق إلا مع الجسم -قد أجيب عنه- بأن لزوم التعطيل لو كانت موجودة قبل الأبدان بما هى نفس : أعنى بكونها كمالا لجسم إلى آخره ، فإنه الذى يستكمل بالتعلق بالبدن ، ويعرَّف بهذا التعريف الإضافى . أما إذا كانت موجودة بنحو آخر من الوجود فوق كونها نفسا كالروح فلا ، ولذا قال الحكماء : إن الروح يختص بما لا حاجة له جسمانية فيكون أعلى من النفس ويسمونه العقل .

وفى الأسفار الشيرازية أن النفس الإنسانية ليس لها مقام معلوم فى الهُوِيَّة ، ولا درجة معينة فى الوجود كسائر الوجودات الطبيعية ، بل هى ذات مقامات متفاوتة ، ونشآت سابقة ولاحقة ، ولها فى كل مقام وعالم صورة أخرى ، كما قيل :

لقدْ صارَ قَلْبى قَابِلاً كُلَّ صُورَةٍ   فَمَرْعًى لِغِزْلاَنٍ وَدَيرًا لِرُهْبَانِ

وما هذا شأنه صعب إدراك حقيقته وفهم هويته .

المطلب الثانى

فى تعلق الأرواح بالأبدان

وفيه مباحث :

المبحث الأول

فى افتقار كل من الروح والبدن إلى الآخر

اعلم أن البدن متى بلغ الحدّ الذى يصلح فيه لقبول الآثار الفائضة عليه من عالم التدبير تعلقت به الروح ، وأفادته هذه الآثارَ حسب قبوله واستعداده ، كما أنها تستفيد منه ماهى مستعدة له من الكمال المنتظر بواسطة البدن وآلاته ، فإن النفس - كما فى الأسفار الشيرازية - وإن كانت بحسب ذاتها وحقيقتها المطلقة غير مفتقرة إلى البدن إلا أن الله تعالى جعل لها غايات بمقتضى الفطرة الأصلية لابد من بلوغها إليها ، وقضى لها وعليها بمقامات لابد أن تستوعبها وتبلغ غايتها التى بها تستحق ما أعده الله لها فى الآخرة من النعيم المقيم أو العذاب الأليم ، وذلك يتوقف على أفعال مختلفة بواسطة آلات وقوى متغايرة ، هى فيها كامنة موجودة بالقوة فى نشأتها الأولى فى العالم العقلى ، فاقتضت حكمته تعالى انتقالها من ذلك العالَم إلى عالم آخر تظهر فيه الأفاعيل التى بها تبلغ تلك الغاية ، فاذا مضت مدتها المحدودة لها فى العالم العقلى حال نشأتها الأولى انسلخت عما كانت عليه من المعرفة والإدراك والوجود العقلى ، وجعلت جسما طبيعيا ماديا يوافق التعلق

بالبدن الجسمى والهيكل الذى تبلغ به أقصى غاياتها. فافتقرت إلى البدن ، لا من حيث حقيقتها المطلقة فإنها لا تتوقف عليه بدليل وجودها بدونه قبله و بعد مفارقته ، بل من حيث وجود تعيُّنها وتشخُّصها وحدوث هويتها النفسية التى بها تبلغ تلك الغاية ، وبها تتوجه التوجه الطبيعى إلى ما يقرِّبها إلى المبدإ الفعال الذى هو غاية الغايات (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى) فتكسب بهذه النشأة أخلاقا وملكات شريفة أو خسيسة وآراء واعتقادات حقة أو باطلة فتصير بالفعل بعد كونها بالقوة اه .

خاصية بعض النفوس القدسية فى النشأة الثانية

وانسلاخها فى النشأة الثانية عما كانت عليه من المعرفة والإدراك والوجود العقلى حال نشأتها الأولى لاينافى ما يكون لبعض النفوس القدسية حال نشأتها الثانية من المعرفة والإدراك والوجود العقلى كما فى أرواح الأنبياء ، ولا يقتضى رجوعها إلى الوجود العقلى المحض ، بل لايزال عارض البشرية باقيا معها ، وإن لَطُفَ بالتغلب فذلك لايخرجها عن الوجود الحسى مادامت متعلقة بالبدن الطبيعى ، ويكون لها مع البدن فى هذا الموطن وجود آخر قد يسمى بالوجود الروحانى ، وهو غير وجودها العقلى فى عالَم الأمر ، وغير وجودها الطبيعى فى عالَم الشهادة .

ومن هذا القبيل ماروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان ينسلخ عن بشريته إلى روحانية ملكية كما وقع له فى ليلة الإسراء والمعراج ، فإن الروحانية إذا

غلبت على الجسمانية جذبتها إلى العلوّ ، وكلما استولت أنوار الروحانية على الجسمية أخذت فى الخفة واللطافة حتى تكون أرق من الهواء ، وتسرى فى الصخور وفى البحور كما تسرى فى الهواء ، ولذلك لما كملت هذه الحالة فى نفوس بعض الأنبياء صح صعودهم إلى السماء ومُقامهم مع الروحانيات فى العالم العلوى كما قال تعالى فى قصة إدريس عليه السلام (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) ، وفى حق عيسى عليه السلام (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) ، وفى حق محمد صلى الله عليه وسلم (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) وفى هذه الحاله تنمحى آثار بشريتهم وأحكام جسمانيتهم فلا يحتاجون فى قِوام حياتهم إلى هذا الطعام والشراب ماداموا فى هذا الموطن الرفيع .

وقد يكون لبعض أرواح الأصفياء وهم فى هذا العالم المحسوس شيء من هذا القبيل ، فقد شوهد أن بعض الأولياء يحبس فى غرفة لامنفذ فيها ، ثم يرى خارجا عنها وهذا أمر لامِرْية فيه ، وإنما الكلام فى تصوُّره ، وقد علمت وجهه وأن تغلب الروحانية على البشرية ينسخ أحكامها حتى يصير البدن من جنس الروح ويثبت له من الآثار والأحكام ما يثبت لها .

المبحث الثانى

فى أنواع تعلق الروح بالبدن

تقدم أن تعلق الروح بالبدن إما تعلق سريان وحلول[1] . أو تعلق تدبير وتصرف[2] . أو تعلق تجلٍّ وظهور[3] . وأنواعه خمسة مختلفة الأحكام والآثار .

(١) تعلق الروح بالبدن وهو جنين .

(٢) تعلقه به بعد انفصاله من الرحم .

(٣) تعلقه به حالة النوم .

(٤) تعلقه به فى البرزخ بعد الموت .

(٥) تعلقه به يوم البعث والنشور .

المبحث الثالث

فى تعلق الروح بالبدن وهو جنين فى بطن أمه

قال تعالى فى سورة السجدة (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) أى خلق آدم عليه السلام (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) أى النطفة

---

(١) وهو مذهب جمهور المتكلمين وأئمة الصوفية كما تقدم .

(٢) وهو مذهب الفلاسفة .

(٣) وهو مذهب بعض الصوفية .

(ثُمَّ سَوَّاهُ) أى النسل (وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ) وهو جنين وأضيفت الروح إليه تعالى للتشريف كما فى « بيت الله » وذلك النفخ بواسطة المَلَك الموكل بذلك .

وقال تعالى فى سورة المؤمنون بعد ذكر أطوار التخاليق لنسل آدم (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) أى بنفخ الروح فيه .

وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فى بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ » رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

وفى بعض الروايات « ثُمَّ يَكُونُ عَظْمًا أَرْبَعِينَ يَوْمًا فإِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُسَوِّيَ خَلْقَهُ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ » والمفهوم من هذه الرواية أن الجنين لاتنفخ فيه الروح إلا بعد مائة وستين يوما ، وهذا غير ماتفيده الرواية الصحيحة المتقدمة من أن نفخ الروح بعد مائة وعشرين يوما وهو المشهور المعروف .

ثم هذه التطورات الخِلْقية وهى صيرورة المادة المَنَوية المعبر عنها بالنطفة علقة ثم مضغة الخ ، إنما تكون بإزالة الصورة الأولى عن المادة المنوية وإفاضة صورة أخرى عليها ، وهو المسمى عند الحكماء بالكون والفساد ، ولا يخلو ذلك من الحركة فى الكيف الاستعدادى ، فإن استعداد المادة مثلا للصورة الأولى الزائلة يأخذ فى الانتقاص واستعدادها للصورة الثانية الكائنة يأخذ فى الاشتداد

ولا يزال الأول ينقص والثانى يشتدُّ إلى أن تنتهى المادة إلى حيث تزول عنها الصورة الأولى فتحدث فيها الثانية دفعة فتتوارد هذه الاستعدادات التى هى من مقولة الكيف على موضوع واحد ، وهكذا فى خلق المضغة عظاماً صغاراً وعظاماً ثم تنفخ فيه الروح فتكسبه حياة تستتبع الحسّ والحركة الإرادية لأنها حية بالذات ، والبدنُ يحيا بحياتها وذلك أول أثر من آثارها المادية . وأما حياته قبل ذلك على ما ذكره بعض الأطباء فتلك حياة النمو كحياة النبات أو حياة الحيوان من حيث هما حيّان .

نفخ الروح فى آدم عليه السلام واختصاصاته الربانية

وكذا الحال فى نفخ الروح فى آدم عليه السلام ،فإنه تعالى خلقه من عنصر التراب كما خلق الجن من عنصر النار ، وهو أصل الطين اللازب الذى صار حَمَأً مسنونا ثم صَلصالا كالفَخّار . قال تعالى فى خلق آدم (خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ[1]) . (إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ[2]) ، (إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ[3]) أى باعتبار خلق أصلهم منه (مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ[4]) (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ[5]) ثم نفخ فيه من روحه فأكسبه الحس والحركة الإرادية ، كما قال تعالى للملائكته (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[6]) .

(١) آية ٥٩ آل عمران .
(٢) آية ٧١ ص .
(٣) آية ١١ الصافات .
(٤) آية ٣٣ الحجر .
(٥) آية ١٤ الرحمن .
(٦) بقية آية ٧١ ص .

وذلك بأن تعاقبت الصور الكائنة على مادته الطينية حسب تعاقب الاستعدادات إلى أن انتهت إلى الصورة الإنسانية ثم نفخت فيه الروح .

وهل كان النفخ فيه أثناء تطور مادته كما فى خلق ذريته أو بعد تمام خلقته كما هو الظاهر من هذه الآية ، فإن الظاهر منها أن نفخ الروح فيه كان بعد تسويته أى تصويره بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية ، فليس شأنه عليه السلام فى مادته واستعدادها لتعاقب صوره ثم نفخ الروح فيه كشأن ذريته ، بل له شأن يخصه حتى فى نافخ روحه فقد قال ابن القيم : إن الروح الذى نفخ الله فى آدم روح مختص به تعالى كما تنبئ عنه إضافته إليه ، وليس هو بواسطة الملك الذى ينفخ الروح فى سائر أولاده ، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص ، وقد ذكر فى الآيات والأحاديث ما اختص به عن غيره ، وهو أربعة أشياء : خلق بدنه بيده ، ونفخه فيه من روحه ، وإسجاد ملائكته له ، وتعليمه أسماء الأشياء كلها ،و إلى هذا الاختصاص السامى أشار صلى الله عليه وسلم بقوله « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » .

وكذلك الروح المرسل إلى مريم التى أحصنت فرجها كما قال تعالى (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) أى الروح الذى اختصه لنفسه وأضافه إليه وهو روح خاص من بين سائر الأرواح ، والمشهور أنه جبريل عليه السلام والملك الموكّل بالنفخ فى بطون الحوامل من المؤمنين والكافرين ملك آخر يرسله الله تعالى إلى الحوامل بعد تقلب المادة المنوية فى طَوْر النطفة أربعين يوما ، ثم طَوْر العلقة كذلك ، ثم طَوْر المضغة كذلك ، فينفخ فيه الروح ويكتب له تلك الكلمات الأربع المذكورة فى الحديث .

تقلب الجنين فى أطوار التخليق

وقد ذكر الله تعالى فى عدة مواضع من القرآن تقلب الجنين فى هذه الأطوار ، وزاد عليها فى سورة المؤمنون طور العظام واللحم والإنشاء الآخر . قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ[1]) .

أى ولقد خلقنا جنس الإنسان من خلاصة من الطين ، وذلك بخلق أصله وهو آدم عليه السلام منها ، وهذا يستلزم أن يكون كل فرد من أفراد الإنسان مخلوقاً من تلك السلالة خلقاً إجماليا فى ضمن خلق أبى البشر آدم عليه السلام ، ثم جعلنا ذلك الجنس نطفة باعتبار أفراده ماعدا آدم عليه السلام .

وقيل : المراد بالإنسان آدم نفسه ، وعود الضمير عليه بمعنى نسله على طريق الاستخدام ، أو بتقدير مضاف : أى جعلنا نسله ، ويحتمل عود الضمير على « سلالة » والتذكير بتأويلها بالمسلول ، أى ثم صيرنا السلالة نطفة ؛ وعلى كل حال فسلالة الطين هى أول أجزاء التخاليق التفصيلى لآدم عليه السلام ، والنطفة أولها لأولاده .

ثم قال تعالى بعد ذكر أطوار التخليق ، وطور كسوة العظام لحما (ثُمَّ

(١) آيات : ١٢ — ١٤ .

أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) أى خلقاً مباينا مباينة كلية للخلق الأول الذى هو لتخطيط مادته وتصوير هيكله حيث جعلناه حيوانا ناطقا سميعاً بصيراً كما قال تعالى فى آية السجدة (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وأودع فى كل عضو وكل جزء منه عجائب وغرائب لا تدرك بوصف ولا تبلغ بشرح ، فأشار سبحانه بهذه النشأة البديعة إلى نوع آخر من الخلق بعد هذه المراتب المتدرجة فى قوالب التكوين والتصوير كما قال تعالى : (يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)[1] ، ويترتب عليه من الظواهر والآثار ما يقصر العقل عن فهم دقائقه ، وذلك النوع الآخر هو ما يكون بنفخ الروح فى البدن ، ويدل لذلك حديث ابن مسعود المتقدم وما رواه زيد بن علىّ عن أبيه عن علىّ قال : « إِذَا تَمَّتِ النُّطْفَةُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكاً فَيَنْفُخُ فِيهَا الرُّوحَ فِى الظُّلُمَاتِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) .

وفى بعض الروايات مايفيد أن نفخ الروح يتأخر عن الأربعة أشهر بعشرة أيام ، وعن بعض الفقهاء أنه قد يكون أقل ، فإن صح ذلك فالجمع بينه وبين حديث ابن مسعود أن ذكر الأربعة أشهر فيه محمول على الغالب وأن اختلاف المدة لاختلاف استعداد الأجنة فى بطون أمهاتها ، والأمر بيد الله يبعثه فى وقته المقدر .

(١) آية ٦ الزمر .

كلام الأطباء في تصوير الجنين وتحركه ووقتهما

وظاهر أن مسألة نفخ الروح التى تعرّض لهـا الحديث الصحيح غير مسألة تصوير الجنين وتحركه ، والحديث لم يتعرض لوقتهما ، فلا ينافى ماذكره الأطباء من أن الجنين إن تصور فى خمسة وثلاثين يوما تحرك فى سبعين ، وولد فى مائتين وعشرة أيام ، وذلك سبعة أشهر ، وربما تقدم أياما وتأخر فى التصوير والولادة ، وإذا كان التصوير فى خمسة وأربعين يوما تحرك فى تسعين وولد فى مائتين وسبعين يوما ، وذلك تسعة أشهر .

ولا يلزم من تحركه فى السبعين أو التسعين نفخ الروح الإنسانى وقتئذ ، لأن هذه الحركة التابعة للتصوير من لوازم الروح الطبيعية المنبثة فى سائر البدن القائمة به ، وهى غير الروح الإنسانية القائمة بنفسها المنزَّلة من عرشها ، والروح المنفوخةُ هى الثانية دون الأولى المتقدمة عليها فى الوجود .

وقد ذكر بعض الأطباء أن المنِيّ إذا وقع فى الرحم حصل له زَبدِيّة ورغوة[1] ستة أيام أو سبعة ، وفى هذه الأيام تصور النطفة من غير استمداد من الرحم ، ثم بعد ذلك تستمد منه ، وابتداء الخطوط والنقط بعد هذا بثلاثة أيام ، وقد يتقدم يوما أو يتأخر يوما ، ثم بعد ستة أيام وهو الخامس عشر من وقت العلوق ينفذ الدم إلى الجميع فيصير علقة ، ثم تتميز الأعضاء تميزا ظاهرا ، ويتنحى بعضها

(١) الرغوة مثلثة الراء : وهى الزبد .

عن ممـاسـَّة بعض ، وتمتد رطوبة النخاع ، ثم بعد تسعة أيام يتميز الرأسُ عن المنكبين والأطرافُ عن الأصابع تميزا يستبين فى بعض ويخفى فى بعض .

قالوا : وأقل مدة يتصور فيها الذكر ثلاثون يوما والزمان المعتدل فى تصوير الجنين خمسة وثلاثون يوما ، وقد يتصور فى خمسة وأربعين يوما [انظر جامع العلوم والحكم للحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن أحمد ، المعروف بابن رجب الحنبلى] .

وهذا التصوير لمـا كان دقيقاً غير محسوس ، وكان الغالب على الجنين فى الطور الأول أعراض النطفة ، وفى الأربعين الثانية أعراض العلقة ، وفى الأربعين الثالثة أعراض المضغة ، ورد الحديث على هذا البيان طبقا للظاهر المحسوس وإن كان خلق الجنين وتصويره قد تمّ قبل ذلك ، فإن نفخ الروح الإنسانى مستدع لتمام خلقه وتصويره ، كيف والروح هى اللطيفة الربانية المتعلقة بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وذلك يستدعى تمام الخلقة والتصوير .

تسوية النطفة وإعدادها لنفخ الروح

النفخ : إخراج الهواء من جوف النافخ وإيصاله إلى المنفوخ فيه حتى يشتعل كالحطب القابل للنار مثلا ، أريد به هنا غايته ونتيجته ، وهو اشتعال نور الروح فى فتيلة النطفة بعد تسويتها باستعدادها لنفخ الروح فيها من الملَك الموكل بذلك ، وقيل : ليس ثَم نفخ وإنمـا هو تمثيل لإفاضـة مابه الحياة بالفعل على المادة القابلة لها بعد التسوية المشار إليها بقوله تعالى فى حق آدم (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)

أى أعددته للنفخ بتوارد صور الإبداع والتكوين ، فإنه جل شأنه كما جعل الصلصال فى خلق آدم على حالة خاصة بتعاقب الأطوار عليه حتى اعتدل واستوى واستعد استعداداً تاما لنفخ الروح فيه جعل النطفة فى خلق نسله على مزاج خاص قابل لصور كمالية تصدر عنه جميع الأطراف والأضداد ، كالجذب ، والدفع ، والشهوة ، والغضب ، والأفاعيل المختلفة ، وأفاض عليها الروح بواسطة الملك الموكل بنفخ الأرواح بعد مائة وعشرين يوما من إلقائها فى الرحم ، فصارت إنسانا مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها كما أشار إليه جلّ صنعه بقوله فى سورة المؤمنون (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) أى أنشأنا له أو فيه خلقاً آخر ، وهو الروح ، أى النفس الناطقة على ما تقدم بيانه فى المبحث السابع من المطلب الأول .

* * *

وقد وقع الإجماع على أن النطفة تكون من خالص الغذاء ، وأنها تنفصل من هضم العروق بعد اثنتين وسبعين ساعة من تناول الغذاء المعتدل المزاج كما ذكره صاحب النزهة الأنطاكية . قال : واختلف فى كون المنى مشتبه المزاج ، مختلف الأجزاء لخروجه من كل عضو فيكون فيه اللحم والعظم والغشاء وغيرها ، أو هو مختلف المزاج مشتبه الأجزاء لأننا نجد الشبه فى المولود واقعاً فى الشعر والظفر مع أنه لم ينفصل منهما شىء .

أقول : وفيه أن الشبه لاينحصر فى ذلك ، بل قد يحدث من الوهم كما صرح به الشيخ الرئيس حيث قال : وكلما تخيلته الواهمة حال الإنزال اتصف به الولد ، بل ماتخيلته المرأة زمن التخليق ، ولذا نجد كثيراً من النساء يضعن صوراً جميلة الشكل واللون ويكثرن من النظر إليها زمن الحمل ، فيجىء الولد شبيها بها ولو من بعض الوجوه .

وفى إحياء الغزالى مايشير إلى طلب إمعان النظر فى أسرار صنع هذا التخليق البديع حيث قال : وانظر كيف أخرجها ، أى النطفة ، من بين الصلب والترائب وحفظها من التلاشى والافتراق ، مع كونها مائية قذرة لو تركت ساعة لفسد مزاجها ، ثم جعلها فى قرار مكين وهو الرحم لينضجها بحرارته ، ثم جعلها وهى بيضاء علقة حمراء ، ثم مضغة ، ثم قسمها مع كونها متشابهة الأجزاء إلى عظام وعروق وأعصاب ولحوم وغيرها من الأعضاء البسيطة ، ثم ركّب من هذه الأعضاء البسيطة الأعضاء المركبة من : رأس ، ويد ، ورجل ، ومعدة ، وأمعاء إلى غير ذلك ، وشكّلها بأشكال مختلفة متناسبة مناسبة لأفاعيلها ، وخلق ذلك كله فى جوف الرحم فى ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، ولو كشف عنك الغطاء لرأيت التخاطيط والتصاوير تظهر على المضغة شيئا فشيئا ولا ترى آلة الفعل فى ذلك قطّ (هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ) فتبارك الله أحسن الخالقين اهـ .

استدعاء البدن للروح وتقويمها له
واشتعال نورها فى سائر أعضائه

وكما أن النفس قد استدعت لنيل استكمالها جسما يكون بهذه التسوية على أبهج نهج وأحسن تقويم ـ كذلك الجسم قد استدعى باستعداده الخاص من واهب الصور صورةً مدبرة له ، متصرفة فيه تصرفاً يحفظ وجوده الشخصى وكمالَه النوعى ، فلذلك أعطاه صورة روحانية ذات إدراك وعقل وفكر وأشعل نورها فى جواهر أعضائه بواسطة ملائكة يتولّون إدخالها فى البدن كما ورد به الحديث الصحيح ، وكما جرت به عادة الله فى شئونه الكونية حيث يدبِّرها ويتصرف فيها بالوسائط والأسباب التى هى فى الحقيقة من تمام إمكان القابل، وهو جلّ شأنه غنىّ عنها بذاته فى تأثيره وإيجاده (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ـ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) وإنما هو كمال الربوبية اقتضى الإيجاد بها أو معها ولله الحكمة البالغة .

وباشتعال نور الروح فى فتيلة النطفة وامتزاجها بها صارت مقوِّمة لها بحيث تتحرك بحركتها ، وتحس بإحساسها ، وتنمو بنمائها ، فهى الحاملة لقواها وجميع آلاتها ، واذكر ماتقدم[1] عن القطب الشيرازى أن الروح إذا انتقلت إلى العالم الجسمانى انسلخت عما كانت عليه من المعرفة والإدراك والوجود الفعلى ، وصارت جسما ماديًّا يوافق التعلق بالبدن الجسمى ، فافتقرت إلى البدن من حيث وجود

(١) راجع المبحث الأول من المطلب الثانى .

تعينها وتشخصها وحدوث هُوِيَّتها النفسية ، لا من حيث حقيقتها المطلقة ، ولكن لا يزال نورها المشتعل فى جوهر الأعضاء باقيا معها .

وهذا النور الفائض عن الروح المشتعل فى جوهر الأعضاء هو الذى يتمشى مع الروح فى سائر أعضاء البدن ويلازمها أثناء الحياة ملازمة الظل للشاخص ، وعنه تفيض قوى الحس والحركة ، وبه تظهر الآثار والأفاعيل المختلفة ، وهو الذى يضىء للأنبياء والأولياء والصالحين ، وبه تتشكل الأرواح وفيه تظهر صور الملائكة والجان ، وهو الذى يستخدمه أصحاب الرياضات وأرباب العزائم والطلاسم .

وأهل صناعة التنويم والتحضير يعبرون عنه بغلاف الروح ويقولون إنه مادة بخارية شديدة اللطف ، وأن الروح الذى هو ينبوع هذا النور العظيم مركزه الأقوى ومظهره الأجلى هو المجموع العصبى ومنه تنتشر أنواره وتوزع قواه ، وهو أتم وأكمل من النور الموجود فى عالمنا المحسوس .

كلام صاحب الإبريز وابن سينا
فى إنزال الروح إلى البدن وفراقها له

وفى الإبريز : لولا أن الله سبحانه أمر الأرواح وعرّفها إياه وأمدها من نوره صلى الله عليه وسلم ما قدر ملك على إنزالها من عالمها الروحانىّ وإدخالها فى البدن ، فإنّ نفخ الروح فى البدن المادى الكثيف مع تباين ذاتهم واختلاف أحكامهما ليس بالأمر السهل الهين ، ولذا قيل . إن الروح لتنزعج من إدخالها

فى البدن ونزعها من عالمها الأول ، وهو عالم اللطافة والأنس إلى عالم الكثافة والوحشة ، كما أنها قد تنزعج من فراقها للبدن بعد ائتلافها به كما قال الحسين ابن سينا فى عينيته :

وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ إِلَيْكَ وَرُبَّمَا ... كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهِيَ ذَاتُ تَوَجُّعِ

وذلك أن الروح فى أصل خلقتها منزهة عن الأكدار الصبيعية ، لاتجانُس بينها وبين الأبدان المادية المظلمة ، والأنسُ بين الأشياء بحسب المناسبة والملاءمة ، ولذا قيل : الجنسية علة الضم ، والروحانيات النورانية ، والماديات الظلمانية ضدان متنافران ، فإذا تنزلت من عالمها ولا تتنزل إلا على كُرْه ، وتعلقت بالبدن وشعرت بالحاجة إليه ، وأنه آلة لها فى تحصيل كمالاتها بَعُدَت من مكانها الأول وتبدلت صفاتها بصفاته ، فتألفه ولا تمله وتكره مفارقته ، وإن طالت صحبته . وإذا رأت مقدمات خراب هذا الهيكل وانحلال تركيبه حصل لها كرب وهَوْل لم يقع لها نظيره من قبل ، ويكون حرصها حينئذ على تدبيره ودفع الضرر عنه وجلب المنفعة له شاغلا لها عن التهيؤ لرفعها إلى الملكوت الذى دنا عودها إليه كما قال :

أَنِفَتْ وَمَا أَنِسَتْ فَلَمَّا وَاصَلَتْ ... أَلِفَتْ مُجَاوَرَةَ الْخَرَابِ الْبَلْقَعِ

ثم إن كراهتها للفراق تارة يكون طلبا لاكتسابها به الفضائل التى هى سبب سعادتها الأبدية ، وتارة يكون حرصا على اللذات الجسمية ، والشهوات البهيمية ، وإيثارا لما فى عالم الملك والشهادة على مافى عالم الملكوت .

وقد يقع لبعض النفوس أنها لا تكره فراق هيكلها بل تتمناه .

وفى فتوحات الشيخ الأكبر أن الروح الإنسانية أوجدها الله تعالى مدبرة لصورة جسمية ، سواء كان فى الدنيا ، أو فى البرزخ ، أوفى الدار الآخرة ، وأن أول صورة لبستها ـ الصورةُ التى أُخِذ عليها الميثاق فيها ، قال : ثم حشرها فى تلك الصورة إلى هذه الصورة الجسمانية الدنيوية في رابع شهر من تكوُّن صورة جسده فى بطن أمه إلى ساعة موته اه . وهو ظاهر فى أن الصورة النَّسَمِيَّة المشار إليها فى حديث مسح الظهر ليست هى الأرواح كما قيل ، بل الأرواح متعلقة بها كتعلقها بالأبدان فى نشأتها الجسدية ، وأن الروح إنما تنفخ فى بطن الجنين بتلك الصورة النسمية ، وعليه تكون أنواع التعلق ستة لا خمسة بزيادة تعلقها بالصُّور فى عالم الذَّر والنَّسَم .

وقد يقال : إن هذه صورة لطيفة للروح لا صورة بدن كثيفة لها ، والأرواح إنما تتنزل إلى أبدانها بتلك الصور الأَمْرِيَّة فتأخذ عند نفخها فى البدن صورة خَلْقية كما قال تعالى (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) والكلامُ فى تعلقاتها الخَلْقية وأولها التعلق بالجنين فى بطن أمه عند نفخها فى أول طور العظام .

اختصاص نفخ الروح بطور العظام

تقدم أن الروح فى ذاتها بغاية اللطافة ، وأنها بعيدة غاية البعد عن هذا العالم المحسوس ، وأنها أنزلت من عالمها الروحانىّ إلى هذا العالم الظلمانىّ الكثيف ، فتبدلت صفاتها بصفاته ، وتدرجت فى النموّ والحسّ والحركة تدرجا لائقا بهذا الموطن الدقيق ، وأن نفخ الروح فى البدن مستدعٍ لتمام خلقه وتصويره .

و إنما اختص طور العظام بنفخ الروح فى البدن وتعلقها به لأنه الطور الذى صَلُبت فيه المضغة حتى صارت عظاما مقوِّمة للهيكل الإنسانى قابلة للآثار الروحية والأفاعيل المختلفة ، فهو الحد الذى يصلح فيه البدن لقبول الآثار الفائضة عليه من عالم التدبير .

ولضعف القوى والآلات فى هذا الموطن ، وانحصار الجنين فى أغشية التخاليق كان طور الصورة الروحية مثل الجنين ضعيفا ، فكان هذا النوع من التعلق أضعفَ الأنواع وأقلّها فى الخاصية والأثر ، حتى كاد وهو محقق معلوم يكون من عالَم الغيب لا من عالَم الحس والشهادة ، وإن كان التدبير والتصرف فيه ألطف وأدق .

ولذا قيل : إن للنفس أربع دور كل دار أعظم من التى قبلها : « الدار الأولى » بطن الأم وذلك الحصر والضيق والظلمات الثلاث « الدار الثانية » دار الدنيا ، وهى الدار التى نشأت فيها وألفتها وا كتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة « الدار الثالثة » دار البرزخ وهى أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى « الدار الرابعة » دار القرار وهى الجنة والنار .

وكما أن البدن فى هذا الموطن مادة قابلة تتصف بالضعف والصغر وتوارد الأشكال والصور فكذا الروح فى هذه النشأة ، تكون فى أول تكوينها مادة قابلة خالية من تلك الكمالات الآلية متصفة بالضعف والصغر وقبول الصفات والملكات التى باكتسابها تخرج من القوة إلى الفعل ، وتصير إلى نشأة أخرى تتدرج فيها من طور إلى طور ، ومن كمال إلى كمال ، كما تتدرج النطفة

البدنية من طور إلى طور آخر حتى تبلغ ما أُعِدَّ لها من الكمال المنتظر ، وإن كانت فى صغرها وكبرها وضعفها وقوتها وتوارد الصور عليها وقبولها على العكس من البدن .

أكوان الروح وقواها الذاتية

ومع هذا فالبرهان قائم على أن للنفس فى ذاتها قوى عقلية تتصرف بها فى المعقولات تصرفا لاتحتاج معه إلى هذه الآلات الجسمانية[1] وإن كانت مقارنة لها وهو كمالها الذاتى ، وجهة غناها عن البدن الذى تفتقر إليه فى تحصيل كمالاتها فى هذه النشأة الثانية فهى جسمانية الحدوث والتصرف ، روحانية البقاء والتعقل ، فلها كينونة فى عالم العقل ، وكينونة فى عالم الطبيعة والحس ، وكينونتها هناك أكمل من كينونتها هنا ، ولذا تبصر وتسمع وتشم وتذوق وتلمس حال مفارقتها للبدن فى النوم بما لها من تلك الحواس الذاتية ، بل من النفوس كما علمت مايستصحب آثار الكينونة الأولى فى عالم الطبيعة ، فلا تحجبه هذه المادة الكثيفة عن إدراك الحقائق ، ولا تقيده الطبيعة البشرية عن التصرفات الروحية والأفاعيل الملكية ، شأن الأرواح الذكية المقدسة إذا اقترنت بأبدانها الجسمانية ، فإن قواها المادية وآلاتها البدنية تصير تابعة لقواها الذاتية العقلية ، بمعنى أن هذه القوى الجسمانية التى هى فى الحقيقة مصغرات قواها

(١) لكن لا يقع منها هذا التصرف وهى متعلقة بالبدن وهو جنين ، بل فى بعض الحالات بعد تعلقها بالبدن فى النشأة الثانية . تأمل .

الذاتية ولبوسها الطبيعى لا تـكون مانعة من الإدراك والتصرف الذاتى الذى يكون لها فى كينونتها الأولى ، بل قد يأتى عليها طور تتلاشى فيه أضواؤها المادية فى أضوائها الروحية كما يتلاشى نور السراج فى ضوء الشمس ، حتى يكون للإنسان شخصية أخرى غير شخصيته الطبيعية ، بحيث يصير مزيجا روحانيا يقدر على ماتقدر عليه الأرواح المجردة ، ويشاهد ماتشاهده النفوس المطلقة ، كما شوهد ذلك من بعض الأولياء والصالحين .

تشعشع نور الروح النبوى فى جسده الشريف

روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسعى نوره بين يديه ، وأنه كان إذا تـكلم خرج النور من ثناياه ، وكان يبصر من خلفه كما يبصر من أمامه ، وأحيانا لايرى له ظل فى مثل هذا التطور ، وما ذاك إلا لتشعشع نور روحه اللطيفة فى جوهر أعضاء بدنه الشريف تشعشع ضوء الشمس فى جوهر الهواء ، ولا غرابة فى ذلك ، فها هى « أشعة رونتجن » تحول الأجسام الـكثيفة المعتمة إلى أجسام لطيفة شفافة وتظهر ما يتخللها من المعادن والعظام ، و «أشعة أف» التى بواسطتها يمكن كشف المعادن فى باطن الأرض وإحراق البارود فى باطن البواخر ومكامن الحصون ، فما بالك بأشعة الله الذى خلق «أشعة رونتجن وأف» وعلم الإنسان مالم يعلم ؟

والأطباء لايبحثون عن هذه الروح[1] ، وإنما يبحثون عن الأرواح الطبيعية والقوى المادية التى تسبق نفخ هذه الروح .

(١) عود على بدء الكلام فى الروح الإنسانية التى تنفخ فى البدن فى هذا الدور الأول المشار إليه فى الآيات والأحاديث .

كما أن القائلين بتجرد النفوس عن الأبدان لايقولون بالنفخ المزجى والتعلق السريانى ، بل يريدون بالنفخ الوارد فى الحديث وآى الـكتاب جعل الأرواح متعلقة بالأبدان تعلق التدبير والتصرف بواسطة الآلات البدنية كما تقدم[1] .

كلام علماء الشريعة وأقوال الأطباء

فيما يتخلق منه الجنين

ذهب علماء الشريعة إلى أن الجنين يتخلق من ماء الرجل وماء المرأة معاً ، كما ذكره غير واحد ، ماء الرجل بجذبه الفعال وماء المرأة بمادته القابلة ، ولذا كان خلق عيسى عليه السلام خارقا للعادة وقوله تعالى (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ[2]) قيل : من ماء مع أن الإنسان خلق من ماءين لأن المراد به الممتزج من الماءين فى الرحم ، وبالامتزاج صارا ماء واحدا ، ووصفه بالدفق ، قيل : باعتبار أحد الجزأين وهو ماء الرجل ، وقيل : باعتبار كليهما ، وماء المرأة دافق أيضا إلى الرحم كما سيأتى ، والدفق صبٌّ مع دفع وسيلان بسرعة .

والقول بأن المراد من الماء الدافق ماء الرجل فقط ، وأنه لا ماء للمرأة أصلا تـكذبه الشريعة الغراء ، كما فى حديث عائشة رضى الله عنها وقولُ أم سليم : هَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا هِيَ احْتَلَمَتْ ؟ قَالَ « نَعَمْ إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ » وكذلك

(١) فى القول الأول فى المبحث الخامس .

(٢) آية ٥ — ٧ الطارق .

الحسُّ يكذبه ، فإن كثيرا من النساء يحسسن بانفصال المنى من فروجهن و يرينه كالرجل يقظة ومناما .

وفى ذيل التذكرة للإمام داود الأنطاكى الحكيم ما يفيد أنه لاخلاف فى أن للمرأة ماء يخرج عند اللذة وأنه مادّة التخليق، و إنما الكلام فى تسميته مَنِيًّا فقد نقل عن المعلم الأول أنه يقول ليس فى منىّ المرأة قوة عاقدة استقلالا ولا تدفق أصلا ، وهاتان ملازمتان لمنىّ الرجل ، وأما البياض واللزوجة واللذة فقد توجد فى مائها وقد لاتوجد ، فإن اعتبرنا أصول هذه الصفات كلها دائما فيما يسمى منيًّا فلا منىَّ إلا للرجل لأنها تلازمه دائما ، وأما المرأة فالأغلب فى منيِّها الرقة والصفرة ، والصحيح أنه قد يكون فى ماء المرأة تدفق وأنه يسمى منيًّا لأن حقيقة المنىّ ماء كالعجين يتدفق و ينعقد إذا ترك فى الهواء ، أبيض ناصع فى الذكور ، مائل إلى الصفرة فى النساء لايخرج دون لذة وتدفق فى صحة أصلا اه .

* * *

وفى كتب الطب الحديث مايفيد أن للمرأة ماء هو مادة التخليق حيث قالوا: الرحم عضو عضلى كثير الحركة يحتوى على تجويف قابل للتمدد موضوع داخل الحوض العظمى مرتبط برباطين عريضين يمتدان من جانبه على شكل جناحين، ووظيفته قبول البُوَيْضَة الملقِحَة وحفظها مدة النمو والتكوين ، فهو عُشُّ البويضات العالقة وفَرْشها فى شكل غشاء مخاطىّ وعائىّ تنغرس فيه البويضة وتكون فى مأمن حصين ، وبجانبه مِبْيَضان : أيمن وأيسر يخرج منهما بويضات محدودة فى سائل مخاطىّ قابل للتلقيح بالسائل المنوىّ ، وبفوّهة كل منهما بُوق أى قناة معدة لمرور البويضات إلى الرحم ممزوجة بأجزاء السائل المذكور، وذلك

هو مايعنى بماء المرأة ومنيِّها المتخلق منه ومن ماء الرجل الجنين وإن كان التلقيح فى الحقيقة إنما هو للبويضات الممزوجة بهذا الماء ، إذ التلقيح كما قالوا هو اجتماع الجزء الفعال من السائل المنوىِّ ببُويضة الأنثى وباتصالهما يحدث كائن جديد مزيج من الماءين يأخذ فى النمو ، وذلك ما أشير إليه بقوله تعالى : (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ) لأن المراد به كما تقدم الممتزِجُ من ماء المرأة وماء الرجل ، وبامتزاجهما صارا ماء واحدا وكائنا جديدا ، وقد ينتقل إليه من اجتماع نواتى الذكر والأنثى ، بل ومن المخ الجرثومى والسائل المنوى آثار وراثية فيرث الكائن الجديد الخواص الأبوية بواسطة النواة من الحيوان المنوىِّ ويرث الخواص الأمية بواسطة النواة من بويضاتها .

والعادة أن كل مِبيَض يفرز بيضة واحدة ، وعندما تتلقح هذه البويضة ينشأ حمل مفرد ، وإذا أفرز كل منهما بيضة وتلقحتا معا تعدد الحمل ، ويقال : إن بويضيات المرأة تتكون فى مِبْيضها وهى جنين قبل ولادتها وإن كانت لاتخرج إلا عند البلوغ ، بخلاف الحيوانات المنوية للرجل التى هى الأجزاء المهمة للتلقيح فإنها لا تتكون إلا عند البلوغ فى سائل زلالىّ يعرف بالسائل المنوىِّ .

ويتفق الحيوان المنوى والبويضة فى أن كلا منهما كتلة مادية تحتوى على نواة هى مبدأ التخليق . ويقال : إن لهذا الحيوان المنوى ذَنبًا طويلاً لازماً لحركته يزول عند دخوله فى بويضة الأنثى، وأن بويضات المولود الذكر لا تأتى إلا من المبيض الأيمن ، وبويضات الأنثى لا تأتى إلا من المبيض الأيسر ، وعلى هذا فالتنويع إلى ذكورة وأنوثة إنما هوالمرأة : فهى التى تُحضِّر البويضة ذكراً

أو أنثى . ووظيفة الرجل إعطاء المنى الذى يبتدئ به تكوين الجنين ، فهو مُشعِلُ النار لا واضعها .

ويقالُ إنه إلى الآن لم يستطع « المجهر » أن يبين فرقاً بين بويضات الذكر وبويضات الأنثى، وربما تمكن فى المستقبل بتحسينه أو تمكنت آلة أخرى من بيانه .

وعلماء الحياة والأجنة لم يستطيعوا حتى الآن مشاهدة البويضة أثناء دخول الحيوان المنوىّ فى حويصلتها ، ولم يعرفوا الظواهر الدقيقة الناشئة عن التلقيح الإنسانى ، ولا مبادئ النمو بالتحقيق ، ولا كم من الحيوانات تلزم لتلقيح البويضة الإنسانية التى خلق الله فى جدار خليتها على ما قيل مئات من المداخل يصح أن يدخل فى كل واحد منها حيوان منوى ، وكل ما عرف من ذلك إنما هو نشوء ظاهرة الحياة ، والنمو باتصال نواة الذكر بنواة الأنثىٰ وتطورها إلى أطوار مختلفة فى مدة لا تزيد غالبا عن تسعة أشهر أو تسعة أشهر وعشرة أيام .

تأخر الجنين فى بطن أمه عن وقته المعتاد

ويندر تأخر الجنين فى بطن أمه عن هذه المدة لأسباب عارضة قد لا يهتدى إليها بالضبط .

وبعض الأطباء ينكر تأخر الجنين فى بطن أمه بعد هذه المدة مستنداً لما اعتيد من تقدير نموّ الجنين بنسبة الزمن المذكور ، قال : وما يتوهم من تأخيره عنها فمنشؤه وجود أورام رَحِمية قد تتصل بالحمل ، فيُظَنُّ أنها حمل وليست منه فى شىء .

وجمهور الأطباء على خلاف هذا الرأى، والوقائعُ المنقولة عن الثقات فى تأخر

الجنين فى بطن أمه نقلاً مستفيضاً تحجُّه . فقد نقل أن الشافعىّ ومالكا مكثا فى بطن أمهما زمنا طويلا فوق المعتاد ، والعقل لا يمنعه لجواز بطء النمو وتدرجه بنسبة الزمن المضاعف خرقا للعادة .

وكثير من الأطباء يرون تأخره إلى أربع سنوات ونزوله حيًّا يعيش ، وقد شوهد أنه إذا تأخر الحمل فى بطن أمه ازداد حذقا ونبالة ، وقوة لحسه وجسمه ، كأن بطء النموّ فى مادته يضاعف النموّ فى قوة إدراكه ، وكأن ما أبطأ به فى تسوية بدنه أسرع به فى تربية حسه وعقله .

وإذا كان العقل لا يحيله والمشاهدة والوقائع تؤيده فلا وجه لهذا الإنكار ، لاسيما وقدرة الله تعالى فوق النواميس الطبيعية والعلوم العادية ، وكم له جل شأنه من خوارق العادات وغرائب المخلوقات ما يبهر العقول ويقصر دون أدناه ثواقب الفهوم . وقد روى أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام من أجزاء الأرض وأنه لما أراد أن ينفخ فيه الروح أمرها أن تدخل فى بدنه ، فدخلت من دِماغه ، واستدارت فيه ، ثم انتشرت فى جسده أعواماً طوالا ، ولا شك أن ذلك خارق لنواميس الطبيعة حسبما وصل إليه علم الإنسان .

ومن ذلك ما نشرته «جريدة الأهرام» فى يوم السبت ٢٢ المحرم سنة ١٣٤٨هـ تحت عنوان [فلتات الطبيعة] نقلا عن إحدى الصحف التركية ، وهو أن سيدة تركية فى مدينة طرابزون بالأناضول وضعت غلاما سمته محمدًا ، وبعد ثلاثة شهور من ولادته كان يمشى مشيًا منتظما ، ولما بلغ عمره ستة شهور كان يتكلم بلغة مفهومة ، وعند ما بلغ سنّ الرابعة برز شعر شاربه ولحيته ، وقد أرسل إلى

الآستانة لفحصه فى إحدى المستشفيات ، وكانت نتيجة الفحص أن الأطباء قررو[ا] أنه رجل كامل ، وقد طلب أن يتزوج لحاجته إلى الزواج ، ولا شك أن هـذه الحادثة «إن صحت» من خوارق النواميس الطبيعية التى جرى عليها التطور الإنسانى من عهد بعيد ، و إلا فقد كان فى الصدر الأول من حفظ الحديث ورواه ، وهو ابن أربع أو خمس ، وشمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم رواها صبيان الصحابة وكان ذلك معروفا مألوفا لهم ، ولـكن اختلاف التطورات الطبيعية من عهد إلى عهد فى النوع الإنسانى جعلت مثل ذلك من خوارق الطبيعة .

وعلى كل حال لا غرابة فى تأخر الجنين فى بطن أمه أكثر من تسـعة أشهر ، ومن القواعد المسلمة أن العلوم تتزايد بتزايد الأفكار ، وأن علم النوع الإنسانى واكتشافه من أسرار الطبيعة ، ورسوم الألواح الأمرية لا يقف عند حدّ مادامت أشعة نور العلم الإلهى مبسوطة فى دوائر الإمكان والوجود فإذا لم يتفق لعلماء الطب الآن الوقوف على سرّ هذه الظاهرة ، وكم فى علم الطب وغيره من العلوم من أسرار لا تزال فى حيز الخفاء (وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ) فقد يتفق لمن بعدهم أن يوفقوا لاكتشاف هذا السر المصون .

والشريعة الغراء لم تتعرض لبيان هذه المباحث الغامضة التى لا يهتدى إلى دقائق أسرارها إلا الخاصـة من العلماء وأرباب الصناعة الفنية . وأما العامة المعنيّون بخطابات الشريعة أولا وبالذات فلا يلتفتون إلى مثل هـذه المباحث ولا يُكلفون معرفتها ، ولذلك خاطب الله تعالى كل ذى لُبٍّ لا فرق بين عالم بالطب وغيره ، وأمر الجميع بالنظر فى مادة خلق الإنسان حيث قال (فَلْيَنْظُرِ

الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) ثم بيّن له موضع النظر بقوله (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) فالعامى لا يفهم من سياق الآية أكثر من أنه خلق من المنىّ المحسوس ، وأنه مكلف بالنظر فيه لمعرفة أن من قدَر على خلق الإنسان من ذلك وهو الله تعالى ، فهو على إعادته أقوى وأقدر، هذا كل مايراد منه بهذا الخطاب ، وما وراء ذلك من معرفة حقيقة المـاء الذى يتخلق منه الجنين وأنه واحد أواثنان . وبيان ما اشتمل عليه من الحيوانات المنوية والبويضات الجرثومية ومواضع تـكونهما ، وكيفية وصولها إلى الرحم واحتوائه عليها ، فليس للعامى إلى معرفته حاجة ، وإنما ذلك لأرباب الصناعة الفنية .

الـكلام فى قوله تعالى (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

والمفهوم من هذه الآية الشريفة أن ذلك المـاء يخرج من بين أجزاء صلب كل رجل ، أى ظهره ، ومن بين ترائب كل امرأة : أى عظام صدرها ، جمع تريبة ، كما روى ذلك عن سفيان وقتادة ، أو يخرج من بين صلب كل واحد من الرجـل والمرأة ، وترائب كل منهما كما روى عن الحسن وقتادة ، قيل ذلك دلالة على أن من قدر على إنشاء الإنسان من هـذا المـاء الخارج من داخل هــذا الداخل المنيع قادر على إعادته من أجزاء مبثوثة فى قبور مدثورة ، قيل : وخص ما بين الصلب والترائب ـ مع أن مستقر المنىّ عروق يلتف بعضها ببعض عند المبيضين تسمى أوعية المنى ، وأن معظم أجزائه ، إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع و ينفصل من جميع أجزاء البدن ، فيأخذ من كل عضو

طبيعته وخاصته مستعدا لأن يتولد منه مثل تلك الأعضاء ، كما ذهب إليه بعض الأطباء ـ لأن أعظم الأعضاء معونة فى توليد المنى الدّماغ وخليفته النخاع فى الصلب وشُعَب نازلة إلى مقدم البدن وهى التّريبة ، فلذا خصا بالذكر ، وإن كان مقر أجزاء منى المرأة مبيضها وأجزاء منى الرجل خصيته ، ولو جعل ما بين الصلب والترائب كناية عن البدن كله لم يبعد ، وكأنّ تخصيصها بالذكر لما أنها كالوعاء للقلب الذى هو المضغة العظمى فيه ، وإلا فالنخاع والقوى الدماغية والقلبية والكبدية كلها تتعاون فى إبراز ذلك الفضل على ما هو عليه قابلا لأن يصير مبدأ لشخص على ما بين فى موضعه ، ولذا قيل : إن تصحيح الأعضاء الرئيسية موجب لقوة الجماع ، لأن شدة الإحساس باللذة من صحة الدماغ وقوة الانتشار من صحة القلب وكثرة الماء من الكبد والاعتدال من صحة الكلى .

وخروج المنى من الأصلاب والترائب أو من بينها وبين الترائب لا ينفى خروجه من غيرها ، وقد علمت وجه تخصيصها بالذكر وأنه أوفق بمقام الاستدلال ، لأن خروج السائل من العظام الصلبة معجز ، وخصوصا إذا نظر لما اشتمل عليه من الحيوانات المنوية والبويضات الجرثومية فهو كقوله تعالى (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ)[1] وكقوله تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا)[2] وكقوله (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)[3] أى أن الذى بدأ خلق هذا

---

(١) آية ٧٤ البقرة .　(٢) آية ٨٠ يس .

(٣) آية ٧ السجدة .

الهيكل المخصوص الذى هو خلاصة عالم المواد والصور ، الجامع لعوالم الملك والملكوت من طين ، ثم خلق نسله من ماء مهين ، ثم نفخ فيه الروح ، ثم أودع فيه قوى الحس والإدراك قادر على إعادته فكيف يستبعدها المنكرون ويقرلون (أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) فالمعجزة فى الآية من وجوه خلق الإنسان ، أى هذا العالم الجامع من طين ثم من ماء ضئيل ، وخروج هذا الماء ، وما اشتمل عليه من أسرار التكوين من بين الصلب والترائب ، ونفخ الروح فيه بعد إعداده لقبولها متدرجة فى أطوار عدّة ، وإبداعه مختلف القوى التى امتاز بها عن كثير من الأحياء ليستعد بها لما يراد منه ولما يحقق الحكمة من خلقه . وبالجملة فعبارة الكتاب المبين مختصرة جامعة ، وكلام الله المجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

كلام علماء الأجِنَّة فى تفصيل حياة الجنين

قبل نفخ الروح فيه

قد علمت أن إجمال الآية « فى سورة الطارق » مع تفصيل العلم لا يتعارضان فى هذا الموضوع ، كما لا يتعارض العلم مع آى الكتاب والسنة فى شأن نفخ الروح وبيان كيفيته حسبما أشرنا إليه ، فإن كتب الطب والتشريح وإن كانت لا تبحث عن الروح الإنسانى المنفوخ فى البدن ، ولا عن حقيقة النفخ من طريقه الشرعى ، ولا كيف كان هو ، إلاّ أنها تثبت للجنين فى طور المضغة أو فى الطور الرابع حركة ظاهرة وآثاراً ليست له قبل هذا الطور ، ويسندون ذلك لنمو حياته

وروحه الطبيعية شأن كل أثر يصدر عن الحى النامى ويقولون إن ذلك وقت تخليق القلب وضرباته .

ونحن لاننفى نوع هذه الحياة ولا أثر هذا النمو ، وإنما نقول : إن هذه الحياة المنبثَّة فى الجنين قبل نفخ الروح حياة طبيعية محضة تشبه حياة النبات ، ليس لها ظاهرة سوى خاصة حركة النمو والتغير فى كمّ البدن وكيفيته ، وهى ما تسميه الحكماء حياة التغذية والتنمية والتوليد أو الحياة الطبيعية ، وبعد نفخ الروح الإنسانى وتكوينها للبدن وآلاته وسريانها فيه بواسطة الروح الحيوانى المنبعث من التجويف القلبى يتحصل نوع آخر من الحياة تندمج فيه الحياة الطبيعية للجنين ، بحيث تكون مصدراً لظاهرة الحس والحركة الإرادية ، ومبدأً مصححاً للعلم بالفكر والروية وغير ذلك من الآثار اللائقة بنوع الإنسان ، وهو ما يسمونه حياة الحس والحركة والعلم والتمييز .

فالحياة الأولى حياة حيوانية مترتبة على أرواح وقوى طبيعية ، والحياة الثانية حياة إنسانية مترتبة على ما ذكر ، وعلى الروح الإنسانى أى اللطيفة الربانية السارية فى البدن سريان الماء فى العود الأخضر أو المتعلقة به تعلق التدبير والتصرف ، وهم لا ينفون هذا النوع من الحياة ، وقد يعلِّلونه بغير ما نعلِّله وليس ذلك موضع النظر .

وأهل الطب والتشريح يستندون فى كثير من مباحثهم إلى التجربة والمشاهدة والفكر ، وأهل الشرع يتمسكون مع ذلك بصريح النقل الذى لاتأباه قواعد العلم ولا ينبذه العقل السليم .

ومن هنا مع تباين الاصطلاحات قد يتوهم خلافٌ بين ماجاءت به الشريعة الغراء فى هذا الباب ونحوه ، وبين ما يذكره أرباب الصناعة فى ذلك ، وفى الحقيقة لا خلاف ، وإنما هو اختلاف فى النظر ووجهة البحث .

ولو عنى أصحاب الصناعة الحديثة بما ورد به الشرع فى هذا الباب وأمثاله ، وفهموه على وجهه ، وما أثبتته النظريات الصحيحة ، والتجربة الكافية ، وأعطوه جانبا من العناية والتصرف الفكرى ، كما كان عليه الأوائل من أرباب هذه الصناعة فى كثير من مباحثهم ، كالشيخ الرئيس ابن سينا ، وصاحب التذكرة لاتَّسع لهم نطاق العلم ومجال الفهم وخرجوا عن كثير من المضايق الفنية التى تعترضهم أثناء تطبيق العلم على العمل ، وإن كان لايسع أحدا إنكار تقدم العلوم الصناعية فى هذا العصر ، وخصوصا صناعة الطب والتشريح ، فقد تقدمت تقدماً باهراً ، وأصبح العارفون بها القائمون بمهنتها من الأجلة العظماء ، أكثر الله من أمثالهم وأورثهم علما فيما يعملون وزادهم عملا بما يعلمون .

المبحث الرابع

فى تعلق الروح بالبدن بعد انفصاله عن الرحم

تعلق الروح بالبدن بعد خروجه من بطن أمه أقوى وأظهر أثراً من تعلقها به حال وجوده جنينا فى بطن أمه ، إذ مع هذا التعلق تخرج النفس من الظلمة إلى النور ، ومن الضيق إلى السعة ، ومن الوحدة إلى الاشتراك ، وتدخل فى نشأة أخرى ودور آخر من أدوار الحياة ، وهو دور الشعور والإحساس والتعقل والعلم

والعمل ، تبدأ السير فيه إلى النهاية بوسائط محسوسة ، وجنود ظاهرة وباطنة وآلات وقوى دافعة وجالبة كما قال تعالى (وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[1]) أى جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة وتتوصلون بها إلى ما تحتاجون إليه من المرافق الدنيوية والسعادة الأخروية بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء وتدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرير الإحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية ، كى تعرفوا ما أنعم سبحانه به عليكم طَوْرًا غِبَّ طَوْر فتشكروه باستعمال هذه الآلات والقوى فيما خلقت لأجله فيزيدكم كمالا فوق كمال حتى تصلوا إلى السعادة المطلوبة كما قال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ[2]) أى لئن شكرتموه تعالى باستعمال تلك الآلات والقوى حسبما أرشدكم إليه أمره ونهيه لزادكم نعمة إلى نعمة ، وقوة إلى قوة ، روحانية وجسمانية ، دنيوية وأخروية .

فهذا دور التكميل والسعى إلى بلوغ المقصود ، وما قبله دور التخليق والتصوير وإتمام نعمة الوجود ، وإلى هذين الدورين أشار الله تعالى بقوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ

(١) آية ٧٨ النحل .

(٢) آية ٧ إبراهيم .

وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ[1]) .

فالله سبحانه كما خلق الإنسان فى الدور الأول متدرجا فى أطوار مختلفة عناصر ، ثم أغذية ، ثم أخلاط ، ثم نُطَف ، ثم عَلَق ، ثم مُضَغ ، ثم عظام ، ولحوم ، ثم أنشأه خلقا آخر بنفخ الروح فيه أخرجه فى الدور الثانى متدرجا فى أطوار مختلفة طفلا ثم شابًّا ثم شيخا .

وله فى كل طور من هذه الأطوار الثلاثة تدرج فى قوته النظرية والعملية وكأنّ الله أنشأه خلقا آخر بهذا التدرج الروحى .

وكلما قوى البدن ونمت أعضاؤه كان تعلق الروح به أظهر ونموّ حياته أتم وأكمل ، ولذلك كانت حركة الطفل وإحساسه فى سن الطفولة دون ذلك فى سن الترعرع واليُفُوع ، فالروح تتدرج فى هذه النشأة وتتمشى مع البدن من محسوس لمعقول ومن معقول لمحسوس ، حتى تصل إلى الغاية المطلوبة ، فتكون طفلا مع الطفل ، وشابا مع الشاب . وهكذا تتطور بأطوار البدن ، كما أن البدن يتطور بأطوارها ، ولها بكل عضو تعلق يناسبه بتدبير يليق باستعداده ، فتعلقها بعضوى الدماغ والقلب لما فيهما من القوى الإدراكية والإرادية ليس كتعلقها بسائر الأعضاء ، وتعلقها بذلك ليس كتعلقها بمثل الظفر والسن ، وكذا تعلقها بالبدن فى حالتى النوم والسكر ليس كتعلقها به فى حالتى اليقظة والصحو ،

(١) آية ٥ الحج .

إذ فى هذه الحالة يضعف ضوؤها وتفتر قواها المنبثة فى أقطار البدن كالشمس وقتى الشروق والغروب فإن أشعتها المنتشرة وقت الغروب ليست كالأشعة المنتشرة حال شروقها ، وحرارتها فى هذين الوقتين ليست كحرارتها وقت الهاجرة .

وتقدم أن مركزها الأقوى الذى تنتشر عنه أنوارها وتوزع منه قواها هو المجموع العصبى المخّى، وأن مثَله فيما يختص بالروح ونورها مثَل الأعمدة الكهربائية والمواصلات التى تحدث النور الكهربائى ، حيث تتكاثف وتتراكم فى المجموع العصبى ، ثم تنتشر منه فى سائر أجزاء البدن بواسطة الروح الحيوانى المنتشر فى سائر أقطاره ، كالهواء والضوء المنتشر فى أنحاء البيت .

حمل الروح للبدن وعروجها به

وربما يظن بعض الناس أن البدن هو الحامل للروح والروح متقوّمة به ، وليس كذلك ، بل الأمر بالعكس كما ذكره صاحب الأسفار حيث قال : إن النفس هى التى تقوّم الجسم وتحرّكه وتذهب به إلى الجهات المختلفة حيث شاءت، فإذا أرادت صعوده بدلت ثِقله خفة وصعِدت به إلى عالم السماء والمنزل الأعلى ، وإذا أرادت هبوطه زادته ثقلا ، ولكن صعودها به إنما يكون ببدن روحانى من جنس تلك الدار لا من جنس هذه البنية الظلمانية الكثيفة اهـ .

وذلك إنما يكون بتغلّبها عليه حتى يتحول عن هذه البنية الظلمانية ويصير روحانيا كما تقدم .

ومنه ما وقع له صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج معجزةً وبعضُ

الأولياء والأصفياء يقع لهم نحو ذلك كرامةً فلا يعرجون من عالم الطبيعة إلى العوالم الروحية إلا بعد الإنسلاخ عن اللبوس البشرى والتخلص من الكَدَر الطبيعى ، وهذا غير العروج بالصورة الروحانية ، وغير انطلاق الروح الذى أثبته الروحانيون للنفس حال اليقظة وحالتى النوم الطبيعى والصناعى، فإنه لاتغلُّب فيه ، وإنما تفصل الروح عن البدن وتبقى مرتبطة به كما هو بسيال كهربائى ، وبعد الموت تخلع هذا الكساء الغليظ خلعا نهائيا ، وبيقى جسمها الروحانى المركب من المادة الأثيرية الأصلية كما تقدم .

ولعل هذا الجسم الروحانى هو المعبر عنه فى كلام القوم بنور الروح وحجابها الذى تظهر به فى صور مختلفة كما يشير إليه كلام صاحب الأسفار وغيره .

وفى كتاب [حجة الله البالغة] للامام الدهلوى أن الإسراء به صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى ، ثم العُروج به إلى سِدْرة المنتهى . ثم إلى ما شاء الله كان بجسده الشريف فى اليقظة ، ولكن فى موطن هو برزخ بين المثال والشهادة جامعٌ لأحكامهما ، مظهر على الجسد أحكام الروح وممثِّل الروح والمعانى الروحية أجسادا ، ولذلك كان لكل واقعة من تلك الوقائع تعبير وقد ظهر لحزقيل وموسى وغيرهما عليهم السلام نحو من تلك الوقائع :

وكذا الأولياء الأمة ليكون علو درجاتهم عند الله كحالهم فى الرؤيا انتهى . وهذا هو الوجود بَيْنَ بَيْنَ الذى أشرنا إليه فى وجود الروح عند انسلاخها عن البشرية كما تقدم [١] .

---

(١) راجع المبحث الأول من المطلب الثانى .

وقد يستعان على التخلص من أثقال الطبيعة واللحوق بالعوالم الملكية بالرياضة والبعد عن اللذائذ والشهوات البدنية ، إذ كلما قوى البدن فى جسميته ضعفت النفس فى روحانيتها ، لأن قوتها ليست بهذه الأغذية بل بأغذية معنوية ، وهى اكتساب المعارف والكمالات والأعمال الصالحة ، وأما الأغذية الحسية فقد تورثها فتورا وضعفا وتنزع بها إلى البشرية السافلة والحيوانية المحضة .

الكلام فى توفِّى عيسى عليه السلام ورفعه إلى السماء

وقد قيل فى توفِّى عيسى عليه السلام ورفعه المشار إليهما فى قوله تعالى : (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)(١) إن معنى توفِّيه عليه السلام نقله من حالة البشرية إلى حالة الملكية ومعنى رفعه إليه تعالى رفعه إلى محل كرامته ومقرِّ ملائكته وقد كان ذلك يقظة ببدنه الذى غلبت عليه روحه الطاهرة حين تأهل للرفع والبقاء بين عالم الملكوت إلى وقته المعلوم وبعثه المحتوم اه .

والصحيح أن رفع عيسى عليه السلام ببدنه الشريف حيًّا إلى السماء إنما كان بعد هذا التوفى والانسلاخ كما يتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها ، ونزوله إلى الدنيا أخيرا وردُّ بشريته إليه كما ترسل الأرواح إلى أبدانها يوم البعث ، وإلى هذا يشير قول بعض المفسرين : المراد بالتوفى فى الآية موت القوى الشهوانية العائقة عن اتصاله بالملكوت ، وهذا لا ينافى ما قيل إن المراد بقوله تعالى : (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ) أنه تعالى متوفٍّ شخصه فى الأرض وآخذه وافيا بروحه وبدنه

(١) آية ٥٥ آل عمران .

فيكون قوله (وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) كالمفسر لما قبله . أو مستوف أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك(١) كما قال تعالى : (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)(٢) والكلام كناية عن عصمته من الأعداء . وما هم بصدده من الفتك به عليه السلام ، لأنه يلزم من استيفاء الله تعالى أجله وموته حتف أنفه ذلك ، فإن هذا وذاك لا بد معه من توفى قواه البشرية ليتأهب لاتصاله بالملأ الأعلى .

وعلى كل حال فالصحيح الذى عليه أهل الحق أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يمت ولم تقبض روحه قبل رفعه إلى السماء ، بل رفع حيا من غير وفاة ، ولا نوم وهو اختيار الطبرى وغيره ، والرواية الصحيحة عن ابن عباس وكما هو الظاهر من الآية السالفة (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) والمصرح به فى قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ عِيسَى لَمْ يَمُتْ وَأَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَيْكُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وحكى أنه رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وأن أمه بقيت بعد رفعه ست سنين . قال الآلوسى : وحكاية أن الله تعالى توفاه سبع ساعات ثم أحياه ورفعه إليه . ذكر ابن إسحاق أنها من زعم النصارى ، ولهم فى هذا المقام كلام تقشعر منه الجلود ، ونقل شيئا منه ثم ردَّه ، وعلى كل حال لم ينقل عن أحد من المسلمين أنه قال بتوفِّيه ، أى قبض روحه ورفعها دون بدنه إلى السماء ، بل رفعه تعالى بروحه وبدنه ، وإنما الكلام فى معنى توفيه وقد علمت مافيه .

(١) وهو كما قيل إن المقدم فى الآية مؤخر معنى أى إنى رافعك إلى ، ومتوفيك بعد نزولك من السماء فى آخر الزمان .

(٢) آية ١٥٧ ، ١٥٨ النساء .

الكلام فى رجوع النفس إلى أصلها
وما يترتب عليه من الآثار

تقدم أن النفس حين تعلقها بالبدن الكثيف واشتغالها بتدبير ما يحتاج إليه تكون ضعيفة الوجود متغيرة غير ثابتة ، لأن مظهرها فى هذه الحالة جرم بخارى فى الدِّماغ أو القلب ، وهو دائم التحلل والتجدد حسب اختلاف أمزجة العضو الدماغى أو القلبى من جهة مايرد عليه من التغييرات الداخلة والخارجة ، فإذا استراحت النفس من الأشغال الفكرية والحركات الضرورية ، وتعطلت الحواس عن فعلها إما بالنوم أو التنويم أو انصراف النفس إلى أعمال الدار الباقية بقوة فطرية أو مكتسبة ، رجعت إلى ذاتها وانكشف الغطاء عنها ، وفى هذه الحالة يمكنها أن تشاهد الصور بذاتها من غير مشاركة للحواس ، فإن لها فى ذاتها سمعا وبصرا وشمًّا وذوقا ولمسا ، كما يشهد بذلك ما يراه الإنسان فى حالة النوم ، فإنه يسمع ويبصر ويذوق ويشم ويلمس ، مع أن حواسه الظاهرة معطلة ، بل حواس النفس أتم وأصفى ، والحواس الظاهرة كالأغشية لها مقيِّدة لإطلاقها محدِّدة لإدراكها .

وسره أن الحواس الظاهرة ضعيفة الوجود ومحدودة التصرف بالنسبة للقوى العقلية ، ولذا قيل: وقع التضاد والتزاحم فى الحسيات لقصور وجودها ، بخلاف العقليات ، فلها السعة فى الوجود من غير تزاحم وتضايق ، فوجودها أتم وأكمل وأعلى وأشرف من الوجود الجسمانى ، والشىء إذا اشتد خرج عن

نوعه إلى نوع آخر أعلى منه ، كمادة الجنين إذا كملت صورته الطبيعية فإنها تصير صورة إنسانية بنفخ الروح فيه ، ثم بعد انفصاله لا يزال يترقى فى مراتب الوجود والكمال حتى يصير إلى صورة عقلية ، فيصدق عليه ما كان مسلوبا عنه ، ويسلب عنه ما كان صادقا عليه ، كما سبقت الإشارة إليه .

وإذا كان للنفس مع بقاء تعلقها بالبدن أن ترجع بحواسها المتعددة وقواها المدركة والمحركة إلى قوة واحدة هى ذاتها النورية الفياضة كما ترجع الحواس الخمس الظاهرة إلى حس واحد يجمعها وهو الحس المشترك ، فما ظنك إذا انقطعت علائقها عن البدن بالكلية ورجعت إلى ذاتها وإلى مبدئها كل الرجوع ، فهناك تصير حواسها الباطنة إلى إدراك الأمور ، ولا سيما أمور الآخرة أشد وأقوى ، فتشاهد الصور الموجودة فى تلك الدار ، وتنكشف لها الأمور المناسبة لأعمالها ونياتها واعتقاداتها كما قال تعالى : (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) وسيأتى لهذا مزيد .

تفاوت إدراك النفوس وقواها الفطرية والكسبية

تقدم أن إدراك النفس بالقوى الفطرية الذاتية أتم وأقوى من الإدراك بالقوى الكسبية الآلية ، وكذلك الفعل بالقوى الروحانية أشد وأقوى من الفعل بالقوى الجسمانية ، وبالضرورة ليست الأرواح فى قواها الذاتية ، واستعداداتها الفطرية وآلاتها البدنية متساوية ، بل بينها تفاوت وتفاضل لا تحصى تفاصيله ، ولا يعلم كنه حقيقته إلا بارئ الأرواح والنسم .

ونُصْبَ أعيننا من ذلك ما يغنى عن البيان ، فقد سمعنا غرائب وشاهدنا عجائب كثيرة من أناس لم يتعلموا أو تعلموا قليلا ، ومواهبهم الفطرية فريدة وآثارهم العلمية والعملية جليلة لا يفى بها كسب كاسب .

وليس ببعيد عنا ما نراه من آثار ذوى السلائق العربيــة والنفوس الصافية الذكية ، فإن لهم التمدُّحَ المعَلَّى فى إنشاء الأساليب البديعة وفهم الأسرار البلاغية العجيبة ، ممـا يعجز عن أقل أقله من بذلوا جهدهم واستغرقوا وقتهم فى التعليم والتعلم ، وذلك أكبر شاهد على تفاوت النفوس فى مواهبها الفطرية وتفاضلها فى إدراك الحقائق الـكسبية ، وانظر إلى النحوىِّ والصرفىّ والبيانىّ والعروضىّ فإن كلا يحتاج فيما يقوِّم به لسانه ، ويزن به شعره ، ويؤدى به أغراضه إلى كسب هذه العلوم الصناعية ، وذو السليقة والموهبة الفطرية لا يحتاج فى تأدية هذه الأغراض إلى استعمال هذه العلوم ، ولا إلى تجشم كسب جديد لتأدية ما يراد منها ، وشتان بين ما يؤديه ذو السليقة بسليقته الراسخة وبين ما يؤديه كاسب هـذه العلوم الذى ربما يعوقه عن الوصول إلى غايتها عائق النسيان وقلة المران والعمل .

ثم إذا أضيف إلى تلك المواهب إلهام صريح أو تعليم صحيح أو جَوَلان فى عالم الطبيعة بالحـكمة والنظر، والتجربة والعمل أدركت النفس حقائق الأشياء، كما هى ، وبلغت من الـكمال ما يمكن بلوغه حسب الطاقة البشرية ، وظهر لها من الآثار الـكونية والأمريَّة ما يبلغ حد الخارق المعجز .

وليست تلك المواهب خاصة بقَبيل دون قَبيل ، بل هى عامة لأنواع البشر

كما قال تعالى (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً [١]) أى جعلناهم قاطبة برّهم وفاجرهم ذوى كرم أى شرف ومحاسن جمـة لا يحيط بها نطاق الحصر ، ومن خصه بالعقل أو النطق فقد ارتكب شططا ، وادعى غلطا ، وخالف صريح العقل وصحيح النقل ، كما ذكره الآلوسى فى تفسيره .

ومما يدلنا على ذلك دلالة واضحة ما نراه من آثار العلماء الباحثين فى العلوم الطبيعية والظواهر الـكونية ، وما وصلوا إليــه من الإختراعات الحديثة ، والاستكشافات الغريبة والصناعات البديعة التى تبهر العقول ، وكذلك ما نراه من براعة أرباب الأقلام وبلاغة ذوى اللَّسَن والبيان ، مما يدل على أن مواهب العقل البشرى لا تقف عند حدّ ولا تزال فى نُموّ مستمر لا فرق فى ذلك بين مسلم وغيره . فإن لله أن يهب ما شاء لمن شاء وله الحجة البالغة .

نعم إذا استمر هذا النمو العقلى والبحث الفـكرى واعتصم صاحبه بحبل الله المتين وتمسك بالدين القويم فإنه لاشك بالغ منتهى السعادة فى الأولى والآخرة (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٢]) .

وبالجملة فتفاوت النفوس فى ذلك وبلوغ بعضها حدَّ الخارق فى الأعمال والمدارك تابع لاستعدادها الخاص وما يفاض عليها من واهب الصور . وليست إفاضة المواهب على النفوس محدودة ولا إشراقات أنوارها على بعض أفراد نوع الإنسان مرصودة ، بل لا تزال بمحض الفيض شاملة لسائر النفوس وإن اختص

(١) آية ٧٠ الإسراء .
(٢) آية ١٠١ آل عمران

بالقسط الوافر منها أصحاب العزائم الصادقة وأهل حضرة القدّوس . ومنهم المحدَّثون كما ورد « إنَّ مِنْ أُمَّتِي المُحَدَّثِينَ وَالمُكَلَّمِينَ » ومنهم عمر رضى الله عنه والمحدَّث الملهم هو الذى يُلْقَى فى نفسه الشىء فيخبر به حَدْسا وفراسة ، وهو نوع يخص به الله من يشاء من عباده ، كأنهم حُدِّثوا بشىء فقالوه ومَنْ هذا شأنه تكفيه إشارة الدلالة وأى دلالة :

يَكْفِي اللبِيبَ إِشَارَةٌ مَرْمُوزَةٌ   وَسِوَاهُ يُدْعَى بِالنِّدَاءِ الْعَالِي

وذكر العلامة ابن خلدون : أن من النفوس البشرية ما يستند فى فهمه وأخباره عن الكائنات إلى نوع من الدلالة لا يمكن لغيره أن يستند إليه ، كالعرّافين والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وتخاطيط الأكف ورسوم الأعضاء وغير ذلك من الدلالات التى يختص بفهمها وحلّ رموزها أصحاب هذه الفطر ، ولا يمكن التعويل عليها لغيرهم ، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان لا يسع أحدا جحدها ولا إنكارها اه .

والحاصل أن مرتبة الإلهام ، وقدامة النفوس فى الدلالة الروحية للخاصة أصحاب الكشف والفهوم بمثابة الأوضاع والعلوم فى الدلالة الآلية للعامة أصحاب النظر والرسوم .

ظاهرة غريبة فى الإدراك بحاسة اللمس

ولقد تذكرت هنا حادثة غريبة فى بابها ، وهى أن رجلا بمدينة الأقصر فقد بصره بعد أن تعلم القراءة والكتابة ، فكان إذا أتى له بجواب أو كتاب مطبوع أو مخطوط بحروف غير بارزة يضع أصبعه على حروفه ويقرؤه بحاسة

اللمس كما يقرأ غيره الكتابة بحاسة البصر ، وبالضرورة لم يكن ذلك إلا بمضاعفة حاسة لمسه إلى حدٍّ يستغنى به عن مضاعفة جِرم الحروف إلى حدِّ البروز ، لأن الإحساس بالشىء الدقيق أو البعيد الغائب عن البصر مثلا كما يحصل بتعظيم جرمه بآلة معظمة كالنظارة يحصل بتعظيم حاسته ، كما فى موهبة زرقاء اليمامة ، فيما أضيف لبصرها حتى كانت كما قيل تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام. ولهذا صح لهذا الرجل البصير أن يقرأ المكتوب بهذه الرسوم التى لا يمكن لغيره ممن لم يكن له هذه الموهبة من العميان أن يقرأ بها ، ولا شك أن موهبة النفوس أتمّ وأكمل من موهبة الحواس .

أكمل الأرواح موهبةً أرواح الأنبياء عليهم السلام

كما لاشك فى أن أكمل الأرواح موهبة وأرقاها سعادة أرواح الأنبياء عليهم السلام ، وأكملها ذاتاً وعلماً وشرفاً وفضلاً ، وأتمها سعادة روحُ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كما وردت به نصوص الكتب السماوية ، وأجمع عليه طوائف المسلمين ، ولله در البوصيرى حيث يقول فى همزيته :

كَيْفَ تَرْقَى رُقِيَّكَ الأَنْبِيَاءُ   يَا سَمَاءً مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
لَمْ يُسَاوُوكَ فِي عُلاكَ وَقَدْ   حَالَ سَناً مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ
إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّا   سِ كَمَا مَثَّلَ النُّجُومَ المَاءُ
أَنْتَ مِصْبَاحُ كُلِّ فَضْلٍ فَمَا تَصْـ   ـدُرُ إِلاَّ عَنْ ضَوْئِكَ الأَضْوَاءُ

ولذا كان تعلق أرواح الأنبياء بأبدانهم ليس كتعلق الأرواح بأبداننا ،

بل هو نوع آخر من التعلق ملائم لكمال أرواحهم واعتدال أمزجتهم . وقد قيل فى قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(١)) إنه تعالى اصطفى أنبياء فصفَّاهم من الصفات الذميمة وزينهم بالخصال الحميدة ، تصفية وتزيينا لائقين بذواتهم السامية ومراتبهم العالية ، ولذا وجب لهم من أمهات الفضائل كالعصمة والأمانة والصدق والتبليغ والفطانة واستحال عليهم من السفاسف والدنايا مالا يجب أو يمتنع فى حق غيرهم ، وقد جُعِلوا من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص .

وذكر الحليمى فى كتاب [المنهاج] أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لابد أن يكونوا مخالفين لغيرهم فى القوى الجسمانية والروحانية ، مدركة كانت أو محركة ، ظاهرة أو باطنة . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم فيما يختص بكمال القوة الباصرة أنه قال « زُوِيَتْ لِيَ الْأَرْضُ فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا » وقال « أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ وَتَرَاصُّوا فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي » يعنى أن عينيه صلى الله عليه وسلم كما تبصرانِ من أمامه تبصرانِ من خلفه .

ونظير ذلك ما حصل للخليل عليه السلام كما قال تعالى « وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ(٢)) فإن الله تعالى قوَّى بصره حتى شاهد الملكوت الأعلى والأسفل وأبصرها فى الجهات الست ، ومثل ذلك لايستبعد فى صفوة الله وخيرته .

---

(١) آية ٢٣ آل عمران . (٢) آية ٧٥ الأنعام .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع وهو فى الأرض أطيط السماء ، وروى أنه سمع دويا وذكر أنه هُوِيُّ صخرة قذفت فى جهنم .

ثم قال الحليمى: ولاسبيل إلى استبعاد هذا ، فقد قيل إن فيثاغورس الحكيم راض نفسه حتى سمع حفيف الفلك ، ونظير هذه القوة ما حصل لسليمان عليه السلام فى قصة النمل ، فإن الله تعالى أسمعه كلام النمل وأوقفه على معناه من مسافة بعيدة ، وتكلم صلى الله عليه وسلم مع الذئب والبعير وسمع كلامهما ، وقال يعقوب عليه السلام : « إنى لَأَجِدُ ريح يوسف » فأحس بها وشمها من مسيرة أيام .

وقال صلى الله عليه وسلم حين أكل من الذراع وأكل معه أصحابه « إِنَّ هَذَا الذِّرَاعَ يُخْبِرُنِي أَنَّهُ مَسْمُومٌ » حتى قال صلى الله عليه وسلم فى مرض موته « مَا زَالَتْ أُكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي حَتَّى قَطَعَتْ أَبْهَرِي » فكان لها دخل فى موته صلى الله عليه وسلم لينال رتبة الشهادة فلا يفوته رتبة من رتب الكمال ولذا لم يخبره الذراع قبل تناوله منه ، وإلى ذلك يشير البوصيرى فى همزيته حيث قال :

ثُمَّ سَمَّتْ لَهُ الْيَهُودِيَّةُ الشَّا ةَ وَكَمْ سَامَ الشِّقْوَةَ الْأَشْقِيَاءُ

فَأَذَاعَ الذِّرَاعُ مَا فِيهِ مِنْ شَـ ـرٍّ بِنُطْقٍ إِخْفَاؤُهُ إِبْدَاءُ

أى إخفاؤه عن الحاضرين إبداء له صلى الله عليه وسلم .

وقد جعل الله تعالى النار بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام ، فتلقاها بمضاعفة القوة اللامسة فيه بدرجة تلاشت دونها حرارة النار المحرقة ، وقيل وهو

ظاهر الآية (يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا) أن الله سلبها خاصيتها من الحرارة والإحراق ، وأبقى فيها الإضاءة والإشراق ، أى كونى ذات برد وسلام غير ضارة ، وقيل : كانت على حالتها لكن الله تعالى جلت قدرته دفع أذاها عنه كما يشعر به قوله تعالى (عَلَى إِبْرَاهِيمَ) أى وهى باقية على حرارتها بالنسبة لغيره وعلى كل حال فهو آية باهرة .

وقد يقع نظيرها وإن كان دونها لبعض صلحاء الأمة المحمدية كرامة لهم لمتابعتهم النبى المحبوب صلى الله عليه وسلم .

وكان جبريل ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم ويتمثل له رجلا ويكلمه بكلام يسمعه ومن كان بجانبه صلى الله عليه وسلم لا يراه ولا يسمعه ، وكذلك وقع لغيره من الأنبياء ، وأحياناً كان يأتيه الوحى فى مثل صلصلة الجرس ، ولا يسمعه غيره من الحاضرين ، وكان جبريل يدارسه القرآن والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه .

وقد ورد فى قوة حواسهم الباطنة كقوة الحفظ والذكاء وقواهم المحركة ، كما وقع فى الإسراء والمعراج ، ورفع عيسى وإدريس وإلياس إلى السماء ، ما يدل على أنها بغاية القوة وأنها مخالفة لغيرها من قوى البشر .

وبالجملة فنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صنف مخالف لسائر النفوس فى قواها الظاهرة والباطنة ، ونعوتهم وصفاتهم التابعة لها يجب أن تكون مخالفة لسائر النعوت والصفات التابعة لغيرها ، ضرورة أن هذه النعوت والآثار من لوازم الذات ، فإذا كانت الروح فى غاية الصفاء والشرف ، والبدن فى غاية الصفاء والطهارة ، كانت القوى المحركة والمدركة وما يتبعها من الصفات

فى غاية الكمال ، لأنها جارية مجرى أنوار فائضة من جوهر الروح واصلة إلى البدن .

ومتى كان الفاعل والقابل فى غاية الكمال ، كانت الآثار فى غاية القوة والشرف والصفاء ، ولذا قيل : إن صفات الأنبياء وقواهم الذاتية من خوارق العادات ، وأنه لو وفق للناظرين فى دعوى رسالتهم أن يقفوا على كمال تلك النفوس لما احتاجوا فى التصديق برسالتهم إلى معجزة الأفعال ، فإن فضيلة الصدق والأمانة مثلا إذا بلغت حد الكمال والإعجاز لا يقع معها كذب أو خيانة والمعجزة الفعلية التى يطلبها المرتاب أو المعارض فى دعوى الرسالة لم تخرج عن كونها من نوع الخارق الذى قد يشتبه بخارق آخر بخلاف الصفات التى جبلوا عليها ، فإن خارقها لا اشتباه فيه ، وقد آمن كثير من الصحابة وغيرهم بمعجزة النعوت غير ملتفت لتلك الخوارق والمعجزات الظاهرة التى لا يعول عليها فى إيمانه إلا العامة ، وأصحاب الأنظار الجلية ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

أصناف النفوس البشرية وكلام ابن خلدون فى ذلك

وقد ذكر العلامة ابن خلدون فى مقدمته : أن النفوس البشرية على ثلاثة أصناف :

« صنف » عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحانى فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعانى من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية

والتصديقية التي للفكر في البدن ، وهذا في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني ، وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم .

« وصنف » متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لايفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنة ، وكلها وجدان لانطاق لها ، وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ .

« وصنف » مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة إلى الملَكية من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملَكا بالفعل ، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقه ، وسماع الكلام النفساني ، والخطاب الإلهي في تلك اللمحة ، وهؤلاء الأنبياء صلوات الله عليهم جعل الله لهم في الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة ـ وهي حالة الوحي ـ فطرة فطرهم الله عليها وجِبِلّة صوّرهم فيها ، ونزههم عن موانع البدن وعوائقه بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة ، وركز في طباعهم رغبة في العبادة فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة ، فإذا انسلخوا عن بشريتهم وتلقّوا من الملأ الأعلى ما يتلقونه وعاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها لحكمة التبليغ ، فتارة يسمع دَوِيًّا كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقي إليه ، فلا ينقضي الدويّ إلا وقد وعاه وفهمه . وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي إليه رجلا فيكلمه ويعي ما يقوله ، والتلقي من الملك والرجوع إلى المدارك

البشرية وفهمُه ما ألقي عليه كله كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر ، ولذلك سمّي وحيًا لأن الوحي في اللغة الإسراع .

وعلامة هذا الصنف من البشر أن يوجد لهم في حال الوحي غَيبة عن الحاضرين مع غطيط كأنه إغماء في رأي العين ، وفي الحقيقة هو استغراق في لقاء الملك الروحانيّ بإدراكهم الخارق عن مدارك البشرية بالكلية .

ومن علامته أيضا أن يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والذكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهو معنى العصمة وكأنهم مفطورون على التنزه عن المذمومات وكأنها منافية لجبلتهم ، ففي الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها في إزاره فانكشف ، فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره ، وكان لا يقرب البصل والثوم وسائر المطعومات المستكرهة ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني أناجي من لاتناجون .

ومن علامته أيضا وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ، ودعاؤهم إلى الدين والعبادة ، وأن يكونوا ذوي حسَب في قومهم حتى يكون لهم عصبيّة وشوكة تمنعهم من أذى الكفار ليبلِّغوا رسالة ربهم ، ويتم مراد الله في إكمال دينه وملته .

وبالجملة فالأنبياء صلوات الله عليهم قد اصطفاهم الله من البشر وفضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يُعرِّفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بحُجُزَاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة .

ومن خواصهم التى لاتنفك عن ذواتهم العلية مزية الصدق والأمانة والفطانة التى هى مدار أمر النبوة والرسالة، فهم خِيرة الله من خلقه انتهى .

ومن ذلك تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يتلقوا الوحى، ولا أسرى بهم، ولا عرجوا إلى الملأ الأعلى، ولا أتوا بالخارق المعجز إلا بعد التجرد الفطرى، والانسلاخ عن اللبوس البشرى، والتحقق بمقام العبودية لله عز وجل الذى هو أعلى المقامات، كما يشير إليه قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) .

وكذلك الأولياء الذين منحوا كرامة الخارق لايمشون على الماء، ولايطيرون فى الهواء، ولا تطوى لهم الأرض، ولا يجوبون الطول والعرض إلا بعد التجرد عن الأكدار الطبيعية والعوائق البشرية والتحقق بمقام وراثة العبودية النبوية وإن كان هناك فرق بين المقامين وأى فرق ؟ .

تفاوت النفوس فى الانسلاخ عن البشرية

اعلم أن انسلاخ النفس عن لبوس البشرية وعوائق الطبيعة الجسمانية يقع على وجوه شتى، وفى حال دون حال، وأكمله مايقع للشخص مع حفظ ناموس الطبيعة ورسوم الشريعة، فتجده وهو فى هذا المشهد يأكل ويشرب ويبيع ويشترى ويصلى ويصوم ويزكى ويحج ويتزوج ويعامل الناس بأنواع المعاملات على وجه أتم وأكمل، جامعاً بين المشهدين قائماً بأحكام الموطنين كأن روحه تشهد ما هناك وتحفظ ماهنا، كالنائم تسبح روحه فى عالم الخيال، وتصعد إلى

المبادئ العالية، وترى ما ترى ومع ذلك لها اتصال بالبدن يحفظ عليه حياته ويستبقى آثاره إلا أن هذه تفضل نفس النائم بحفظ الحركة والشعور على وجه لاَ ثَلْمَ فيه .

وهذا النوع من الإنسلاخ يقع للأنبياء والكمل من الأولياء، وهم أصحاب التمكين، ودونه مراتب متفاوتة وأنواع شتى لا يعرفها إلا الواجدون .

وبالجملة فالانسلاخ عن البشرية يرجع إلى تجرد النفس ونزوعها إلى مبدئها الأول، وعالمها الروحانى بخلع صورة ولبس صورة أخرى، فهو نوع من تطورات النفوس فى حركاتها الصاعدة، وتمثل فى عالم الظهور بأمثال متباينة عكس نشأتها الطبيعية وأطوارها البدنية .

ومن طالع كتب الصوفية وتأمل فيها وقف على كثير من غرائبه، ولا أظنك بعد هذا ترتاب فى معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو تعود إلى إنكار كرامات الأولياء ولله تعالى القدرة الباهرة وله أن يختص من يشاء بما يشاء . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

المبحث الخامس

فى تعلق الروح بالبدن حالة النوم

تبقى الروح الإنسانية متعلقة بالبدن حالة النوم تعلقا دون تعلقها اليقظى بقدر مايتخيل من التفاوت بين حالة الشخص فى نومه وحالته فى يقظته فهو تعلق جزئى بَيْنَ بَيْنَ، أى اتصال من وجه ومفارقة من وجه، وذلك أن الروح الحيوانى المنبعث

من التجويف القلبي فى سائر أجزاء البدن إذا انكمش ناحية القلب وهدأت حرارته الطبيعية ، خمدت الحواس ، وفترت القوى التى هى آلات التدبير والتصرف ، فتتمكن النفس من مفارقة البدن مفارقة جزئية ، أى مع بقاء نوع اتصال بالبدن لحفظ حياته وتدبير ما يحتاج إليه فى هذا الموطن .

ومعلوم أن نوع هذه الحياة دون الحياة اليَقَظِيَّة وأنهما يتفاوتان قوة وضعفا تفاوتا يرجع إلى التفاوت بين درجتى التعلق اليقظى والتعلق النومى وآثارهما المختلفة .

ومن هنا قيل : إن النوم مفارقة الروح للبدن مفارقة جزئية ، أو فترة طبيعية تهجم على الشخص تمنع حواسه الحركة وعقله الإدراك ، ويسمونه : الموت الأصغر ، وقسمه الفقهاء إلى ثقيل ، وخفيف ، وطويل ، وقصير وبنوا على ذلك أحكاما .

والطبيعيون وأهل صناعة التنويم يقولون : إن الإنسان إذا نام خرجت روحه التى يعقل بها الأشياء عن البدن، أوهجعت عن تدبيره ، ولها شعاع متصل به يعبر عنه بالسيال الكهربائى فيرى الرؤيا بتلك الروح ، وتبقى الحياة ومايتبعها من الآلات والقوى ، وإذا مات فارقته النفس مفارقة كلية وتلاشت روحه الحيوانية .

وعلماء الشريعة على هذا المعنى ، إلا أنهم لم يعللوا هذا الفتور الطبيعى المؤدى إلى تلك المفارقة بأكثر من أن عمل اليقظة لما كان موجبا لِكَلَال الأعضاء والقوى احتاج البدن إلى السكون والراحة ، لتعويض ما تحلل منه ،

فالنوم عندهم كمقدمة بعث جديد لتلك القوى ، ولذا قيل إنه محلِّل للفضلات ، مزيل للتخَمة ، مريح للنفس والبدن .

وكما أن عمل اليقظة يوجب ما ذكر يوجب أيضا انكماش الروح الحيوانى ناحية القلب ، فتخمد الحواس ، وتفتر القوى ، وعند ذلك تفارق الروح الإنسانية البدن ويفتر تعلقها به عن تعلقها حال اليقظة كما تفتر حياتها عن حياته اليقظية .

وبالجلة : فالفتور النومى كما يعترى الأعضاء والقوى يعترى الروح الحيوانىّ وتعلق الروح الإنسانىّ ، وبالنوم تستعيض الحواس والأعضاء ما فقدته من القوة حال اليقظة ، وريثما تتم هذه الاستعاضة يتنبه الإنسان من سُباته ويتأهب للفكر والعمل، ويعود الجسم صالحا للحياة اليقظية بالتنقية والنضج وتقوية الفكر والحسّ؛ فالنوم مع كونه نوعا من المرض وموتا أصغر مُعِدٌّ لنوع آخر من الحياة والصحة والحركة والشعور .

ونقل ابن القيم عن عكرمة ومجاهد أن الإنسان إذا نام فإن له سِيبًا يجرى فيه الروح وأصله فى الجسد فيبلغ حيث شاء الله ، وما دام سِيبُه ذاهبا فالإنسان نائم ، فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان ، وكان بمنزلة شعاع الشمس وهو ساقط بالأرض وأصله متصل بالشمس اه .

والسِّيب بالمثناة والكسر: مجرى الماء، فالروح به تروح عن البدن مادامت فى تيار سيلها الشعاعى وتعود إليه بعودته .

والطبيعيون الباحثون فى ظاهرة النوم يعللونه « تارة » بأن عمل اليقظة يولد مواد حِمْضية تجلب الشعور بالنوم وتنحلّ به « وتارة » بتأثير المواد القَلَوية

الميكروبية فى المراكز العصبية ، فالنوم عندهم تسمم ذاتى يحدث من تأثير المواد القلوية ، وبه تفرز تلك المواد من الجسم ويزول الاضطراب والتعب الذى حصل فيه « وتارة » بشحن المخ بمتحصلات الإفراز السمية .

وبالجملة : فسواء قلنا إن النوم يحصل من الموادّ الحمضية التى تتكون من عمل الأعضاء فى اليقظة ، أو من المواد القلوية التى تؤثر فى المراكز العصبية ، أو من شحن المخ بمتحصلات الإفراز السمية فذلك لا يتنافى مع ما ذكره علماء الإسلام الذين لا يعنيهم البحث عن مثل هذه الأسباب الغامضة .

وعلى كل حال فالروح لا تزال متعلقة ببدن النائم ، حافظة لحياته ، مدبرة لشئونه اللائقة به فى هذا الموطن، وفى هذه الحالة قد ينكشف لها من عالم الغيب والشهادة ما لا ينكشف لها حال تعلقها اليَقَظِىّ .

الرؤيا المناميَّة

ومن هنا الرؤيا المنامية ، فإنها من خواص النفس الإنسانية لا يخلو عنها أحد من البشر غالبا ، وقد جعلها الشارع من المبشّرات فقال : « لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ » قالوا : وما المبشّرات يا رسول الله ؟ قال : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ » ووقوع ما يقع منها للبشر غالبا إنما هو من غير قصد ولا قدرة عليه ، وقد تكون بقصد الشىء عند النوم وشغل النفس به ، وقد تكون بسبب أدعية وأذكار وآيات تتلى عند النوم ، فيرى الإنسان ما يتشوف إليه ويقصده إما بعينه أو بمثاله ، فإن كشف النفوس فى عالم الخيال

– كما فى إحياء العلوم وغيره – قد يكون بحكاية الخيال وتمثيله ، وقد يكون بحكاية المعنى المتلقّى صريحا من المبادئ العالية كما يقع خارجا فلا يحتاج إلى تعبير، وقد لا يكون كذلك فيحتاج إلى التعبير .

وتأويلُه يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، والفصول وأحوال الأشخاص وما اعتاده الرائى فى تصور المعانى بصور تلائمها أو تباينها وما أخذ من عالم الخيال وتأليفُه تارةً يصدق وتارةً يكذب فيكون أضغاث أحلام .

وفى كتاب [الروح] لابن القيم : أن الرؤيا على ثلاثة أنواع : رؤيا من الله ، ورؤيا من الشيطان ، ورؤيا من حديث النفس ، والرؤيا الصحيحة أقسام : (منها) إلهام يلقيه الله سبحانه وتعالى فى قلب العبد ، وهو كلام يكلِّم به الرب عبدَه فى المنام ، كما قال عبادة بن الصامت وغيره : أى يلقيه فى نفسه من غير إسماع له بحرف أو صوت ، وهو فى الأنبياء وحىٌ لا مرية فيه ولا مزاحمة قطعا ، وفى غيرهم ليس كذلك . (ومنها) مثَل يضرب به له ملَك الرؤيا الموكل بها . (ومنها) التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم . (ومنها) عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له . (ومنها) دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها . (ومنها) أن يرى النائم غيرَه من الأحياء يحدثه ويخاطبه وبينهما مسافة بعيدة ، بأن يضرب ملك الرؤيا للنائم مثلا أو يكون حديث نفس من الرائى تجرد له فى منامه ، وقد تتناسب الروحان وتشتد علاقة إحداهما بالأخرى فيشعر كل منهما ببعض ما يحدث لصاحبه وإن لم يشعر بما يحدث لغيره لشدة العلاقة بينهما ، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب لا تحصى .

قال بعض السلف : إن الأرواح تتلاقى فى الهواء فتتعارف وتتذاكر فيأتيها
ملك الرؤيا بما هو لاقيها من خير أو شر قال : وقد وكل الله بالرؤيا الصادقة
ملكا علمه وألهمه معرفة كل نفس بعينها واسمها ومتقلبها فى دينها ودنياها وطبعها
ومعارفها ، لا يشتبه عليه منها شىء ؛ ولا يغلط فيها فتأتيه نسخة من علم غيب الله
من أم الكتاب بما هو مصير لهذا الإنسان ، من خير وشر فى دينه ودنياه ،
ويضرب له فيها الأمثال والأشكال على قدر عادته، فتارةً يبشره بخير قدمه أو
يقدمه ، وتارةً يحذره من معصية ارتكبها أو همَّ بها ، وتارةً يحذره من مكروه
انعقدت أسبابه ليعارض تلك الأسباب بأسباب تدفعها ، إلى غير ذلك من الحكم
والمصالح التى جعلها الله فى الرؤيا نعمة منه ورحمة وإحسانا وتذكيرا وتعريفا ،
وكم ممن كانت توبته وصلاحه وزهده وإقباله على الآخرة من منام رآه أو رؤى
له ؟ وكم ممن استغنى وأصاب كنزا أو دفينا من منام ؟ وكم ترقت نفوس مريدين
على أيدى شيوخ عارفين بسبب الرؤيا الصالحة التى يراها المريد السائر إلى الله
تعالى أو يراها له شيخه العارف الصالح كيف وهو وارث من أنوار النبوة كما قال
صلى الله عليه وسلم : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ
النُّبُوَّةِ » وكلما صفا الباطن انكشف فى حدقة القلب ما سيكون فى المستقبل كما
انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم حتى نزل قوله تعالى
(لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ
آمِنِينَ) ، وبالجملة : فعالم الخيال والرؤيا عالم واسع لا تنتهى أطرافه .

والقولُ بأن العلوم كلها كامنة فى النفس وإنما اشتغالها بعالم الحس يحجبها
عن مطالعتها ، فإذا تجردت كلَّ التجرد كما فى الموت أو بعضَه كما فى النوم رأت

منها بحسب استعدادها ـ ليس على إطلاقه فإن تجرد النفس لا يطلعها على علم الله
الذى بعث به رسوله وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والأمم الخالية ،
وتفاصيل المعاد ، وأشراط الساعة ، وتفاصيل الأمر والنهى ، والأسماء والصفات
والأفعال ، وغير ذلك مما لا يعلم إلا بالوحى (انظر كتاب [الروح] لابن القيم ،
و [إحياء العلوم] للغزالى) .

ولا يخفى أن بعض ذلك قد يخالف ما صح أن عمر رضى الله عنه كان يسبق
الوحى أحيانا فيما يراه ويخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعض أصحابه وإن
كان يقظة كما قال فى قصة الأذان وغيرها ، اللهم إلا أن يقال : إن عمر رضى الله
عنه ، إنما أخبر بالمحكوم فيه دون الحكم .

التنويم المغناطيسى وغرائبه

التنويم المغناطيسى هو تسلط روح الشخص المنوِّم على روح المنوَّم « بالفتح »
وهو المسمى بالوسيط ، بحيث يصير تحت تصرف المنوِّم وإرادته ، وعند تلقين
المنوم ، وتسليط إرادته على روح الوسيط يحصل لبدنه غشية ولحواسه وقوى أعضائه
فترة كفترة النائم نوماً طبيعيًّا ، وذلك هو النوم الصناعى الناشئ من التنويم
المغناطيسى الذى هو من تأثير الأرواح وتفاعلها لامن تأثير الطبائع ووظائفها ،
ولذا كانت آثاره الغريبة ومشاهداته العجيبة من أصرح الأدلة على وجود الروح
الإنسانى وعلى سريانها فى البدن .

وأهل هذه الصناعة يذكرون له طرقا عديدة ، منها : أن الشخص المنوِّم

يحدق بصره إلى الوسيط أو يبادره بالإشارات والحركات المغناطيسية ، أو يضع بالقرب من عينيه مادة لامعة ينظر إليها بتحديق بصره ، أو يسمعه باتصال أصواتا مُلَحَّنة أو يبهته برميـة نور كهربائى ساطع ، أو يشدّ على إبهامه شدًّا خفيفاً ، أو يلقنه النوم بإطباق جَفْنيه و يأمره بعنف أن ينام ، إلى غير ذلك من الطرق المتنوعة ، و يقولون : إنه متى تـكرر تنويم الشخص مرات عديدة سهل تنويمه ولو بحركة جزئية أو نفخة واحدة .

ومع ذلك فالروح الإنسانية فى هذه الحالة لا تزال متعلقة ببدن النائم ، حافظة لحياته ، مدبرة لشئونه اللائقة به فى هذا الموطن ، كما تقدم فى النوم الطبيعى .

وقالوا أيضا : إن المنوَّم قد يبقى على جزء من الحرية والاختيار ، وقد يصل إلى درجة يكون فيها تحت تصرف منوِّمه خاضعاً لإرادته مقتنعاً بكل مايوهمه به و يوجهه إليه تمام الاقتناع والخضوع ، حتى لو أوهمه مثلا أنه ملِك عظيم أخذ فى الحال شكل العظمة والأُبهة ، وأعطَى نفسه جميع صفات الملوك فى الـكلام والحركة ، وإن أوهمه أنه فقير ذليل خضع واستكان وتقمص سائر صفات الفقراء البائسين .

وقد روت مجلة المجلات الفرنسية كما فى دائرة المعارف الوجدية : أن رجلا نوّم زنجيًّا وأوهمه أنه ذئب ضارٍ ، فانبعثت منه صفات الذئب وهام على وجهه فى الأسواق فقتل ثمانية أشخاص وحاول نهش لحومهم .

و بالاختصار يكون المنوَّم تحت سلطان المنوِّم ، فيريه و يسمعه أشخاصا وأصواتا لا وجود لها ، ويجعله يحس بمـا لا حقيقة له إلا فى مخيلته ، فإن أعطاه قدحا من الماء وأوهمه أنه خمر سكر وانتعش ، و إن أمره بأكل بصلة حريفة

وأقنعه بأنها كمثرى لذيذة أكلها وتلذذ بها . وكل هذا من تأثير الأرواح وتأثرها و إلا فالطبيعة البشرية لا تصلح لهـذا التفاعل ، ومع اشتغال روح المنوِّم بالتأثير فى روح الوسيط وشغل روح الوسيط بإظهار تأثيرها منها لا يزال كلا الروحين متعلقا ببدنه حافظا لحياته مدبرًا لشئونه .

وهذه المسألة كانت معروفة عند قدماء المصريين والـكلدانيين وغيرهم من الشعوب القديمة ، إلا أنه لم يتحدث بها فى أوربا إلا فى سنة ١٧٧٠ وأول من تكلم بها الدكتور الألمانى (مسمر) فإنه قرر أن فى الإنسان سيالاً مغناطيسيًّا لا يعرف كنهه ينبعث منه بالإرادة و يؤثر على الأشياء والأشخاص تأثيرًا خاصًّا ، وأخبر أنه طبب به الأمراض العصبية فنجح ، فلقى هذا الأستاذ من علماء وقته ما كان يلقاه كل من يدّعى وجود شىء غير المادة ، لأن الإلحاد كان ضاربًا أطنابه فى جميع القارات المتمدينة إلا أن مسمرًا لم تثنه هـذه الزعازع ، واستمر يصاول من يصاوله إلى أن كثر أشياعه وتلامذته ، وانتصر هذا المذهب انتصارًا باهرًا حتى أغرى كثيرًا من الماديين بالخوض فى هذا العباب ، فتبين لهم صدق الداعين إليـه ، وأن بجانب المشاهدات المحسوسة المادية التى تنطبق على علم الفيسولوجيا أشياء أخرى خارقة للطبيعة لم يستطع أحـد تفسيرها إلى الآن ، ولا تنطبق على أى قانون تشريحى ، وهذه الخوارق للطبيعة تثبت بطريقة محسوسة ـ لا تحتمل الشك ـ وجود الروح ، لأنها فضلا عن كونها تشذ عن قوانين التشريح تعارضها وتلاشيها ، فالنوم المغناطيسى يثبت وجود الروح وخلودها ، و يبرهن على إمكان اختلاط أرواح متجردة عن المـادة بأخرى لم تزل مكتسبة بالمادة كما سيأتى فى تحضير أرواح المتوفين .

فمن ضمن عجائب النوم المغناطيسى التى تهدم قوانين الفيسولوجيا فقد المنوّم للإحساس بكل مايصيبه من غير منوِّمه فيمكنك أن تقطع جسمه إرْبا إرْبا بدون أن يتألم بذلك ، ولا أن يستيقظ ، وليست هـذه المشاهدات مقتصرة على فقد الحسّ ، بل دالة على أمور أخرى مهمة ، كالإخبار بالمغيبات ، ورؤية الأشياء البعيدة ، والنفوذ إلى أسرار الوقفين أمامها ، والبعيدين عنها ، مما لا يكاد يصدقه الإنسان لولا أنه محقق من المشاهدات الحسية والتواتر العلمى الذى لايحسن الشك فيه . ومن ذلك قراءة الأفكار وظهور شبح الإنسان فى مكان بينما يكون صاحبه فى محل لم يتحرك ، واستخراج القوة الحيوانية من الجسد (أنظر دائرة المعارف للأستاذ محمد فريد وجدى) .

وقد أسلفنا أن الروح ليس لهـا وجود خاص ولا شخصية معينة ، وأنها تظهر فى هيأتها الطبيعية كما تظهر فى غيرها ، وتروح وتغدو ، وتسبح فى العوالم الأخرى وفى أسرار الطبيعة حسبما أتيح لها فى عالم التقدير .

وقد شوهد لـكثير من الأولياء والصالحين كرامة لهم كما شوهد لغيرهم ممن لم يتدين بالدين الإسلامى ، فقد اتفق كما ذكرته جرائد لندن بتاريخ ٢٧ مارس سنة ١٩٠٥ عن الميجر (السيركاون) أحـد نواب الإنكليز أنه كان ملازماً للفراش بسبب انحراف صحته ، وحضر طيفه فى البرلمـان الإنكليزى أثناء انعقاد الجلسـة وشهده الحاضرون ، والحادثة مبسوطة فى رسائل الأستاذ محمـد مختار الباجورى .

وقد ذكروا أن العـلامة الـكولونيل مدير مدرسة الهندسة فى باريس توصل بالتنويم المغناطيسى إلى إخراج روح الإنسان ، وأنه استمر يؤثر على

شخص بعد تنويمه ويزيده نوما حتى وقع فى شبه موت ، ففقد الحس والحركة ، وجمد جسمه ، ولم تمـكن مخاطبته ، فعمد إلى تنويم شخص آخر نوماً وسطاً ثم سأله عما أصاب الأول ، فقال : إن روحه خرجت وجلست بجانبه على بعد مّا فمازال يتلمس تلك الروح حتى قال له النائم نوما وسطا : إن يدك الآن على ساقها فأثر الـكولونيل على تلك الجهة بمشرط فحدث فى الحال جرح على ساق المنوّم ، مع أن بينه وبينه أكثر من متر ، ثم أخذ فى إيقاظ ذلك المنوم ، فلما وصل إلى حالة وسطى أخذ يرجوه ويستعطفه أن يزيده نوما حتى يتم خروج روحه متعللا بأن الحياة الأرضية سجن مظلم ، وأن روحه لمـا خرجت كانت تسبح فى الوجود مطلقة بلا قيد ، وأنها رأت من لذات الحياة مالم تـكن تحلم به وهى فى الجسد ، وأنها لم تـكن متعلقة ببدنها إلا بخيط دقيق ، فلم يصغ الـكولونيل إلى كلامه وأيقظه ، فلما وصل إلى الحياة الاعتيادية لم يذكر مما جرى له شيئا ، فأعاد تنويمه فتذكر كل ماحدث له أولا اهـ .

كأن له حالتين من الوجـود : حالة تغلب فيها الروح على الجسد فيعيش الإنسان معيشة روحية . وحالة يغلب فيها الجسد على الروح فيعيش الإنسان كما يعيش فى حالة جسدية ، ولو مات نهائيًّا لتلقت روحه جزاء عمله من خير أوشر .

وفى كتاب الأستاذ محمـد فريد وجدى [على أطلال المذهب المادى] أن هذه أمور خارقة للعادة تحققت علميًّا وتـكررت تجاربها ملايين المرات فى أقطار العالم المتمدن منذ سبعين سنة وهى التى حولت إلى المذهب الروحانى رءوسا استعصت على كل مؤثر فى الأرض ، وأصبحوا يعترفون بثبوت العالم الروحانى والاتصال بالأحياء التى فيه وقيام الروح مجردة عن المادة .

وهناك أدلة ترجح أن من هذه الأرواح التى تظهر للمجربين أرواحَ الموتى (منها) تكلم الروح بلغة المتوفى الخاصة واستخدامها عبارته المألوفة وتذكير أهله بحوادث قديمة كانوا نسوها لبعد العهد به ، ولا يدريها أحد سواهم (ومنها) دلالة أهلها على أمكنة أوراق ومستندات ضائعة وضعها المتوفى فى تلك الأماكن قبل موته اهـ . وإلى غير ذلك من الحوادث التى تدل دلالة واضحة على ثبوت الروح الإنسانى واتصال أرواح الأحياء بالأموات وأن لها آثارًا كونية وأمْرِيَّة وتصرفًا حال الحياة و بعد الممات فى هـذا العالم المحسوس ، وأن تصرفها بعد مفارقتها لهذا اللبوس البشرى والهيكل الجسمانىّ البدنى أتم وأكمل .

ولعل فى هـذا إقناعًا وهداية للذين يتمشدقون بغير بينة فينكرون تصرف أرواح الأنبياء والأولياء بعد وفاتهم لظنهم أن الروح كالبدن تموت وتفنى، وإن بعض الظن إثم وجهل عظيم ، فإن الأرواح ليست كذلك ، بل هى لا تزال حية باقية عالمة مطلقة التصرف بإذن الله تعالى .

ظاهرة غريبة لروح أحد التوأمين

يقع فى بعض بلاد الصعيد بمصر وفى المناطق الحارة لأحد التوأمين أن ينام فى مكان وروحه تسرح فى بيوت الجيران متشكلة فى صورة كلب أو قط تأكل وتشرب حتى تشبع فيشبع التوأم ، وإذا اتفق أن أحداً ضرب هذه الصورة المثالية فأثّر فيها أو كسر عضوًا من أعضائها ظهر الضرب والكسر فى بدنها الأصلى عند عودتها إليه ، وإذا حبست وطال حبسها أو ضربت حتى

ماتت مات ذلك التوأم ، ولهذا تجد أقرباء التوأم إذا نام يلاحظونه ويوصون الجيران بعدم التعرض لمثل هذه الصورة خشية أن تكون صورة التوأم .

ولعل التوأم الذى تقع له هذه الظاهرة دون أخيه هو الذى يكون حظ روحه من أعراض النطفة وأطوارها أقل من حظ روح التوأم الآخر ، فيكون استعداد الروح للتجرد وقدرتها على التشكل لهذه الحالة أقرب ، واتصال سِبَبِها ببدنه أتم وأوفق .

وبما نقلناه فى النوم المغناطيسى وغرائبه وما ذكرناه عن ابن القيم وغيره فى أحكام الروح وآثارها الكونية يمكن تخريج هذه الظاهرة وأمثالها .

وتقدم أن للروح سِبباً متصلا بالبدن تسبح فى تياره عند خروجها منه حالة النوم وتعود إليه عند عودته ، وأن كل ما يحصل للصورة المثالية المتشكلة من هذا السِّيب يحصل لبدنه الأصلى ، عند عودتها إليه .

وأهل صناعة التنويم يعبرون عنه بالسيال الكهربائى ، وبغلاف الروح ويقولون بواسطته ينتقل إلى بدنه الأصلى عند عودتها إليه ما انطبع فى شكلها الروحانى من المؤثرات المادية إلى آخر ما أسلفناه فى هذا الموضوع ، وهذا السِّيبُ هو المعبر عنه عند السادة الصوفية بحجاب الروح وبنور الأرواح .

ظاهرة أخرى لنقل السم من بدن إلى بدن آخر

وكذلك ظاهرة نقل السم من بدن إلى بدن آخر ، فقد وجد ببعض الجهات بالصعيد أن بعض أهل العزائم والرقى يأتى إليه قريب الملدوغ من العصبة أخُوه أو ابنُه من بلد بعيد فيرقيه برقية يتلوها عليه مرة أو أكثر ، فينتقل الألم من

الملدوغ وهو فى بلده إلى ذلك القريب فيعيد الرقية عليه مرة أخرى حتى ينصرف الألم ، وذلك مما لا شك فى وجوده ، وإنما الكلام فى تصوره وفهمه ، وقد علمت أنه لا سبيل إليه إلا من طريق هذا التوجه الروحانى ، وتأثير عزيمته المأذون بتلاوتها بواسطة هذه الصلة الخاصة بين القريب وقريبه التى هى كالصلة بين الروح والبدن فيما يصل من أحدهما إلى الآخر ، فكما أن صاحب الرقية إذا باشر الملدوغ برقيته وقد انتشر السم فى بدنه أمكنه بتوجه روحه وتأثير عزيمته أن يجمع السم فى موضع اللدغ ، ثم يصرفه ، كذلك يمكنه أن يجمعه من بدن الملدوغ إلى بدن قريبه بواسطة الصلة التى بينهما وسرّ العزيمة بحيث ينتقل إليه كما ينتقل الأثر من الروح إلى بدنها الأصلى ، ومن بدنها إليه ، كأنهما جسم واحد ؛ فالراقى ينفث روح كلمته ويوجه سرّ عزيمته للتأثير فى بدن الملدوغ أو بدن قريبه تأثيرًا ينشأ عنه إيقاف حركة السم ورده إلى جهة مبدئه وإبطال آلامه وضرره .

ولا غرابة فى ذلك بعد ما سمعته من حوادث التنويم وخوارقه ، وأن بعض الأطباء توصل به إلى معالجة المرضى بطريق الانتقال .

وقد وجد الآن مجهز نباتى إذا شرب الملدوغ منه قطرة أو قطرتين فى جزء من الماء اجتمع السمّ فى موضع اللدغ أو انصرف مرة واحدة .

وكذلك روح النوشادر إذا فصد محل اللدغ ووضع عليه قطرة أوقف حركة السم .

وبالجملة : فالتدبير الطبى الآن وآثاره العجيبة فى الأبدان وغرائب التنويم المغناطيسى ومشاهداته أكبر شاهد لتحقيق هذه النظرية وأمثالها ، بل نقول :

إنه لا مانع من أن يترقى صاحب هذه العزيمة الروحية كما ترقى الطبيب المادى ، أو توجد نفس أو عزيمة أقوى من نفس وعزيمة هذا الراقى ، فيحصل التأثير بواسطة قرابة أعم من قرابة العصبية أو بصلة أخرى كصلة الصحبة والجوار ، أو بلا صلة أصلا ، أو بمجرد التوجه النفسانى بدون عزيمة ، فإن صدق التوجه وعلم النفوس وعجائبها وأسرار الحروف وغرائبها غير محدود .

وليس ذلك بمستغرب ولا عزيز على القدرة الباهرة ، فإن الذى وضع الخوارق والمزايا فى العقاقير والمعادن والأحجار وخص البعض بقوة الجذب والبعض بقوة الدفع ووجه نفوس البشر إلى استكشافها ومعرفة آثارها استكشافا مستمرا غير محدود ، كما هو مشاهد فيما أظهرته علوم الصناعة فى الأمم الراقية، قادر على أن يضع أسراره العجيبة فى جواهر النفوس ولطائف الأرواح ويُوجِّه من شاء من خلقه لمعرفتها والوقوف على دقائق أسرارها .

ولا يُوجَّه فى هذا أو ذاك إلا نفوسًا متأهبة وأرواحًا صالحة متأهلة يمكنها أن تقف على الدقائق وتستخرج كنوز الحقائق ، وتكتشف أسرار الطبيعة ، وتستنطق صامت الخليقة ، وتجرى البواخر الشامخة مسلّحة تحت الماء كما تحلّق بها فى الهواء تحليق الطيور فى جوّ السماء .

والحاصل أن من أراد أن يخوض فى هذا السرّ المصون ويقف على أحكام الأرواح والنفوس ودقائق الصناعات الغريبة والمشاهدات العجيبة التى لا تصدر إلا عن نفوس عالية متأهبة كاملة لا بد أن يستحدث لنفسه فطرة أخرى وعقلا آخر غير العقل الذى اهتدى به إلى معرفة الجسمانيات وأحكامها البادية ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

المبحث السادس

فى تعلق الروح بالبدن فى البرزخ

تقدم أن الروح موجودة حيـة باقية بعد الموت ، إما فى نعيم أو عذاب ، وأنها بالموت تنقطع عن البدن انقطاعًا كليًّا ، وتخلع هـذا الكساء الطبيعى واللبوس البشرى خلعا نهائيًّا وهو معنى موتها المشار إليه بقوله تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) (١) أى مفارقة لبدنها الطبيعى المحسوس مفارقة كلية ، ثم تعود إليه هامدا فاقد الحس والحركة الآلية فتتعلق به نوعا آخر من التعلق لا كالتعلق النومى الذى يكون باتصال شعاع النفس بالروح الحيوانى الطبيعى نوعَ اتصال ، ولا كالتعلق اليقظى الذى يكون بسريان الروح فى البدن ، أو باتصالها به اتصال تدبير وتصرف آلىّ ، فإن الروح فى هذين التعلقين مقيدة بعلائق البدن وآلاته مشغولة بتدبيره الطبيعى لا يسعها أن تفارقه كليًّا ما دامت الروح الحيوانية باقية فيه ، وفى هـذا التعلق البرزخى ليست كذلك لتلاشى الروح الحيوانى وذهاب قوى البـدن وآلاته بالموت ، وإنما هو تعلق روحى برزخى من قِبَل الروح لا من قِبَل البدن يحصل عند إعادة الروح إليه فيوجب له حياة غير حياته المعهودة وما يتبعها من الحس والحركة كما نص عليه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

ولولا بيانه لهذا التعلق وآثاره ما وسع أحـدًا أن يخوض فى هذه النشأة الغامضة ، فإنها ليست من مجال العقول ، بل الحس يشهد بخلافها وإن كانت

(١) آية ١٨٥ آل عمران .

شهادته فيها غير مقبولة لأنها من عالم الغيب والحسّ من عالم الشهادة فلا بد لإدراكها من حس آخر غير هذا الحس .

والبرزخ فى اللغة يطلق على الحاجز بين الشيئين ، ويطلق على ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى وقت البعث وهو المراد هنا فمن مات فقد دخل البرزخ وقال الفراء فى قوله تعالى (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)(١) البرزخ من يوم يموت إلى يوم يبعث .

والقول بأن الروح باقية بعد الموت وأنها تعاد إلى البدن على وجه يوجب له الحياة المذكورة هو الصواب الذى ذهب إليه أهل الحق للأحاديث الدالة على نعيمها وعذابها وإعادتها إلى البدن بعد المفارقة ، فهى فى عالم البرزخ حية باقية تتعلق بأبدانها فتحيا بحياتها الذاتية بقِىَ البدن أو تفرّق ، وتستمر كذلك إلى النفخة الأولى المشار إليها بقوله تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ)(٢) فقيل إنها تصعق أى تموت بهذه النفخة ككل من لم يمت ، وإليه ذهب جمهور العلماء . وقيل : لا تُصعَق ، بل تبقى حيـة ، فمن شاء الله بقاءهم ممن ورد فيهم الحديث ، كجبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، وحملة العرش ، ورضوان ، والحور العين ، ومالك خازن النار ، والزبانية ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يصعقون بهذه النفخة وإنما يغشى عليهم ثم يفيقون .

(١) آية ١٠٠ المؤمنون . (٢) آية ٦٨ الزمر .

وأول من يُفيق نبينا صلى الله عليه وسلم ، قيل : إلا سيدنا موسى عليه السلام فإنه لا يُصعق ولا يُغشى عليه لأنه صُعِق فى الدنيا مرة فجوزى بها .

ثم بعد أربعين سنة ينفخ فى الصور النفخة الثانية وتسمى « نفخةَ البعث » فيجمع الله الأرواح فى الصُّور عندها وفيه أُثقُبٌ بعددها فتخرج منها الأرواح إلى أجسادها فلا تخطىء روح جسد صاحبها ، و إليه يشير قوله تعالى (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُون) أى يقلِّبون أبصارهم فى الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب ، أو ينتظرون أمر الله فيهم ، وقد دلت الآية على أن النفخة اثنتان : الأولى : للموت ، والثانية : للبعث ، والجمهور على أنها ثلاث : الأولى : للفزع كما قال تعالى (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)[١] والثانية : للموت ، والثالثة : للإعادة والبعث .

إعادة الروح إلى البدن فى قبره وحياته بها
وكلام ابن القيم فى ذلك

وفى كتاب [الروح] لابن القيم : وقد كفانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر مسئلة إعادة الروح إلى الميت فى قبره ، وأغنانا عن أقوال الناس فيها حيث صرح صلى الله عليه وسلم بإعادة الروح إلى البدن فى حديث البراء بن عازب وغيره ، وهو حديث مطول بيَّن فيه صلى الله عليه وسلم كيفية إخراج الملائكة

(١) آية ٨٧ للنمل .

الروح من البدن وصعودهم إلى السماء وردَّها إليه للسؤال حيث قال صلى الله عليه وسلم : « فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ » الخ رواه الإمام أحمد وأبو داود ، وقد جمع الدارقطنى طرقه فى مصنف مفرد .

وقال الحافظ أبو عبد الله بن مَنْدَه[١] : هذا الحديث إسناده متصل مشهور رواه جماعة عن البراء ، فلا وجه للقول بضعفه ، وذهب إلى القول بموجبه جميع أهل السنة والحديث ، فقالوا بحياة الميت فى قبره وإحساسه حياةً برزخيةً وإحساساً كذلك خلافا لما زعمه ابن حزم[٢] حيث قال : ومن ظن أن الميت يحيا فى قبره فخطأ فقد رده ابن القيم وغيره بأنه إن أراد به الحياة المعهودة فى الدنيا التى تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ . كما قال : والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص ، و إن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة بأن تعاد إليه الروح إعادة غير الإعادة المألوفة فى الدنيا فيحيا بها حياة غير هذه الحياة لِيُسأل ويمتحن فى قبره فهذا حق ونفيه خطأ وقد دلّ عليه النص الصحيح الصريح وهو قوله صلى الله عليه وسلم « فتعاد روحه فى جسده » وساق أحاديث كثيرة فى هذا الباب تدل دلالة ظاهرة على إعادة الروح إلى أجسادها فى القبور للسؤال ورد السلام والنعيم والعذاب إلى غير ذلك فى أى وقت شاء الله ردها إليه ولا معنى لإعادتها لأجسادها إلا تعلقها بها على الوجه اللائق بهذا الموطن .

(١) المتوفى سنة ٥٣٩٥ . (٢) فى كتاب الملل والنحل .

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه وشرَع السلام على الموتى بصيغة خطاب الحاضر الذى يسمع وأخبر أن من سلّم على أخيه المؤمن تعود روحه إليه فيرد عليه السلام ، وأنه صلى الله عليه وسلم يرد على من سلّم عليه ، وصح أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلّم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا : السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، فيخاطبوهم بمخاطبة الأحياء ، وهم يسمعون كلامهم ويردون سلامهم ، كما ورد به الحديث الصحيح ، وصح أن القبور تخاطبهم وأن الموتى يقرءون القرآن فى قبورهم ، وأن طالب العلم إذا مات حريصا عليه بعث الله له ملكا يعلمه فى قبره ، وأخرج ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هِيَ المَانِعَةُ هِيَ المُنْجِيَةُ ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » .

وقد صح أن كثيرًا من الأولياء كان يصلى فى قبره ويقرأ القرآن متلذذا متنعما بذكره .

وحديث « إِذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ » الخ معناه : إذا مات هذا الهيكل المخصوص وتلاشت قواه البدنية بانتقال روحه من دار الدنيا إلى دار البرزخ انقطع عمله التكليفى الدنيوى ، وهذا لا ينافى أن لروحه بعد ذلك عملا آخر لا تكليف به كعمل أرواح النائمين والملائكة المطهرين .

وأما قوله تعالى (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ)[1] وقوله تعالى (وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)[2] فالمراد بالموتى فيه وبمن فى القبور الهيكل المخصوص ، لأنه المستقر فى القبر والميت المتلاشية حواسه وقواه البدنية دون روحه ، ولأن المقصود تشبيه الكفار بهذه الجثث التى فقدت حواسها وتلاشت قواها حيث لم يعوا ما يسمعون فى الدنيا ولم ينتفعوا به ، شبهوا وهم أحياء صحاح الحواس بهذه الأبدان الهامدة التى لا تحس ولا تسمع ، وتشبيههم بالصم فاقدى السمع الذين يُنعَقُ بهم فلا يسمعون ، وبالعُمْى فاقدى البصر حيث يضلّون الطريقَ ، وإذا هُدُوا لا يهتدون ظاهرٌ فى أن المراد بالموتى ومن فى القبور ماذكر ولا شك أن هذه لا تَسمع ولا تُسمع ، فلذا وقع تشبيه الكفار بهم ، وهذا لا ينافى أن أرواح الموتى تَسمع وتُسمع لأنها حية باقية سميعة باصرة كما تقدم ، بل هى أسمع من أرواح الأحياء كما قال صلى الله عليه وسلم فى أهل قَليب بدر « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْ هَؤُلَاءِ » (انظر تمام المبحث فى الرسالة الثانية فى حكم التوسل بالأنبياء والأولياء عليهم السلام لكاتب هذه الأحرف) .

والحاصل أن إعادة الروح للبدن فى البرزخ إعادةً توجب له حياة وأثرًا لائقين بهذا الموطن مما أثبته الشرع ثبوتًا لا ينبغى النزاع فيه ، والعقل السليم لا يأباه ، وإذا كان النائم روحه لها اتصال بجسده وهو حى وحياته غير حياة

(١) آية ٨٠ النمل . (٢) آية ٢٢ فاطر .

المستيقظ والنومُ شقيق الموت ، فالميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حالة متوسطة بين الحيِّ والميت الذى لم ترد روحه إلى جسده .

وفى إحياء العلوم للامام الغزالى : ومثل الميت مثل الزَّمِن إلا أن الزَّمانة تعطل بعض الأعضاء والموت يُعطل كلَّ الأعضاء ، وكلّ الأعضاء وما فيها من القوى الجسمانية آلات للروح والروح هى المستعملة لهـا ما دامت الأعضاء على وضعها الخاص ونظمها الطبيعى ، فإذا خرج البدن عن هذا النظام لا يمكن للنفس أن تستعمله على النحو الذى كان لها حين تعلقها به قبل خروجه عن هذا النظام ولا أن تتعلق به أو بأجزائه تعلق السريان الذى كان لها فى الحياة الدنيا ، لأن ذلك إنما يكون بواسطة الأجهزة والقوى المنتشرة فى سائر الأعضاء ، وقد بطل ذلك بالموت ، إلا أن الروح تعود إلى البدن وتتعلق به نحوًا من التعلق لا يكون بهذه الوساطة الباطلة سواء بقى البدن أو بلى وتفرق اهـ .

والأحاديث والآثار الدالة على ردّ الروح إلى البدن وإعادتها إليه لا تدل على أنها تعود إليه دائمـا ، وفى كل حال ولا أنها تتعلق به تعلقا يوجب له الحياة المعهودة وما يتبعها من الحس والحركة وحاجة الطعام والشراب حتى يجب تأويلها وصرفها عن ظاهرها ، فإن ذلك النوع من الحياة قد بطل بنزع الروح من البدن ومفارقتها له وتلاشى قواه وآلاته .

بيان المغايرة بين التعلق البرزخى والتعلق الدنيوى
واختلاف آثارها

وإنمـا تعلق الروح بالبدن فى البرزخ نوع آخر من التعلق مغاير للتعلق الدنيوى مغايرةً كلية يكونُ من قِبَل الروح لا من قِبَل البدن ، أى أن البدن فى هذا الموطن لا يقتضيه كما اقتضاه فى موطن الدنيا ، ولذا كان غير مشروط بالبِنْية والتأليف ولا بتلك الآلات والقوى وما يتبعه من الحياة كذلك .

ومن تأمل كيف أنشأ الله الجنين فى بطن أمه وكيف أعدَّه لتعلق النفس به ونفخ الروح فى أجزائه عرف أن التعلق البرزخى وآثاره مغاير للتعلق الدنيوى مغايرة كلية ، وأن هذه النشأة على عكس النشأة الأولى ، ولذا عبر الشارع عن تعلق النشأة الأولى بالنفخ المادى الجسمانى ، وعن هذا التعلق بالإعادة والرد فهو تعلق روحانى محض يكون للروح ومن قِبَلها مهما كان البدن بقى أو تفرق قرُب أو بعُد ، فإن الأرواح فى تعلقها بالأشباح وارتباطها بها لا تتوقف على قرب أو مماسة ولا يحول بينها وبين ملاحظتها واتصال آثارها بها أى حائل مهما غلظ وصلب واشتدت كثافته ، فليس إشراق الأرواح على أبدانها وتعلقها بها كإشراق الشمس فى الأفق يحول بينها وبين ما تشرق عليـه تخوم الأرض وشواخص الجدران ، بل نسبة الشواخص الـكثيفة إلى أضوائها كنسبة الهواء اللطيف إلى أشعة الشمس ، فـكما أن الهواء لا يمنع نفوذ أشعة الشمس إلى ما تقع عليه كذلك هـذه الشواخص الـكثيفة لا تمنع أضواء الأشعة الروحية من

الوصول إلى أشباحها ، وربما كانت بجانبها ألطف من الهواء بجانب أشعة الشمس .

وكما نشاهد وقوع أشعة الشمس على الجسم وهو ملتئم الأجزاء فى مكان واحد مثل مانشاهدها عليه وهو مفرق الأجزاء فى أمكنة متباعدة كذلك الروح فى تعلقها بالبدن واتصال أشعتها به لافرق بين كونه مجموعا أو مفرقا ، بل الأشعة الروحية فى ذلك أتم وأكمل .

ولا نعنى بالتعلق الروحى إلاّ وقوع أشعة الروح واتصالها بأبدانها على وجه تصل به آثارها إليها كيفما كانت وأينما تكون ، أما كُنْهُ هذا التعلق ومقدار نفوذه وما يترتب عليه من الآثار فلا يعلمه إلا بارئ الأرواح والنَّسَم كما قال تعالى (أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

وصول اللذة والألم إلى البدن بواسطة التعلق البرزخى

واعلم أن كل ما يصل إلى الأرواح فى هذه النشأة من اللذة والألم يصل إلى الأبدان بواسطة هذا التعلق والإشراق وإن لم يكن تعلقَ حلول وسَريان ، يشهد لذلك ما تقدم فى تعلق النوم ، فإن ما يصل إلى الروح من اللذائذ والآلام فى هذه الحالة يصل إلى البدن ، مع أن الروح مفارقة له ، كما أن مايصل إلى الأبدان فى نشأة الدنيا يصل إلى الأرواح بواسطة تعلقها بأبدانها وإن كان هذا محسوسا وذاك غير محسوس .

ومما يقرِّب هذا وذاك مانجده حال اليقظة من تدبير الروح للأشياء المنفصلة

عنها فإن الملك العادل قد يدبِّر أطراف مملكته وهو بعيد عنها، وكلما أحس بتقدم رعيته واستتباب الأمن والراحة بين أفراد أمته أدرك لذة الملك وشعر بما تشعر به أمته من التنعم والراحة ، والعكس بالعكس ، متى كانت نسبة الرعاية بينه وبين أمته محفوظة على الوجه المطلوب فإن ارتباط الملك العادل بأمته كارتباط الروح بالجسد ولذا قيل : إن نفوس الأنبياء بمنزلة العقول للأمم ، وقد ورد « السلطان ظل الله فى أرضه » ومظهر آثاره فى خلقه .

السرُّ فى أن اللذة والألم فى البرزخ غير محسوسين

والسر فى أن الأحوال التى تحصل للميت فى قبره من عذاب أو نعيم ليست أمرًا محسوسًا مشاهدًا أن المتلقىِّ لها أولا وبالذات هو الروح ولا تتلقاها إلا روحانية ، فلا تصل إلى البدن إلا كذلك ، وحينئذ لا يمكن إدراكها والوقوف على حقيقتها بهذه الحواس المادية المشروط إدراكها بشرائط مخصوصة ، ومن هنا صح أن يقال : إن الميت يأكل ويشرب ويفرح ويتألم ويعذب وينعم ، كما وردت به الآثار الصحيحة ، وأن ذلك أمر حقيقى وعدم إحساسنا بهذه الأمور عند نظرنا جثة الميت لا يدل على نفى شىء منها ، بل يجب أن لا تكون محسوسة لنا لأنها ليست من جنس ما يحس كما عرفت ، وإن وقع مشاهدتها لأحد من الخلق فإنما يكون ذلك خرقاً للعادة معجزة أو كرامة .

وهذا لا يدل على ضعف هذا النوع من التعلق كما أشرنا إليه فإن الإحساس بالأمر شىء والقوة والضعف شىء آخر كيف والروح فى هذا الموطن لا معاوق

لها من قِبَل البدن ولا هى مشغولة بتدبير شؤونه ، إذ لاشأن له فى هذه النشأة وإنما الشأن للأرواح وقواها العقلية الذاتية ، فهى التى تتلقى ما يتاح لها أولا وبالذات على الوجه اللائق بالعالم الأمرى ، فما كان من الكيفيات والأحوال الروحية المحضة تلقته واختصت به بدون أن ترتبط بالبدن ، وما كان مشتركا بينها وبين البدن تلقته وتعلقت به نوعا من التعلق يكون سببا فى وصول الأثر إليه ليأخذ حظه منه حسبما وردت به النصوص .

وبالجملة : فالعذاب والنعيم فى البرزخ واقع على النفس والبدن جميعًا ، كما هو الحق الذى عليه أهل السنة والجماعة ، إلا أنه تارة تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ، وتارة تعذب وتنعم متصلة به والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما فى هذه الحالة مجتمعين كما تكون الروح منفردة عن البدن .

وهناك أقوال أخرى لا يلتفت إليها ، ولا أظنك بعد هذا ترتاب فى وصول النعيم واللذة أو العذاب والألم إلى البدن من طريق الروح مع تجردها عنه وعدم سريانها فيه ، فإن الشك فى ذلك وقوف مع حجاب هذه الحالة الدنيوية المحسوسة ، وقد علمت أن حالة البرزخ نشأة أخرى ومَثل ما بين النشأتين مَثل ما بين المعقول والمحسوس .

وحالةُ النوم وعالم الخيال أكبر شاهد على ذلك ، ويزكيه ما تقدم فى التعلقات السابقة من حوادث النوم المغناطيسى ، ومن تأمل قول الحكماء وأئمة الصوفية بتجرد الروح عن البدن حال الحياة وأن كل مايصل إلى البدن واصل إلى الروح بواسطة تعلقها به تعلق التدبير والتصرف كما أشرنا إليه لا يرتاب فى

عكس هذه القضية ، وهو أن مايصل إلى الروح يصل إلى البدن لوجود التعلق بينهما مع عدم السريان فى كلتا الحالتين .

وصول النعيم والعذاب إلى البدن قبر أو لم يقبر

ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه الواردين فى الأحاديث وغيرها اسم لعذاب البرزخ ونعيمه ، وهو ما بين الدنيا والآخرة قال تعالى : (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) وهذا البرزخ هو الموطن الأصلى لأرواح الموتى ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب أو النعيم ناله فيه نصيبه منه قبر أو لم يقبر ، حتى لو أكلته السباع أو حرق حتى صار رمادا ، أو نسف فى الهواء ، أو صلب ، أو غرق فى البحر ، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب والنعيم ما يصل إلى أصحاب القبور .

ومن ظن غير هذا فقد أخطأ واستكثر على قدرة الله تعالى ما هو من مشمولاتها ، وقد ورد أن بعض الناس أوصى بنيه أن يحرقوا جسمه ويذروا بعضه فى الرياح ويلقوا البعض الآخر فى البحر لينجو من العذاب ففعلوا ، فأمر الله سبحانه البحر والبر بجمع ما ألقى فيهما ثم قال له : قم ، فإذا هو قائم بين يدى الله تعالى فسأله : ماحملك على مافعلت ؟ فقال : خشيتك يارب وأنت أعلم فما تلافاه أن رحمه ، ولو دفن الرجل الصالح فى تابوت ملؤه النار لأصاب جسده وروحه من نعيم البرزخ نصيبه وحظه ، ولو علق الميت العاصى على رءوس الأشجار لأصاب جسده وروحه من عذاب البرزخ حظه ونصيبه ، فجعل الله

الهواء على هذا نارًا وسمومًا والنار على ذلك بردًا وسلامًا ، لأن عناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وصانعها يصرّفها كيف شاء ، ولا يستعصى عليه منها شىء أراده ، ولاشك أن العذاب والنعيم لابد أن يقع على حىّ شاعر حياةً وشعورًا لائقين به وبموطنه الخاص .

والروح حية شاعرة بالذات كما تقدم ، والبدن سواء بقى مجتمعًا أو تفرقت أجزاؤه عند رد الروح إليه وتعلقها به يحيا حياةً برزخيةً .

ولكون هذا التعلق من قِبَل الروح كما تقدم وليس للبدن ما يوجب تقييد النفس واشتباكها به أى اشتباك كانت الروح فى حالة البرزخ مرسلة تتردد على البدن وتتعلق به عند مايؤذن لها تعلقا أقوى وأكمل من التعلق الأول ، ومادام لم يؤذن لها فى العودة إليه والتعلق به لا ترتبط به أحكام الروح وآثارها ولا يصل إليه من ذلك شىء .

وبالجملة فحركة الأرواح وسكونها فى عالم البرزخ منوطة بإذن الله عَلَى لسان ملائكته ، وفى عالم الدنيا منوطة بالتكاليف الواردة فى الشرائع عَلَى لسان الرسل (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) .

أعمال الأرواح فى البرزخ

وَمَا تُنَعَّمُ به أو تعذَّب

وقد تواترت الروايات الصحيحة والرؤى من أصناف بنى آدم عَلَى فعل الأرواح بعد موتها ، وأنها تقرأ القرآن ، وتصلى ، وتخبر أرواح الأحياء عند لقائها ، وتقضى حوائج الناس ، وأنها تقدر عَلَى مالا تقدر عَلَى مثله حال

اتصالها بالبدن فى الدنيا من هزيمة الجيوش الكثيرة بالعدد القليل متمثلة أو غير متمثلة .

وظاهر أن ذلك إنما هو لبعض الأرواح التى يؤذن لها فى ذلك ، وأنها تنعم بالاعتقادات الصحيحة والعلوم والمعارف التى تلقتها من مشكاة أنوار النبوة والإرادات والهمم الزكية ، وأن الله ينشئ لها وللبدن من أعمالها نعيما ينعمها به فى البرزخ فيصير لها روضة من رياض الجنة ، وقد ينشئ لها من الفيض الإلهى مثل ذلك وفوقه ، كما أن الأرواح التى بضد ذلك تعذب بالاعتقادات السيئة الباطلة التى كانت حظها حال اتصالها بالبدن ، وبالإرادات والشهوات الدنية ويضاف إلى ذلك عذاب آخر ينشئه لها ولبدنها من الأعمال التى اشتركت معه فيها ، وهذه هى المعيشة الضنك ، وتلك هى المعيشة الراضية الهنية فى البرزخ ، كما ورد « الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ » فالناس يرون فيه مقاعدهم ومنازلهم من الجنة والنار ، وأجسامهم فى البرزخ تنعم وتعذب بنعيم الأرواح وعذابها ، والدخول التام الكامل فى مقاعدهم الخاصة ، ومنازلهم التى أعدت لهم إنما يكون يوم القيامة .

كل ذلك مروى عن الصادق المصدوق ، فلا وجه لاستبعاده بعد الورود ، ولا للشك فيه وقوفاً مع حجاب الحس والنظر الجلى ، فإن مدركات الحس بإزاء مايدركه العقل ومايقف دونه كذرة فى الوجود بأسره ، وقد جاء فى أرواح الشهداء أنها تعلُقُ[1] فى شجر الجنة ، أى تأكل العُلْقة وتمامُ الأكل والشرب

(١) كينصر ويسمع ، والعلقة بالضم : شجر يبقى فى الشتاء تعلق به الإبل حتى تدرك الربيع ، وتطلق على كل مايتبلغ به من العيش .

واللبس والتمتع إنما يكون إذا رُدَّت إلى أجسادها يوم القيامة ، وهذا ليس خاصا بالشهداء ، بل يعم كل مؤمن كما هو ظاهر حديث « نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلَقُ فى شَجَرِ الْجَنَّةِ » والمؤمن عام يشمل الشهيد وغيره .

والآثار الواردة فى الشهداء لاتدل على انتفاء دخول أرواح المؤمنين فى الجنة ولا سيما الصديقين الذين هم أفضل من الشهداء بلا نزاع .

والحاصل أن القول المنصور الذى ينبغى التعويل عليه فى مسئلة عذاب القبر ونعيمه هو ما أشرنا إليه ، وهو أن المؤمن ينعم بروحه وبدنه فى البرزخ، والكافر يعذب بروحه وبدنه كذلك ، كما أن كليهما يستوفى تمام ذلك يوم القيامة إلا أنه إذ ذاك يصير الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً باديا أصلا لا تبعية فيه لأحدهما على الآخر . لأن كلا منهما روحانى محض ومنشأ نشأة قابلة لمباشرة أحكام هذا الموطن على وجه مستمر خالد .

ومن تأمل فى هذه الأحكام والعِبَر ، وأجال فكره فيها جولة البصير ، وأعطى هذا الموضع حقه من العناية والفهم زال عنه كل شبهة ، وتبين له أن ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسَعته وضمّته ، وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة ، مطابق للعقل ، وأنه حق لا مرية فيه ، وأن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وضعف إدراكه .

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

تعدد المعاد والبعث

وفى كتاب [الروح] لابن القيم أن الله تعالى جعل لابن آدم مَعادين وبعثين (لِيَجْزِيَ) فيهما (الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) وفى الحديث الصحيح « وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ الآخِرِ » فأثبت صلى الله عليه وسلم بعثا أول ، وقد ذكر سبحانه وتعالى هاتين القيامتين فى سورة المؤمنون وسورة الواقعة ، وسورة القيامة ، والفجر ، وغيرها من السور ، واقتضى عدله ، وأوجبت أسماؤهُ وكماله المقدس أن يذيق بدن المطيع له ورُوحه من النعيم واللذة مايليق به ، ويذيق بدن الفاجر العاصى له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه فالبرزخ أول دار الجزاء ، وعذابُه ونعيمُه أول عذاب الآخرة ونعيمها كما دلّ عليه القرآن والسنة الصحيحة دلالة صريحة ، ففى الحديث الشريف : « يُفْتَحُ لِلْمُؤْمِنِ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا ، وَالْفَاجِرُ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا » ومعلوم أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب كما تأخذ الروح حظها ، ولا يكون ذلك إلا بإعادة الروح إلى البدن فى البرزخ وتعلقها به وهو البعث الأول ، فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذى هو داخله ، وهذان البابان يصل منهما إلى العبد فى هذه الدار أثر خفىّ محجوب بالشواغل البدنية ، والغواشى الحسية ، والعوارض المادية . وقد يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه ، ولا يحسن التعبير عنه ، فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من ذينك البابين أكمل ، فإذا بعث يوم القيامة

كمل وصول ذلك إليه ، فحكمة الرب سبحانه وتعالى منظّمة فى ذلك أكمل نظام فى الدور الثلاث .

* * *

إذا علمت هذه الأصول فليس من الممتنع أن تُرَدّ الروح إلى الميت والمصلوب والغريق والمحرق ، ونحن لا نشعر به ، لأن ذلك الرد نوع آخر من التعلق غير التعلق المعهود ، فهذا المغمى عليه ، والمسكوت ، والمبهوت ، أرواحهم متعلقة بأبدانهم ، وهم أحياء ولا نشعر بحياتهم ، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شىء قدير أن يجعل للروح اتصالا بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها ويكون فى تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة غير نوع الألم واللذة الدنيوية ، ولا نحس به ، لأن النار التى فى القبر والخضرة التى فيه ليستا من نار الدنيا ولا من زرعها ، وإنما هما من نار الآخرة وخضرتها ، وهما أشد من نار الدنيا وخضرتها ، وأن الله سبحانه وتعالى يحمى التراب والحجارة التى فوق الكافر وتحته حتى يكون أعظم حرًّا من جمر الدنيا ، ومع ذلك لو مسّها أحد من أهل الدنيا لم يحس بها .

* * *

وقد أوجد الله لنا فى هذه الدار آيةَ الكهرباء نورًا من الأنوار الثاقبة ، وروحا من الأرواح الفعالة السارية ، إذا تسلط تيارها على جسم كثيف أو شفاف لطيف نشأ عنها من الآثار الغريبة ، والأفعال العجيبة ما يبهر عقول البشر ، ولا يحيط به إلا واهب القُوَى والقُدَر ، ومع ذلك قد لانحس بها ، ولا بحركة ماهى فيه ، ولا نراه وهو بغاية القوة موجود محقق كما فى تيار الأثير المتوسط بين قاعدتى التلغراف اللاسلكى وغيره من المخترعات الحديثة .

أحكام الأرواح فى عالم البرزخ

واعلم أن للأرواح فى عالم البرزخ مع أبدانها نشأةً أخرى غير هذه النشأة المحسوسة ، فقد ورد أن الروح قد تكون فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين ، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلَّمَ المسلِّم على الميت ردّ الله عليه روحه فترُدُّ عليه السلام وهى فى الملأ الأعلى ، أو تحضر إلى القبر إما بذاتها أو بمثالها أسرع من البرق والضوء حسبما يؤذن لها .

وقد علمت أن الروح فى عالمها ليست من جنس ما يعهد فى عالم الأجسام إذا شغلت مكانًا لا يمكن أن تتصل بغيره على أى نحو من أنحاء الاتصال ، بل الروح تكون فوق السموات وتتصل بأبدانها فى القبور وترُدُّ السلامَ وتعلَم بالمسلِّم وتسمع كلامه ، ولا يحجبها حاجب فى عالم الملك أو عالم الملكوت ، كما ورد بذلك صحيح الأخبار ، فيجب الإيمان به ومعناه ماعلمت .

وإذا لم يتسع بطانك[1] لفهمه ، والإذعان به ، فهو أضيق من أن يتسع للايمان بالنزول الإلهى إلى سماء الدنيا كل ليلة وهو على عرشه استوى ، بل هو القاهر فوق عباده وعلوه من لوازم ذاته ، وكذلك دُنُوُّه عشية عَرفة من أهل الموقف ومجيئه يوم القيامة لمحاسبة خلقه وإشراق الأرض بنوره ، ولكن التصديق بهذا له قلوبٌ خلقت له وأُهِّلَتْ لمعرفته (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) . (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) .

(١) البطان ككتاب : حزام القتب .

(وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) . انظر [كتاب الروح] لابن القيم .

المبحث السابع

فى تعلق الروح بالبدن يوم بعث الأجساد

تقدم أن الروح بعد مفارقة البدن تبقى حيَّة منعمة أو معذبة ، وأن البدن تابع لها فى ذلك عند ردِّها إليه ، وأن إحياءه بتعلقها به فى البرزخ هو البعث الأول والبعث الثانى يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى المحشر فالحساب فالجنة أو النار ، وبهذين البعثين جاءت آيات الكتاب والسنة ، واقتضى عدله وحكمته جعل معادى هذين البعثين دارى جزاء للمحسن والمسىء كما قال تعالى : (لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) ولكن توفية الجزاء وكماله إنما يكون يوم المعاد الثانى فى دار القرار كما قال تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وهو اليوم العظيم الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين .

ويوم القيامة قيل : من يوم تنفخ الأرواح فى أجسادها إلى مالا نهاية له ، وقيل : إلى دخول أهل الجنة فى الجنة ودخول أهل النار فى النار ، وهو أول يوم القرار المستمر الدائم الذى لانهاية لنعيمه وعذابه .

وتعلق الروح بالبدن يوم بعث الأجساد يكون بالنفخ فى الصُّور ويبقى مستمرا لا نهاية له ، وهو أقوى وأكمل من التعلقات الأخرى ، إذ هو تعلق

لايقبل البدن معه موتا ولا نوما ولا فسادًا ، وهو المشار إليه بقوله تعالى (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)[١] وقوله تعالى : (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)[٢] وقوله تعالى : (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)[٣] ، وعند ذلك يساقون إلى المحشر ، وهو الموضع الذى يقفون فيه من أرض المقدس المتبدلة التى لم يعص الله عليها لفصل القضاء بينهم والجزاء فيه من نوع الجزاء الأول .

ولا فرق فى الحشر بين من يجازَى وهم الإنس والجن والملك ، وبين من لا يجازى كالبهائم والوحوش والحشرات وسائر الهوام على ماذهب إليه جماعة وصححه النووى .

وذهب طائفة إلى أنه لايحشر إلا من يجازَى وإليه مال الغزالى .

والسقط[٤] الذى لم يتم له تسعة أشهر إن نزل قبل نفخ الروح فيه كان كسائر الأجسام التى لاروح فيها ، وإن ألقى بعد نفخ الروح فيه أعيد بروحه ويصير عند دخول الجنة كأهلها فى الجمال والطول .

وأول من تنشق عنه الأرض نبينا صلى الله عليه وسلم فهو أول من يبعث كما أنه أول داخل فى الجنة .

والحشر عبارة عن سوق الناس جميعاً إلى الموقف ، وسوقهم من الموقف إلى

---

(١) آية ٥١ يس . (٢) آية ٦٨ الزمر .

(٣) آية ٤١ ، ٤٢ ق . (٤) مثلثة الأول .

الجنة أو النار هو الحشر الثانى ، وهذان الحشران فى الآخرة ، وهناك حشر آخر فى الدنيا ، وهو إخراج اليهود من جزيرة العرب إلى الشام المشارُ إليه بقوله تعالى (هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ)(١) وهم يهود بنى النَّضِير الذين نقضوا صلحهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الجيش إليهم وكانوا بقرية خارج المدينة يقال لها زُهَرَة ، فحاصرهم إحدى عشرة ليلة حتى طلبوا منه الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء ، فجلوا إلى أريحاء وأذرعات بالشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط ، وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام ، وهو أول حشرهم ، وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام، أوآخر حشرهم حشر يوم القيامة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية فهم الحشر الأول ، وسائر الناس الحشر الثانى،وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرجوا « امْضُوا فإنَّكُمْ أَوَّلُ الْحَشْرِ وَنَحْنُ عَلَى الْأَثَرِ » .

وروى أنه حين ينفخ إسرافيل فى الصور يقف هو أو جبريل عليهما السلام على صخرة بيت المقدس وينادى بالحشر يقول : يا أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن فى فصل القضاء فتخرج الأرواح من الصُّور إلى أصحابها كما قال تعالى (يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ(٢)) أى ذليلين خاضعين

(١) آية ٢ الحشر . (٢) آية ٧ ، ٨ القمر .

من خشية الله تعالى ذاهبين إلى المحشر فى سرعة متناهية (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

ونقل أبو عبد الله سيدى محمد عليش مفتى السادة المالكية فى فتاويه ، أن الخلائق كلهم آدم وأولاده جميعا يقفون فى الحشر ، ومعهم الجن والوحوش والأنعام والحشرات والهوام ، ويحيط بالجميع ملائكة السماء الأولى وهم قدرهم عشر مرات ، ثم يحيط بهم ملائكة السماء الثانية ، وهكذا إلى السابعة ، وملائكة كل سماء تزيد على ما تحتها عشر مرات وتتزاحم الخلائق ويتدافع بعضهم على بعض كما صرحت بذلك الأخبار . اه

ثم اختلف فى البعث فقيل بإعادة المعدوم فى الكل ، أى أن الله يعدم الكل ولو لحظة واحدة فى بعض الأبدان ثم يعيده ، وقيل : يجمع ما تفرق من الأجزاء كذلك، وذهب بعض المحققين إلى أنه بإعادة ما انعدم بذاته من الأجزاء وتأليف ما تفرق منه .

نشأة الآخرة غير نشأة الدنيا

وسواء كان البعث بإعادة المعدوم أو بجمع ما تفرق من الأجزاء فالأجزاء الدنيوية لما لم تكن بحسب نشأتها الأولى مستعدة للبقاء الأبدى ولا للنعيم والعذاب الذى لا يقدر قدره ولا يكيف أمره ، بل كان استعدادها للاضمحلال والفناء ، فإذا أعيدت فى هذه النشأة الأخرى فلا بد أن يجعلها الله تعالى فى نشأة مغايرة للأولى مستعدة للبقاء غير قابلة للفناء ، مهيأة لما تلقاه من النعيم البالغ أو العذاب

الذى لايطيقه أصلب أجسام الدنيا كالحديد والفولاذ ، عكس هذه النشأة الدنيوية ، وتكون الأرواح فيها قوالب الأبدان والأبدان من جنس أرواحها كما ذكره ابن القيم وغيره .

وأن جميع الإدراكات من سمع و بصر ولذة وألم لاتكون متفرقة فى مواضع من البدن ، كما هى فى نشأة الدنيا ، بل كل جزء منها سميع بصير متلذذ متألم كما تقضيه نشأته .

وقد ورد فى أجسام أهل الجنة أنها شفافة لاظلال لها وأنهم يتنعمون بكل أجزائهم والله يقول فى شأنهم (وَنَزَعْنَا مَافِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ[١]) ونزع غل الطبيعة وما فيها من الظلمة والكثافة والتنافر والتضادّ ، كناية عن إبداعها على الوجه المشروح إبداعاً لائقاً بهذا الموطن المستديم وقدرة الله لايتعاظمها شىء كما قال (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ[٢]) .

وقد أخرج ابن جرير عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى عجوز من بنى عامر فقال : من هذه العجوز يا عائشة ؟ فقالت : إحدى خالاتى ، فقالت : ادع الله تعالى أن يدخلنى الجنة ، فقال عليه الصلاة والسلام « إِنَّ الْجَنَّةَ لَايَدْخُلُهَا الْعُجُزُ » فأخذ العجوزَ ما أخذها ، فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُنْشِئُهُنَّ خَلْقاً غَيْرَ خَلْقِهِنَّ » وأحاديث «ضِرْسُ الْكَافِرِ فِى جَهَنَّمَ كَأُحُدٍ» وفى رواية : « يَمْلَأ زَاوِيَةً مِنْ زَوَايَا جَهَنَّمَ »

(١) آية ٤٧ الحجر .
(٢) آية ٦١ الواقعة .

ودخول أهل الجنة فى طول ستين ذراعا ، وغير ذلك من الأحاديث صريحة فى تغاير النشأتين .

و بذلك يتضح ما ذكره بعض المحققين أن الموت والبعث ابتداء حركة الرجوع إلى الله تعالى والقرب منه لا العود إلى الخلقة المادية ، والجثث الكثيفية الظلمانية التى ليست صالحة للبقاء السرمدى فى الآخرة ، وأنه إنما سمى يوم البعث يوم القيامة لأن فيه يقوم الروح مستغنيا عن هذا البدن الظلمانى الكثيف ، قائما بذاته و بذات أخرى مبتدعة ومنشأة ، والبدنُ الأخروىّ قائم بالروح عكس ما فى الدنيا حيث قام الروح بالبدن الطبيعى فيها ، والتكاليف الشرعية إنما وضعت تمهيدا لذلك ، فإن الغرض منها تكميل النفوس وتخليصها عن هذا العالم و إطلاقها عن أسر الشهوات وقيد الأمكنة والجهات حتى تكون لها السلاطة فى تلك الدار ظاهرةً و باطنةً ، وهذا التكميل والتخليص لايحصلان إلا بتبديل هذه النشأة الداثرة بالنشأة الباقية وهو موقوف على معرفتها والإيمان بها ، وأنها الغاية المقصودة من وجود الإنسان ، وما لم تفت هذه النشأة لاتوجد تلك ، وسَرْمَد البقاء الدنيوى عناء وشقاء .

ومن وجه آخر قد شبه الله سبحانه إعادة الموتى فى النشأة الثانية بإحياء الأرض بعد موتها حيث قال تعالى (وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[١]) ،

(١) آية ٥٧ الأعراف .

وقال : (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ[(1)]) .

فجعل بعث الموتى من القبور ونفخ الأرواح فيهم وعودتهم إلى الحياة كإحياء الأرض الموات بالماء وازدهارها بالنبات وتحركها به ونضارتها بخضرته ، وما ذلك على الله بعزيز ، وهو على كل شيء قدير ، فكيف يستبعده عاقل ؟ بل كيف ينكره بصير .

و بيّن جل شأنه أن النشأة الأولى فى بنى آدم كانت من ماء مهين متدرجة فى بطون الأمهات فى أطوار شتى خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ، وفى آدم عليه السلام كانت من تراب استحال إلى طين لازب، ثم إلى صلصال كالفخار من حمأ مسنون ، ثم سواه الله تعالى بقدرته الباهرة وأعده لنفخ الروح فيه و بعث الحياة فى جسده الإنسانى حتى صار بشرًا سويًّا ثم اجتباه إليه وصار نبيا .

وقد فصل هذه الأطوار فى أبى البشر وذريته فى كثير من الآيات ليقيم الحجة على منكرى البعث كما يشير إليه قوله تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) بعد أن بين لهم بقوارع الحجج قدرته على البعث ، وأنه لا يعجزه من أمره شىء بقوله تعالى : (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) من الأطوار والشؤون والصفات والأحوال .

كما بيّن تعالى أن النشأة الأخرى ليست كالنشأة الأولى ، بل هى نشأة إبداع من التراب لجميع من فى القبـــور لا فرق بين آدم وذريته على غير نحو المعهود فى الأولى وأطوارها المتعاقبة المتدرجة . كما يشير إليه

(١) آية ١١ ق .

قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) وقوله : (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ) وقوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) وقوله تعالى : (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) وقوله تعالى : (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) .

ولا إخالك بعد هذا إلا على يقين من تغاير النشأتين وأن الأولى لم تكن للبقاء السرمدى ، وإنما كانت موطّئة للنشأة الثانية السرمدية ، وأن ذلك يقتضى التغاير لا محالة .

* * *

وأما قوله تعالى : (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) وقوله تعالى : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) فليس فيه دلالة على تماثل النشأتين فى كل شؤونهما وإنما سيق دليلا على أن القادر على الخلق أوّلا قادر على الإعادة ، بل هى أهون عليه فى مدارك العقول لأن من قدر على الأولى التى على غير مثال ودون حصول مواد فهو على النشأة الأخرى المسبوقة بالمثال والأجزاء أقدر وأقدر فكيف يكذب بالنشأة الأخرى من علم النشأة الأولى وعجائبها وأطوارها بالمشاهدة والتعريف . وظاهر أن تماثل النشأتين بالنسبة لقدرة الخالق جل شأنه لايعنى تماثلهما فى الذات وسائر الشؤون ، فافهم ترشد .

الكلام فى أن المُعاد هو المبدأ

أو مثله ونفى القول بالتناسخ

فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان من وجه ويفترقان من وجه آخر ، وإلى الوجهين تشير آيات الكتاب ، ومن هنا قيل المُعاد هو المُبدأ تارة وقيل مثله تارة أخرى ، ولا يلزمه القول بالتناسخ الذى هو محال عند أهل الحق ، لأن ذلك لو لم يكن البدن المحشور مؤلفا من الأجزاء الأصلية للبدن الأول على الوجه المذكور ، وأما إذا كان مؤلفا منه فلا يستحيل إعادة الروح إليه ، وليس ذلك من التناسخ فى شىء ، وإن سمى مثل ذلك تناسخا كما قال المحقق الدوانى كان مجرد اصطلاح فإن الذى دلّ على استحالته الدليل هو تعلق نفس زيد ببدنٍ آخر لا يكون مخلوقاً من أجزاء بدنه الأصلى ، وأما تعلقه بالبدن المؤلف من أجزائه الأصلية نفسها ولو مع تشكلها بشكل مخالف للشكل السابق فهو الذى نعنيه بالحشر الجسمانى ، وكون الشكل والاجتماع للشخص غير الشكل الأول والاجتماع السابق لا يقدح فى المقصود ، وهو حشر الأشخاص الإنسانية بأعيانها ، فإن زيدا مثلا شخص واحد محفوظ وحدته الشخصية من أول عمره إلى آخره بحسب العرف والشرع ، ولذلك يؤخذ شرعا وعرفا بعد التبدل بما لزمه قبله ، فكما لا يتوهم أن فى ذلك تناسخا لا ينبغى أن يتوهم فى هذه الصورة أيضا وإن كان الشكل الثانى مخالفا للشكل الأول كما ورد فى الحديث « يُحْشَرُ المتَكَبِّرُونَ كَأَمْثَالِ الذَّرِّ » ، « وَإِنَّ ضِرْسَ الكافِرِ

مِثْلُ أُحُدٍ » ، « وَإِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ مُكَحَّلُونَ » .

والحاصل أنه لا يعنى بالحشر الجسمانى إلا أن تجتمع الأجزاء الأصلية وتحلها الحياة وإن اختلف التركيب بالشخص ، فزيد هو زيد لغة وشرعا وعرفا ، وكيف يعد مثل ذلك تناسخا أو يوجب مغايرة بين المبدأ والمعاد .

وقد وقع الاتفاق على أنه فى كل عشر سنين يزول جميع أجزاء البدن التى كانت فى أول العمر ويحدث بدن آخر مع أن هذا لا يعد تناسخا بإجماع النافين للتناسخ ومثبتيه ولا يوجب التغاير * هذا ما يؤخذ من الدوانى وغيره .

وفى كتاب [الروح] لابن القيم أن البدن فى هذه النشأة خلق خلقا أمْرِيًّا على وجه شبيه بالروحانيات مجردا عن الامتزاج والتركيب من الأعضاء والأمشاج فلذا كان باقيا دائما لا يقبل الفساد والتغيير ، وفى النشأة الأولى خلق خلقا كونيًّا تقلب فيه من طور إلى طور ومن حال أدون إلى حال أعلى ، والغرض من هذه التطورات والتحولات ، إنما هو التقرب من المبدإ الفعال والكمال اللائق بحال الإنسان وذلك لا يوجد فى العالم الأدنى ، بل فى عالم الآخرة التى فيها الرجعى وفيها الغاية والمنتهى .

فموضوع النشأة الأولى شبيه بالمادة للنشأة الثانية وفترة البرزخ إعداد لقبول صورتها ، وإن قلنا بالإعادة عن عدم فإن تجدد الأمثال مع ما بينها من التناسب والاشتراك فى مبدإ التدبير والتصرف لا ينافى شخصيتها ، ولا أن الأولى كموضوع للثانية .

الفرق بين تعلق الروح بالبدن فى الدنيا
و بين تعلقها به فى النشأة الآخرة

ولما كان تعلق الروح فى النشأة الأولى بالبدن المادى الكثيف المكوّن من الأخلاط الغليظة والطباع المتباينة القابلة للتغير والفساد ، كان تعلقا محدودًا مقدر الآثار متناهى الأحكام حسبما تقتضيه حالة إطلاقه .

وحقيقة هذا التعلق وإن كانت مجهولة لنا جهلا ناشئًا من جهة الروح إلا أن أحكامه وآثاره معروفة محسوسة نظرا لذلك القابل المحسوس والقالب الملموس ، والنفس لارتباطها به وصبغتها بصبغته واحتياجها إليه فى اكتساب علومها ومعارفها وسائر أعمالها وتصرفاتها أصبحت كجزء منه سارية فيه منتهية بانتهائه ، فكما يفسد البدن بخروجه عن نظامه الطبيعى كذلك تفسد النفس بخروجها عن كونها البدنى، وتخلص إلى تعلق روحانى ذى أحكام وآثار مباينة لتلك الأحكام والآثار التى نشاهدها فى نشأة التعلق الأول .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل دور الأكوان ثلاثا : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، ولكل دار أحكاما تختص بها ، وركب الإنسان من بدن ونفس .

وأدار أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعٌ لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه .

وأدار أحكام البرزخ على الأرواح والأبدانُ تبع لها فكما تبعت الأرواح الأبدان فى أحكام الدنيا ، فتألمت بألمها ، والتذت براحتها ، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدانُ الأرواحَ فى نعيمها وعذابها ، والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم ؛ فالأبدان فى دار الدنيا ظاهرة ، والأرواح خفية فى أبدانها ، والأرواح فى البرزخ ظاهرة ، والأبدان خفية فى قبورها ، تجرى أحكام البرزخ على الأرواح فتسرى إلى أبدانها نعيما وعذابا كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى أرواحها نعيما وعذابا .

وفى الدار الآخرة أدار أحكامها على الأرواح والأبدان معا لأن الأبدان من جنس الأرواح ولهذه المجانسة كانت الصلة بين الأرواح وأبدانها فى دار القرار أتم وأكمل منها فى دارى الدنيا والبرزخ .

وقد علمت أن نور الحياة وإشراقها عند رد الروح إلى البدن وتعلقها به فى نشأة البرزخ أتم وأكمل منهما فى النشأة الأولى، وإن كان أثر هذا محسوسا وذاك غير محسوس ، فإن الإحساس بالشىء غير وجوده وكماله ، وقد نصوا على أن وجود الأرواح فى أنفسها أقوى وأكمل من وجود الأشباح وأن آثارها أبهر وأتم من آثارها، ومع ذلك هذه ترى وتحس وتلك ليست كذلك، وهاهوذا وجود الله تعالى الذى هو أتم وأكمل من كل وجود ، بل هو مصدر سائر الوجودات لايرى فى هذه الدار ولا يحس وتلك مع ضعفها وإمكان وجودها محسوسة مشهودة .

رؤية الله فى الآخرة

بعيون أخرى غير العيون الدنيوية

وكذلك فى دار الآخرة لا يُرَى جل شأنه ولا يحس إلا بعيون مخلوقة له ومجلى لائق باستعداد الرائى كما نقله الآلوسى عن بعض المحققين فى تفسير قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [١]) فإذا رفع الحجاب بينه تعالى وبينهم ينظرون إليه وينظر إليهم عز وجل، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية فيرونه سبحانه، لكن لا من حيث ذاته البحت، ولا من حيث كل تجلٍّ حتى تجليه بنوره الشعاعى الذى لا يطاق، بل بتجلٍّ مطاقٍ لهم وملائم لاستعدادهم وهذا الحجاب على ما قال السادة الأول من قِبَلهم لا من قِبَله وأنشدوا :

وَكُنَّا حَسِبْنَا أَنْ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ ... وَأَنَّ حِجَابًا دُونَهَا يَمْنَعُ اللَّثْمَا
فَلَاحَتْ فَلَا وَاللهِ مَا ثَمَّ حَاجِبٌ ... سِوَى أَنَّ طَرْفِي كَانَ عَنْ حُسْنِهَا أَعْمَى

وهذا الحجاب غير الحجاب المشار إليه فى حديث : « حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ » وحديث : « إِنَّ لِلَّهِ دُونَ الْعَرْشِ سَبْعِينَ حِجَابًا لَوْ دَنَوْنَا مِنْ أَحَدِهَا لَأَحْرَقَتْنَا سُبُحَاتُ وَجْهِ رَبِّنَا » .

وفى اللسان : وسبحات وجه الله أنواره وجلاله وعظمته التى تحجب العباد عنه، ولو انكشف شىء منها لأحرق كل من وقع عليه ذلك النور كما خرّ

(١) آية ٢٢ — ٢٣ القيامة .

موسى على نبينا وعليه السلام صَعِقاً وتقطع الجبل دَكّاً لما تجلّى له الله سبحانه وتعالى فى هذا النحو من التجلى . فالحجاب المطلوب رفعه حجاب الخلق كما أن الحجاب المستور عنهم حجابه الخاص، وهو حجاب السُبُحات والنور، والحجاب المطلوب بقاؤه لتمكن رؤية ذاته تعالى فى عَرَصات القيامة، والجنة حجاب التنزل والتجلى المطاق لهم، بل هو المرئى للخلق بالذات دون بَحتِ الذات، إذ لا معنى لرؤية ذاته تعالى عند المحققين إلا رؤية حجابه، كما أنه لا معنى لرؤية ذواتنا إلا رؤية ألوانها وأضوائها فهو للذات العلية بمنزلة حجاب الألوان والأضواء فى الحوادث . لا تبصر إلا بها ورؤيتها رؤية موضوعاتها .

المطلب الثالث

فى معنى الحياة والموت

وفيه مباحث :

المبحث الأول

فيما يطلق عليه اسم الحياة

اعلم أن اسم الحياة جاء لعدة معان كلها ترجع إلى صفة فى الحىّ، تمثل معنى ظهوره وكمال وجوده وتستتبع من الآثار فى كل نوع ما يليق بمرتبة وجوده : فحياة الأرض المشار إليها بقوله تعالى (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) وبقوله جل شأنه :

(فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) تمثل معنى ظهورها وكمال وجودها وتستتبع من الآثار مايليق بها .

وكذلك حياة النبات والحيوان والإنسان .

وحياة كل نوع من تلك الأنواع تغاير حياة النوع الآخر منها ، فحياة الأرض غير حياة النبات والحيوان ، وحياة النبات غير حياة الحيوان ، وحياة الحيوان غير حياة الإنسان ، وحياة كل صنف من أصنافها مغايرة لحياة الصنف الآخر ، وحياة المادّى الكثيف غير حياة الروحانى اللطيف ، وحياة الدنيا غير حياة البرزخ ، وحياة البرزخ غير حياة الآخرة ، بل وحياة أفراد النوع الواحد قد تكون متغايرة لأسباب طارئة كحياة الصحة فإنها غير حياة المرض ، وحياة الأمن غير حياة الخوف ، وحياة الشجاعة غير حياة الجبن ، وحياة الفرح غير حياة الحزن ، وحياة الجوع غير حياة الشبع ، وحياة الإغماء أو السكر غير حياة الإفاقة ، وحياة النوم غير حياة اليقظة غيريّة تستتبع فى تفاوتها وتفاصيل آثارها تنوع العوالم واختلاف القوابل ومؤثراتها المتفاوتة .

ومع ذلك فحقيقة الحياة كحقيقة الروح من الأسرار الخفية التى تمثّل للعقول بالرسوم والآثار ، شأن الحقائق الغامضة ، يعبر عنها تارة بأسبابها ، وتارة بنعوتها وآثارها ، ولذا اختلف التعبير عنها ، ولكل قوم لهجة فى بيانها : فاللغوى يطلقها ويريد منها تارة ماقابل الموت كما قال تعالى : (خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) وتارة يعنى بها الرزق كما يقال : أحيا الأمير الجند : أى رزقهم ، وأحيا الطائر فرخه رزقه : أى حمل إليه ما ينتفع به

من الغذاء ، وقوله تعالى (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) أى نرزقه رزقا حلالا ، والحى من النبات ما كان طريًّا يهتز ، والحى المسلم ، ومنه قوله تعالى (وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ) والحى الشهيد كما قال تعالى (وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وأرض حيّة مخصبة كما ورد « مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَلَهُ فِيهَا أَجْرٌ » وأحييتُ النار نفخت فيها حتى تحيا إلى غير ذلك مما جاء فى موارد اللغة والسنة والكتاب .

ونقل الآلوسى عن بعض المتكلمين أن الحى فى أصل اللغة كل شىء كان كاملا فى جنسه ؛ ألا يرى أن عمارة الأرض الخربة تسمى إحياء الموات ، والصفة المسماة فى عرف المتكلمين حياة إنما سميت بها لأن كمال الجسم أن يكون موصوفاً بها فلا جرَم سميت تلك الصفة حياة ، وكمالُ حال الأشجار أن تكون مورقة خضرة فلا جرَم سميت هذه الحال حياة .

فالمفهوم الأصلى من الحىّ كونه واقعاً على أكمل أحواله وصفاته وذلك لا يتم فى الله إلا أن يكون كاملا على الإطلاق ، والكامل كذلك لا يكون قابلا للعدم لا فى ذاته ولا فى صفاته الحقيقية أو السلبية أو الإضافية اه .

والمراد الإضافية التى يوجب سلبها عنه نقصا فى حقه تعالى . فصفة الحياة على هذا المعنى فى حقه تعالى تساوق وجوب الوجود .

والمتكلم يعبر عنها فى الحادث بالصفة الوجودية القائمة بالذات المستتبعة للحس ، والحركة ، أو المصححة لمن قامت به العلم ، وفى الله صفة وجودية حقيقية قائمة بذاته لا يدرك كنهها ، ولا تعلم حقيقتها كسائر صفاته جل شأنه .

والطبيعى يطلقها تارة على القوة التابعة للاعتدال النوعى التى تفيض عنها سائر القوى الحيوانية ، وتارة يطلقها على قوة التغذية ، أو قوة الحس ، أو قوة تقتضى الحس والحركة ، وتقدم عن الحرث بن أسد المحاسبى أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية ، وأن العقل للنفس بمنزلة الحياة للجسم ، فيقال : نفس حية : أى ذات حياة ، أى غريزة بها يتهيأ الإنسان لإدراك العلوم النظرية .

والحكماء يطلقون اسم الحياة على حياة التغذية والتنمية والتوليد ، ثم حياة الحس والحركة ، ثم حياة العلم والتمييز ، ثم حياة الصورة الكمالية التى هى النفس النباتية والنفس الحيوانية والنفس الإنسانية ، وبهذا المعنى الأخير يعرفونها كما يعرفون النفس بأنها كمال أول لجسم طبيعى إلى آخر ما تقدم[1] .

كل هذه المعانى يطلق عليها اسم الحياة إما حقيقة أو على ضرب من التأويل.

والمعنى المبحوث عنه هنا هو الحياة التابعة لتعلق الروح الإنسانى بالبدن وأجزائه ، وهى المعبر عنها فى تعريف النفس بالضوء المنتشر فى قول الإمام الرازى وغيره ، والنفس عبارة عن جوهر مشرق روحانى إذا تعلق بالبدن حصل ضوءه فى جميع الأعضاء ، فذلك الضوء المنتشر هو الحياة الإنسانية ، فالحياة أثر فائض عن تعلق الروح بالبدن منتشر فى سائر أعضائه انتشار ضوء الشمس فى الهواء والأرض والماء . فالنفس كالشمس ، والحياة كالنور الفائض عنها ، فكما أن كل جسم وصل إليه نور الشمس تحول من الظلمة إلى الضوء ، فكذلك كل عضو يصل إليه نور الروح يتحول من الجمادية إلى الحياة .

(١) راجع ص ١٣ .

ففى النشأة الأولى إذا تكوّن البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله تعالى : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ) أنفذ الله فيه الروح الإلهى داخل أعضائه نفاذ النار فى الفحم والماء فى الورد فأحياه بعد موته وذلك قوله تعالى (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى) فإن النفخ عبارة عن اشتعال نور الروح فى الجسم بعد تسويته باستعداده كما تقدم وذلك النور المنتشر فى سائر الأعضاء هو الحياة الإنسانية .

وفى النشأة الثانية : إذا أذن الله للروح أن تعود إلى بدنها بعد إمساكها عادت إليه واتصلت به فأشرق ضوءها على كل جزء منه ، وذلك الضوء المتصل بأجزاء البدن هو الحياة البرزخية .

وفى النشأة الثالثة : يوم يبعث الله الخلائق من قبورهم ويُنفخ فى الصور تتعلق كل روح بصاحبها تعلقا سرمديًّا لاينفد ولا يبيد فيشرق ضوءها على أبدانها الروحية إشراقاً أتم وأكمل من الإشراق الأول ، وهذا الضوء الباهر هو الحياة الأخروية .

وقد يطلق اسم الروح على نفس هذا النور كما تطلق الشمس على الضوء التابع لها . وإذا كملت الروح وتغلبت أحكامها على أحكام البدن قَوِى تعلقها به وكل ما يتبعها من الحياة وأنواع التصرفات قوةً يخرج بها البدن عن حدّ الطبيعة ويصير روحانيًّا محضا لايمنعه من الدخول فى المضايق فقد المسام ، ولا يدفعه عن الوصول إلى الحقائق بُعْد المقام .

حياة الجماد وما وقع فيها من الخلاف

واختلف فى نوع الجماد ، هل له حياة خاصة تستتبع نوعا من الشعور بما يصدر عنه لائقا به ؟ قيل : لا ، وكلّ ما ورد فى آى القرآن مسنداً إلى الجماد ، بل وإلى النبات والحيوان الأعجم من التسبيح والتحميد والسجود والركوع والنطق والشهادة والخشية وغير ذلك ، مما لا يصدر إلا عن عاقل عالم ، فعلى ضرب من التأويل والتجوّز . وقيل : نعم فقد نقل الآلوسى عن بعض المحققين فى تفسير قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ[1]) أن لكل شىء حياة وعلما لائقين به ، ولا يطلع على حقيقة ذلك إلا اللطيف الخبير . فكل ما فى العالم حى عالم ، لكنه متفاوت المراتب فى العلم والحياة .

ونقل الشعرانى عن شيخه الخواص أنه قال : كل جماد يفهم الخطاب ويتألم كما يتألم الحيوان .

وقال الشيخ الأكبر قدّس سرّه : إن المسمى بالجماد والنبات له عندنا أرواح بطنت عن إدراك غير أهل الكشف إياها فى العادة ، فالكل عندنا حىّ ناطق غير أن هذا المزاج الخاص يسمى إنساناً لاغير بالصورة ، ووقع التفاضل بين الخلائق فى المزاج والكلّ يسبح الله تعالى كما نطقت به الآية (وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) ولا يسبّح إلا حىٌّ عاقل عالم عارف بمسبَّحه ، وقد ورد أن المؤذن يشهد له مدى صوته كل شىء من رطب ويابس ، والشرائع والنبوات

(1) آية ٤٤ الإسراء .

مشحونة بما هو من هذا القبيل ، ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشف إلى آخر ما قال .

واستأنس له بعضهم فى هذا المقام بماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى دعائه للحمى « يَا أُمَّ مِلْدَمٍ إِنْ كُنْتِ آمَنْتِ بِاللهِ تَعَالَى فَلَا تَأْكُلِى اللَّحْمَ وَلَا تَشْرَبِى الدَّمَ وَلَا تَفُورِى فى الفَمِ وَانْتَقِلِى إِلَى مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَعَ اللهِ تَعَالَى آلِهَةً أُخْرَى ، فَإِنِّى أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَاشَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه ضرب الأرض بالدرة حين تزلزلت وقال لها إنى أعدل من عليك ، وغير ذلك من الأخبار .

وظاهر أنه لا أحد يقول : إن شعور الجمادات كشعور الحيوانات أو حياتها كحياتها الظاهرة بحيث يدركها كل أحد حتى يكون العمل بظاهر هذه الأخبار خلاف حس العقلاء فيجب ارتكاب التأويل والتجوز ، بل هو نوع من الحياة والشعور لائق باستعداد قابله .

ومن علم عظم قدرة الله تعالى وأنه سبحانه لايعجزه شىء ، وأن المخلوقين على اختلاف مراتبهم لاسيما المنغمسين فى أوحال العلائق والعوائق الدنيوية والمسجونين فى سجّين الطبيعة الدنية لم يقفوا على عشر العشر مما أودع فى عالم الإمكان ، ونقش بيد الحكمة على برود الأعيان - سلّم ما جاء به الصادق عليه الصلاة والسلام ، وإن خالف ماعنده نسب القصور إلى نفسه ، فرب فكر يظنه المرء حقاً وهو من الأوهام ، كما لايخفى على من أنصف ولم يتعسف .

وقد تقرر فى الأصول أنه يجب العمل بالظواهر المتضافرة ، ولا تصرف عن ظواهرها إلا لقاطع ، ويؤيده ما ذكره ابن القيم فى كتاب [الروح] حيث قال : وقد جعل الله فى الجمادات نوعا من الشعور والإدراك تسبّح به ربها وتسقط الحجارة من خشيته ، وتسجد له الجبال والشجر ، ويسبّحه الحصى والماء والنبات، قال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ[1]) وليس التسبيح هو مجرد دلالتها على الصانع كما قيل ، لأنه لو كان كذلك لم يقل «ولـكن لاتفقهون تسبيحهم» فإن كل عاقل يفقه دلالتها على الصانع ، وقال تعالى (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ[2]) والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين ، وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ)[3] . والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس ، وقد كان بعض الصحابة يسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل ، وسمعوا حنين الجذع اليابس فى المسجد . ـ هذا ـ

وإذا كانت هذه الأجساد فيها الإحساس والشعور فالأجسام التى فيها الروح والحياة أولى بذلك ، بل أولى ثم أولى ، لأن الروح التى هى السبب فى إفاضة نور الحياة والحس والحركة تردُّ إلى أبدانها وتتعلق بها نوعا من التعلق أقوى وأكمل

(١) آية ٤٤ الإسراء . (٢) آية ١٨ صۤ .
(٣) آية ١٨ الحج .

من التعلق الأول ، فلا جرَم تـكون الحياة التابعة لهذا التعلق أتم وأقوى شعورًا من الحياة الأولى وإن لم نحس بها فى هذه النشأة .

ثم روح الجماد مغايرة لروح الإنسان مغايرة كلية ، لأن هذه جوهر منزل من عالَم الأمر، وتلك عرَض متقوِّم بغيره من عالَم الخلق ، فلا تنافى بين ما تقدم من اختصاص النفس الناطقة بنوع الإنسان وبين ثبوت روح للجماد .

إعادة الله الحياة للأبدان بعد موتها فى عالم الدنيا

وفى كتاب [الروح] لابن القيم ، وقد أشهد الله عباده فى هـذه الدار إعادة الحياة الكاملة إلى بدن قد فارقته الروح ، فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ »[1] وهم قوم من بنى إسرائيل وقع الطاعون ببلادهم فهربوا منه فأماتهم الله ، ثم أحياهم بدعاء نبيهم حِزْقيل عليه السلام فعاشوا دهرا ، (أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[2] والذى مر على هذه القرية هو العُزَير بن شرخيا كما أخرجه الحاكم :

(١) آية ٢٤٣ البقرة . (٢) آية ٢٥٩ البقرة .

مرّ على بيت المقدس وهو متخرب ، وكان راكبا على حمار ومعه سلّة تين وقدحُ عصير ، فقال : استعظاماً لقدرة الله تعالى أنَّى يحيي هـذه الله بعد موتها ، وكالذين قالوا لموسى (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) وهم الذين خرجوا مع موسى ليعتذروا إلى الله من عبادة العجل ، فقالوا : (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ) ثم أحياهم الله بعد موتهم لعلهم يشكرون ، وكأصحاب الكهف ، وكقصة إبراهيم عليه السلام فى الطيور الأربعة .

فإذا أعاد الله الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة برزخية غير مستقرة وغير هذه الحياة يقضى بها أمره فيها ويستنطقها بها و يعذبها و ينعمها بأعمالها ، وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب اهـ بزيادة و إيضاح .

المبحث الثانى

فى معنى الموت

قد علمت معنى الحياة المبحوث عنها ، وأنها تكون دنيوية وبرزخية وأخروية والموت يقابلها فيما عدا الأخير .

وقد اختلفت عباراتهم فى بيان معنى الموت « فمنهم » من رسمه بأنه وصف وجودى يضادّ الحياة « ومنهم » من رسمه بعدم الحياة عما من شأنه أن يكون حيا « ومنهم » من عرّفه بفساد بنية الحياة وتعطل القوى والآلات البدنية تعطلا

كليا ، أو انطفاء الحرارة الغريزية ، أوخروج الروح من البدن ومفارقتها إياه كليا إلى غير ذلك من العبارات التى تنبىء عن مفهومه ولوازمه .

وكلها تستلزم انقطاع التعلق الذى كان بين الروح والبدن ، و بطلان الحياة التابعة له كما قال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) وإمساكه سبحانه التى قضى عليها الموتَ و بطلان الحياة التابعة له لا ينافى ردّ الروح إلى جسد الميت ردًّا يوجب له نوعا من الحياة غير الحياة المعهودة ، فيكون حيا بحياة روحية برزخية ، ميتا ببطلان حياته المحسوسة المادية الدنيوية .

وتقدم أن موت النفوس المشار إليه بهذه الآية وآية (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) ونحوها معناه مفارقتها لأجسادها وخروجها عنها لا أنها تعدم وتضمحل كما تعدم الأبدان ، وفى الحقيقة تفسير موت النفوس بالمفارقة المذكورة تفسير باللازم، و إلا فموت النفوس كما يشير إليه كلام ابن القيم وغيره هو فساد وجودها الجسمانى وخروجها عن كونها البدنى وتخلصها إلى تعلق روحانى ، فإن النفس لها فى ذاتها كون ذاتى روحانى ، وحين تعلقها بالبدن وارتباطها به وصبغتها بصبغته حتى تصير كجزء منه لها كون عرضى مادى، فكما أن موت البدن فسادُه بخروجه عن نظمه الطبيعى وتأليفه البدنى ، كذلك موت النفس فسادها بخروجها عن كونها البدنى وتخلصها إلى تعلق روحانى ذى أحكام وآثار مباينة للأحكام والآثار التى تشاهد فى نشأة التعلق الدنيوى ، و باعتبار هذا الوجود الروحانى تبقى حية عالمة حتى تردَّ إلى جسمها للنعيم أوالعذاب، وتتعلق به تعلقاً يستتبع نوعاً من الحياة غير الحياة المعروفة ، كما دلت عليه النصوص الصريحة .

وقد نصوا على أن البِنْية ليست شرطا عند أهل السنة فى قيام صفة الحياة ومايتبعها بمحالّها كما يدل عليه قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى؟ قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى ! وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) جعل الله سبحانه وتعالى كل واحد من تلك الأجزاء والأبعاض حيًّا قادراً على السعى والحركة ، وإذا كان هذا فى الحياة الدنيوية ومايتبعها من الحس والحركة فما بالك بالحياة البرزخية ؟ لاريب أنها كما تقوم بالأجزاء مجتمعة تقوم بها متفرقة ، وما أظن أحدا من أهل السنة ، بل ولا من غيرهم يقول باشتراط البنية فى هذه الحياة البرزخية التى لاشعور لنا بها .

المبحث الثالث

فى أن حياة البرزخ حقيقية

وإن كنا لانحس بها

وجمهور السلف على أن هذه الحياة حياة حقيقية كما شرحناه وأنها للروح والجسد وإن كنا لاندركها فى هذه النشأة ، وممن صرح بهذا القول ابن عباس وقتادة ومجاهد والحسن وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء والجبائى والرومانى ، وجماعة من المفسرين ، لـكنهم اختلفوا فى المراد بالجسد بالنسبة إلى حياة الشهداء فقيل : هو هذا الجسد الذى هدمت بِنْيته بالقتل ولا يعجز الله تعالى أن يحل به حياة تـكون سبب الحس والإدراك وإن كنا نراه رِمَّة مطروحة على الأرض ،

لا يتصرف ، ولا يرى فيه شىء من علامات الإحياء ، فقد جاء فى الحديث : « أنّ المَيّتَ المُؤْمِنَ يُفْسَحُ لهُ مَدَّ بَصَرِهِ » ويقال له : « نَمْ نَوْمَةَ العَرُوسِ » مع أنا لانشاهد ذلك ، إذ البرزخ شىء آخر بمعزل عن أذهاننا وإدراكنا ، وقد جعل الله أمر الآخرة وما كان متصلا بها غيبا ، وحجبه عن إدراك المكلفين فى هـذه الدار كما قال تعالى (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ) الروح (الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ـ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ) وقد ورد صحيحاً أن الملك يمد يده إلى الروح ويقبضها ويخاطبها والحاضرون لا يرونه ولا يسمعون ، ثم تخرج فيخرج لها نور كشعاع الشمس ، ورائحة أطيب من ريح المسك ، والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمونه ، ثم تصعد بها الملائـكة ، ثم تأتى فتشاهد غسل البدن وتـكفينه وحمله وتقول : قدمونى قدمونى أو إلى أين تذهبون بى ؟ ولا يسمع الناس ذلك ، وإذا وضع فى لحده وسُوِّى عليه التراب لم يحجب التراب الملائـكة من الوصول إليه ، بل لو نقر له حجر فأودع فيه وختم عليه بالرصاص لم يمنع وصول الملائـكة إليه ، فإن هذه الأجسام الـكثيفة لا تمنع خرق الأرواح لها ، بل الجن لا يمنعها ذلك ، فقد جعل الله الحجارة والتراب للملائـكة والروحانيات بمنزلة الهواء اللطيف ، واتساعُ القبر وانفساحه للروح بالذات ، وللبدن بالتبع فيكون البدن فى لحـد أضيق من ذراع وقد فسح له مد بصره تبعاً لروحه .

وبالجملة : فالشئون البرزخية وأحوالها مغايرة للشئون الدنيوية مرة واحدة ، فقياسها عليها إن لم يكن تقريبا لتدريب العقول قياس فاسد وتمثيـل عاطل ، وحينئذ لامانع من قيام حياة الشهداء بأبدانهم المقتولة .

وقيل : إنها تقوم بجسد آخر على صورة الطير أو على صورة أبدانهم فى الدنيا تتعلق به أرواحهم ، وإن شئت قلت تتمثل أرواحهم فى هذه الصور ، لأن الأرواح فى غاية اللطافة وفيها قوة التجسد والتشكل كما يشعر به ظهور الروح الأمين عليه السلام فى صورة دحية الكلبى رضى الله عنه ، وبهذا يجمع بين الأحاديث الواردة فى أرواح الشهداء وحياتهم وسيأتى له مزيد .

الكلام فى شهداء الحرب ومن ألحق بهم

وفى شرح الشيخ عبد السلام اللقانى على جوهرة والده عند قوله :

وَصِفْ شَهِيدَ الحَرْبِ بِالحَيَاةِ   وَرِزْقُهُ مِنْ مُشْتَهَى الجَنَّاتِ

مانصه : أى اعتقد وجوب اتصاف هيكل شهيد الحرب بالحياة الكاملة لقوله تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وأن حياتهم حقيقية لظاهر الآية ، وأنهم يرزقون كما يشتهون كما ترزق الأحياء بالأكل والشرب واللباس وغيرها ، وشهيد الحرب هو المؤمن المقتول فى حرب الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى بدون مقارفة سبب مؤثم ، ومثله كل مقتول على الحق ، كالمجروح فى قتل البغاة ، وقطاع الطريق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهؤلاء كلهم أحياء حياة حقيقية كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام اه .

لحياة شهيد الحرب ومن ألحق به وهو شهيد الآخرة كالمطعون ، والمبطون ، والمؤذن احتسابا ، والعالم العامل بعلمه ، وحافظ القرآن الملازم لتلاوته العامل

بأحكامه ، ونحوهم ممن نص الشارع على إلحاقهم بشهيد الحرب فى الثواب حياةٌ حقيقيةٌ قائمةٌ بأبدانهم وإن كانت متفاوتة فإنها فى الملحق دونها فى الملحق به .

وشهيد الآخرة لا تجرى عليه أحكام شهيد الحرب فى الدنيا ، فإنه يغسل ويكفن بأكفان الموتى ويصلى عليه بخلاف شهيد الحرب ، فإنه لا يغسل ولا يصلى عليه[1] ويكفن فى ثيابه لقوله صلى الله عليه وسلم : « زَمِّلُوهُمْ بِثِيَابِهِمْ ، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ » أى لفّوهم بثيابهم كان الدم فى الجسد أو فى الثوب ، فلأجل ذلك لا يغسل ولا يكفن بالبياض ، وقيل لمالك أبلغك أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على حمزة ؟ قال : لا ولا أنه صلى على أحد من الشهداء .

وحاصل ما فى المقام أنهم اتفقوا على أن حياة الأنبياء عليهم السلام حياة حقيقية قائمة بأبدانهم الأصلية ، وأنها أتم وأكمل من حياة الشهداء . واختلفوا فى حياة غيرهم من الشهداء ومن ألحق بهم ممن ورد فى حقهم أنهم أحياء ، هل حياتهم قائمة بأبدانهم الأصلية أو بأبدان أخرى ؟ والحق أن حياتهم حقيقية وأنها قائمة بأبدانهم ، وكون أرواح الشهداء أو غيرهم فى حواصل طيور خضر ، أو فى أمثال روحانية على صورة أبدانهم لا يمنع قيام الحياة بأبدانهم لاتصال أرواحهم بها مع كون مَقرِّها تلك الحواصل أو الأمثال ، فإن هذه الحواصل والأمثال ، كسيب الروح لا تمنع من اتصالها بالبدن الأصلى .

---

(١) اختلف فى الصلاة على الشهيد ، فذهب أبو حنيفة وأصحابه والثورى والمزنى والحسن إلى أنه يصلى عليه ، وذهب المدنيون والشافعى وأحمد إلى أنه لايصلى عليه ، وقال فى منتقى الأخبار : وقد رويت الصلاة بأسانيد لم تثبت اه .

بل قيل : وليس ببعيد إن جميع الموتى لا فرق بين شهيد وغيره أحياء لاتصال أرواحهم بأبدانهم الأصلية نوعاً من الاتصال يوجب لأبدانهم هذه الحياة الغيبية البرزخية ، وإن كانت تلك الحياة متفاوتة ، ففى الأنبياء أتم منها فى الشهداء ، وفى الشهداء أتم منها فى غيرهم على تفاوت فى ذلك الغير ، والانقطاع الكلى الذى حصل بالموت إنما هو انقطاعها عن البدن برفع التعلق الذى كان اقتضاؤه من قِبَل الروح والبدن جميعا ، والتعلق البرزخى إنما هو من قِبَل الروح فقط وليس للبدن فيه اقتضاء ، فيجوز أن ينقطع كلّيا ثم يعود من قِبَل الروح ، فيكون البدن حيا بعودته ، ولا يكون حيا عند عدمها ، ويجوز أن ينقطع جزئيا مع نوع اتصال بالبدن ، فيكون البدن بهذا الاتصال الجزئى حيًّا حياةً برزخيةً دون حياته عند عودة الروح إليه لاستيفاء الجزاء الأول ، كاتصال الروح بالبدن حال النوم الذى تتوفى فيه الروح فتفارق البدن مفارقة جزئية مع كونها متصلة به اتصالا يحفظ عليه حياته الحسية .

الحياة البرزخية ليست ثابتة مستقرة فى كل بدن

وعلى هذا فالحياة البرزخية التى يقتضيها الجزاء نعيما وعذاباً ليست ثابتة مستقرة لكل بدن ، بل قد وقد حسبما يأذن الله تعالى بردّ الروح إلى البدن طبقا لما فى علمه القديم الذى لا اطلاع لنا عليه ، إلا من طريق الوحى على لسان من لا ينطق عن الهوى .

وهذا فى غير الأنبياء والشهداء ، أما حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

فثابتة مستقرة باتفاق ، وقد جاء فى الحديث « أَنْبِيَاءُ اللهِ لاَ يَمُوتُونَ وَلَٰكِنْ يُنقَلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ »[1] .

وذكر الآلوسى عن بعض مشايخه أن الموت ليس بعدم محض بالنسبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم موجودون أحياء وإن لم نرهم ، وأنه إذا نفخ نفخة الصعق صعق كل من فى السماء والأرض وصَعْقَةُ غير الأنبياء مَوْتٌ وصعقتهم غَشْىٌ ، فإذا كانت نفخة الصور عاش من مات وأفاق من غُشِىَ عليه ، ولذا وقع فى الصحيحين « فَأَنَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ » اهـ .

وهذا لا ينافى أن الأنبياء يموتون وتنزع أرواحهم من أبدانهم فى الدنيا كما تنزع الأرواح من أبدان غيرهم ، وإنما الذى اختصوا به مع حفظ أجسامهم عن التفرق والبِلَى كما ورد أن الأرض لا تأكل أجسادهم ـ أن أرواحهم مع كونها فى علّيين متصلة بأبدانهم دائما بحيث لا ينقطع شعاعها عنها ولا تفارقها الحياة المستمدة من أنوار أرواحهم الباقية الساطعة ، فحياتهم البرزخية وسَطٌ بين حياتين ، ونورٌ جامعٌ بين طرفين ، وسرٌّ من أسرار الكون ، يحمل أعباء نبواتهم الدائرة حول مركز نبوة خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام .

وقد علمت أن أرواحهم مغايرة لسائر الأرواح وأن لها من المواهب اللدنية ، والنعوت الذاتية والقوى الملكية والبشرية ما ليس لغيرها من الأرواح ، وبقدر مالها من تلك المواهب والقُوَى يكون إشراقها على أبدانها ، وإفاضة أنوار

(١) ولذا قال صلى الله عليه وسلم وهو محتضر « اللهم الرفيق الأعلى » .

الحياة وآثارها ، ولتجردها فى البرزخ يكون أمر التعلق أتم وأكمل ، وآثاره أقوى وأقوم .

وأما حياة الشهداء فقد علمت ما فيها، وأنها لنفس أبدانهم أو لأبدان أخرى تتعلق بها أرواحهم .

والحق الأول فهى حياة مستقرة ثابتة كحياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن كانت دونها قوةً وأثراً للفرق الواضح بين أرواح المعصومين وغيرهم ، وأين الثَّرى من الثُّريا ، وأنوار السُّرُج من أضواء الشموس ؟ ! وقد علمت حياة غيرهم وأنها تابعة لإعادة الروح إلى البدن وتعلقها به، إنْ وقتاً فوقتاً ، وإنْ دائما فدائما حسبما هو متاحٌ لهم ، ولا يعلم كُنْه ذلك ولا يقف على تفاصيله إلا مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير .

واختار المحقق الآلوسى القول بأن أرواح الشهداء بل وغيرهم متعلقة بأبدان أخرى غير أبدانهم الأصلية ، وأن أرواح الشهداء ثبت لها هذا التعلق على وجه يمتازون فيه عمن عداهم إما فى أصل التعلق أو فى نفس الحياة أو نفس المتعلق به مع ما ينضم إلى ذلك من البهجة والسرور والنعيم اللائق بهم[1] اهـ .

وفيه أن هذا القول مع كونه خلاف ما ذهب إليه الجماعة يلزمه إما وقوع العذاب والنعيم على بدن آخر لم يقترف حسنة أو سيئة أو عدم فائدة التعلق به إن قلنا إن المعذب والمنعم فى البرزخ هو الأرواح فقط أو هى مع أبدانها الأصلية .

(١) راجع تفسيره فى سورة البقرة لقوله تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون) .

نعم إن قلنا تتعلق بها أو تتمثل بنفسها صورة فى البرزخ وأحيانا قد تعود إلى جسمها الذى كانت فيه عند العذاب أو النعيم ، وتعلقها بالبدن الآخر أو تمثلها أحيانا إنما هو لأمر آخر لا يمنع من وصول النعيم إلى بدنها الأصلى فلا مانع من هذا القول[1] .

وقد علمت مذهب الجمهور وأنه لامانع من تعلق الأرواح بأبدانها الأصلية مهما تفرقت أجزاؤها ، وأن العذاب والنعيم تارة يقع على كل منهما ، وتارة يقع على الأرواح فقط ، وأنه لامانع من أن يقال إن نفس هذا التعلق البرزخى عند ردِّ الأرواح إلى أبدانها وإفاضة نور الحياة على أجزائها يورثها نشأة أخرى بها تكون الأجزاء الأصلية صالحة لقبول العذاب والنعيم ، وعلى هذا الشكل اللائق بهذا الموطن إذ لو كانت الأجزاء الأصلية باقية فى هذه الحالة على نشأتها الأولى لَمَا قبلت ولا أطاقت العذاب والنعيم البرزخى ، وحينئذ لاداعى إلى القول بتعلق الأرواح ببدن برزخى مغاير لهذا البدن الكثيف .

المبحث الرابع

فى امتياز الأنبياء بأحكام فى حياتهم البرزخية

ومعلوم أن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحكاما يمتازون بها ، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء ولقى فيها سيدنا

(١) هذا القول مجرد احتمال ولا يخفى بعده .

موسى عليه السلام كما فى حديث فرض الصلاة ، وقد أخبر أنه : « مَامِنْ مُسْلِمٍ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إلاَّ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ » إلى غير ذلك مما يحصل من جميعه القطع بأن للأنبياء ميزة على غيرهم فى هذه الأحكام ، وأن موتهم إنما هو راجع إلى أنهم غُيِّبُوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء كما تقدم .

وقد نصوا على أن شئون الأرواح مع أبدانها فى البرزخ تختلف باختلاف قوتها وضعفها وصغرها وعظمها فللأرواح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها كما أن شئون الأرواح فى الدنيا تتفاوت حسب تفاضلها فى كيفياتها وإبطائها وإسراعها ، والمعاوقة لها وعدم المعاوقة ، فللروح العالية المطلقة من التصرف وقوة النفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله تعالى والتعلق به ما ليس للروح المقيدة المحبوسة فى علائق البدن وعوائقه .

وروح المصطفى صلى الله عليه وسلم فى إطلاقها وكمال ذاتها وقوة إشراقها أعظم الأرواح وأكملها على الإطلاق ، بل هى روح الاستمداد ومظهر الفضل والإمداد ، وكذا أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالنسبة إلى أرواح من دونهم من الأولياء والأصفياء وعامة الخلق فهى أكمل وأفضل من أرواحهم ، فحياتهم فى الدور الثلاث أكمل وأتم وأقوى من حياة غيرهم .

وقد نصوا على أنه صلى الله عليه وسلم لا يزال وهو فى برزخه يتلقى من الله ما يفاض على روحه الشريفة من الرحمات مما لا يحيط به علم ملَك أو بشر ، ولا تزال له الوساطة العظمى فى الوجود ولن تزال ، وأنه لا شىء إلاَّ وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط صلى الله عليه وسلم .

وقد ألف الإمام البيهقى كتابا عظيما فى حياة الأنبياء جمع فيه أدلة كثيرة تدل دلالة واضحة على حياة الأنبياء عليهم السلام وتصرفاتهم فى قبورهم ، وللجلال السيوطى رسالة فى ذلك سماها [أنباء الأذكياء بحياة الأنبياء] وللعلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى المكى الشافعى قصيدة فى حياة الأنبياء وما يتعلق بها أخذا من الأحاديث الواردة فى ذلك — منها :

تواترت الأدلة والنقول ... فما يُحصِى المصنف ما يقول
بأن المصطفى حىٌّ طرِىٌّ ... هلالٌ ليس يطرُقه أفول
وأن الجسم منه بقاع لحَدٍ ... كَوَرْدٍ لا يدنِّسه الذبول
وأن الهاشمى بكل وصف ... جميـلٍ لا يغيِّره الحلول
وأن الدود لا يأتى إليه ... كذا الآفاتُ ليس لها وُصول
ولم تأكل له الغبراء لحما ... ولا عظما وأثبِتَ ما أقول
وتأتيه الملائك كلَّ وقت ... تحييـه وتسمَعُ ما يقول
وتأتيـه بأرزاق حسان ... وبِرٍّ حيث يأمرها الجليل
وصومٌ ثم حجٌّ كل عام ... يجوز عليـه بل لا يستحيل
ويطْهُر للصلاة بماء غَيْبٍ ... ويقضيها بذا ورد الدليل
يصلى فى الضريح صلاة خمسٍ ... دواما لا يَمَلُّ ولا يميـل
كذا الأعمال تُعرَض كل يوم ... عليه كَىْ يسرَّ بها الرسول

ومنها :

ويلقاهم إذا وفدوا عليـه ... وينظرهم إذا ازدحم القُفُول

ويسمعهم إذا صَلَّوا عليه بأذنيه فقصِّر يا مَلُول
ومن لم يعتقد هذا بِطٰه يقينا فهو زنديق جهول

المطلب الرابع

فى مستقر الأرواح فى البرزخ

هذه المسألة من المسائل التى ليس للرأى فيها مجال ، وإنما طريق معرفتها السمع ، وللعلماء فيها أقوال كثيرة ذكرها ابن القيم فى كتاب [الروح] وتكلم على كل قول منها وذكرها غيره أيضا ، وفى هذا المطلب مباحث .

المبحث الأول

فى أن مستقر الأرواح متفاوت

والذى ينبغى التعويل عليه كما دلت عليه الأخبار الصحيحة أن مستقر الأرواح مختلف ومتفاوت . فمستقر أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى أعلى علِّيين فقد صح أن آخر كلمة تكلم بها صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » ودعاؤه مستجاب وإخوانه معه على سُرُر متقابلين وإن تفاوتت منازلهم كما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء .

ومع كونها فى أعلى عليين لهـا اتصال بأبدانهم الشريفة ، وإشراق عليها – كإشراق أشعة الشمس على وجه البسيطة وجِرْمها فى السماء – يحفظ عليها حياتها البرزخية كما يحفظ اتصال الروح ببدن النائم .

وقد تكون أرواحهم مستغرقة فى حضرة الشهود وعالم الملكوت ، وعند مايسلِّم عليها أحد يؤذن لها فتلتفت إليه وهى فى مكانها وتردُّ عليه السلامَ .

وقد تنتقل إلى مقر أبدانها الشريفة كلمح البصر وتردُّ عليه السلام كما هو ظاهر حديث « مَامِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاَّ رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي فَأَرُدُّ عَلَيْـهِ السَّلَامَ » فإن الظاهر منـه ردُّ ذاتها إليه ، ويحتمل ردَّ نظرها ، وليس لنظر الأرواح حدٌّ مقدّرٌ ، بل ما بين السماء والأرض بالنسبة إليها كقاب قوسين أو أدنى .

ومستقر أرواح الشهداء فى الجنة ترد أنهارها وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش كما ورد به الحديث .

وورد فى أرواح أطفال المؤمنين ماهو قريب من ذلك .

وروى ابن عباس عن كعب قال : جنة المـأوى جنة فيها طير خضر ترعى فيها أرواح الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا . ولعل هذا كما قال ابن حبيب فى عوامِّ الشهداء وما تقدم فى خواصهم ، أو لعل هذا فى شهيد الآخرة كالغريق والمبطون ، وما تقـدم فى شهيد الحرب ، ومع ذلك فهذا النهر من الجنة ورزقهم يخرج عليهم منها فهم فى الجنة وإن لم يصيروا إلى مقاعدهم منها .

ومستقر أرواح المؤمنين قيل فى الجنة أيضاً ، وإليه ذهب الإمام الشافعى ، فقد أخرج الإمام مالك عن كعب بن مالك مرفوعا : « إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ

يَعْلُقُ فى شَجَرِ الجَنةِ(١) حتَّى يَرْجِعَهُ اللهُ تعالَى إلى جَسَدِهِ حِينَ يَبْعَثُهُ » أى إنها فى صورة طائر إلى أن تبعث فتخلع هذه الصورة وتلبس صورة البدن ، وروى ابن مَنْده من حديث أم بشر مرفوعا ما هو نص فى أن مستقر أرواح المؤمنين نحو مستقر أرواح الشهداء . وقال وهب بن منبه إن لله فى السماء السابعة دارًا يقال لها البيضاء يجتمع فيها أرواح المؤمنين .

ثم هذا لاينافى ماتقدم من أن أرواح الموتى تتلاقى مع أرواح الأحياء ، وتعود إلى بدنها لرد السلام ونحوه بالصورة التى هى عليها .

وأما أرواح الكفار فمستقرها سِجِّينٌ كما ورد به الخبر الصحيح ، وفى حديث أم بشر « إنَّ أرْوَاحَ الكُفَّارِ فى حَوَاصِلِ طيُورٍ سُودٍ تأكُلُ مِنَ النَّارِ وَتَشْرَبُ مِنَ النَّارِ وَتَأْوِى إلى جُحْرٍ فى النَّارِ ، يقُولُونَ رَبَّنَا لا تُلْحِقْ بِنَا إخْوَانَنَا وَلاَ تُؤْتِنَا مَاوَعَدْتَنَا » .

وقيل : مستقر أرواح الموتى أفنية قبورهم ، وحكى هذا ابن حزم عن عامة أهل الحديث واستدل له بعضهم بحديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذَا مَاتَ أحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ إنْ كَانَ مِنْ أهْلِ الجنَّةِ فمِنْ أهْلِ الجنَّةِ وَإنْ كَانَ مِنْ أهْلِ النَّارِ فمِنْ أهْلِ النَّارِ ، يُقَالُ هٰذَا مَقْعَدُكَ حتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ تَعالَى » وروى أنه صلى الله عليه وسلم حين زار الموتى قال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ » .

---

(١) العلوق : هو الأكل والرعى ، والمأكول هو العلقة بضم العين ، والعلق بالتحريك ، والنسمة : الروح .

ورجح ابن عبد البر أن مستقر أرواح ماعدا الشهداء بأفنية القبور ، ورُدَّ بأنه إن أراد أنها لا تفارق الأفنية فالنصوص على خلافه ، وإن أراد أنها تتردد عليها فلا تكون مستقرها ، وقد يقال : إن المستقر لايقتضى استمرار القارّ ولُبثه فى مقرٍّ بل قد يفارقه لمقتضٍ ويعود إليه ، كالمنزل يسكنه الإنسان فيفارقه لقضاء حوائجه ثم يعود إليه طالت غيبته عنه أوقصرت .

وعوّل بعض المحققين على أن الأرواح – حيث كانت – لها اتصال بأبدانها ، لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى ، وبذلك ترد السلام وتعرف المسلِّم ، ويعرض عليها مقعدها من الجنة أو النار ، وهى باقية فى مستقرها ، وقال بعضهم : لا مانع من انتقالها من مستقرها وعودها إليه فى أسرع وقت حيث شاء الله .

وقالت طائفة : مستقر الأرواح مطلقا فى السماء الدنيا عن يمين آدم عليه السلام وعن شماله ، أخذا بما فى الصحيحين عن أبى ذر من حديث المعراج . وقد أجيب عنه بأن المراد أنه عليه الصلاة والسلام يرى هذين الصنفين من جهة يمينه ومن جهة شماله وهو يجامع كون أرواح كل فريق فى مستقرها من الجنة أو النار ، فقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم الجنة والنار فى صلاة الكسوف وهو فى الأرض ، والجنة ليست فيها ، ورآهما وهو فى السماء والنار ليست فيها .

وفى الإفصاح : أن المنعَّم من الأرواح على جهات مختلفة : منها ما هو طائر فى شجر الجنة ، ومنها ما هو فى حواصل طير خضر ، ومنها ما يأوى إلى قناديل تحت العرش ، ومنها ماهو فى حواصل طير أبيض ، ومنها ماهو فى حواصل طير كالزرازير ، ومنها ما هو فى أشخاص صور الجنة ، ومنها ما هو فى صورة تخلق

من ثواب أعمالهم ، ومنها ما تسرح وتتردد إلى جثتها وتزورها ، ومنها ماتتلقى أرواح المقبوضين وما سوى ذلك منه ماهو فى كفالة ميكائيل عليه السلام ، وماهو فى كفالة آدم عليه السلام ، وما هو فى كفالة إبراهيم عليه السلام انتهى .

قال القرطبي وهو قول حسن : يجمع الأخبار حتى لا تتدافع ، وارتضاه الجلال السيوطى ، وأخرج ابن أبى الدنيا عن مالك قال : بلغنى أن الأرواح مرسلة تذهب حيث شاءت ، وهو وإن صح ليس على إطلاقه .

وذكر أبو عبد الله سيدى محمد عليش فى فتاويه : أن الأرواح بعد مفارقة الأشباح كلها مستقرها البرزخ، وهو شىء عظيم خلقه الله تعالى على هيئة القرن، فيه أثقب بعدد الأرواح ، أسفله ضيق وأعلاه متسع ، كانت فيه الأرواح قبل حلولها فى الأشباح وتعود إليه بعد خروجها منه ، وكلّ روح لها اتصال معنوى بجسدها حيث كانت ، وأرواح المؤمنين لا حرج عليها فتكون بأفنية القبور أى جوانبها من عصر الخميس إلى صبح السبت ، وأرواح الكفار مسجونة فى سِجِّين كما وردت بذلك الأخبار عن النبى المختار صلى الله عليه وسلم .

وقيل فى مستقر الأرواح غير ذلك .

المبحث الثانى

فى أن للأرواح(١) وإن اختلف مستقرها جولاناً فى عالم الملك

والذى ينبغى أن يعول عليه مع ما ذكر أن الأرواح وإن اختلف مستقرها

(١) يريد أرواح المؤمنين وإلا فأرواح غيرهم فى سجين .

بمعنى محلها الذى أعطيته بفضل الله تعالى جزاء عملها ، لكن لها جَوَلانٌ فى ملك الله تعالى حيث شاء جلّ جلاله ، وهى متفاوتة فى ذلك حسب تفاوتها فى القرب والزلفى من الله تعالى ، حتى أن بعض الأرواح الطاهرة لَتظهر فيراها من شاء الله تعالى من الأحياء ، فقد قيل إن بعض أكابر الصالحين كان يزور بعد موته أولاده ويتفقد حالتهم ويقضى حوائجهم — وأن أرواح الموتى تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ، وقد تتلاقى أرواح الأموات والأحياء مناما ، ولاينكر ذلك إلا من يجعل الرؤيا خيالا لا أصل له ، وذلك لا يلتفت إليه ، فقد صح أن ثابت بن قيس بن شماس خرج مع خالد بن الوليد إلى حرب مسيلمة ، فاستشهد رضى الله عنه ، وكان عليه دِرْع نفيسة ، فمرّ به رجل من المسلمين فأخذها ، فبينما رجل من الجند نائم إذ أتاه ثابت فى منامه فقال له : أوصيك بوصية وإياك أن تقول هذا حُلم فتضيعَها ، إنى لما قتلت أمس مرّ بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ، ومنزله فى أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يَستَن(١) فى طِوَله وقد كفأ على الدرع بُرْمة وفوق البرمة رمل ، فأت خالداً فمره أن يبعث إلى درعى فيأخذه ، وإذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له : إن علىّ من الدين كذا وكذا ، وفلان من رقيقى عتيق ، فأتى الرجل خالدا فأخبره فبعث إلى الدرع وأتى بها ، وحدّث أبا بكر رضى الله عنه برؤياه ، فأجاز وصيته وقد ذكر ذلك الحافظ ابن عبد البر وغيره .

وهناك قصص كثيرة مثل هـذه القصة ، وأغرب منها ذكرها ابن القيم

(١) يستن : يعدو لمرحه ونشاطه ، الطول : حبل يشد به قوائم الدابة .

وغيره ، وقد سمعنا من مشايخنا سماعا فاشيا ، أن الشيخ المنوفى رحمه الله شيخ الشيخ خليل بن إسحاق المالكى استمر بعد وفاته زمناً يقضى حوائج أولاده المنزلية ، و بعض الأرواح يحبس فى قبره أو حيث شاء الله تعالى ، كروح من يموت وعليه دين استدانه فى محرّم لا مطلقا كما هو المشهور .

و بالجملة : من تأمل فيما أسلفناه واطلع على الآثار الواردة فى هذا الباب وكان له بها فضل اعتناء عرف أنها حق يصدق بعضها بعضا ، وأنه لا تعارض بينها ، فإن للروح شأنا غير شأن البدن ، وأنها مع كونها فى الجنة فهى فى السماء وفى الأرض تتصل بفناء القبر وبالبدن ، وهى أسرع شىء حركة وانتقالا ، صعودا وهبوطا ، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومسجونة ، وعُلْوية وسُفْلية ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ، ولذة ونعيم ، وألم وعذاب أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن فى الدار التى نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر ، وأسباب السعادة والشقاء ، ومع ذلك كان لها فى هـذه الدار وهى متعلقة ببدنها الأصلى تصرف بأبدان أخرى تفعل بها فوق ما تفعله بالبدن الأصلى كما نص عليه السادة الصوفية وغيرهم .

المطلب الخامس

فى الأولياء وكراماتهم فى الحياة و بعد الممات

وفيه مباحث :

المبحث الأول

فى تعريف الولى شرعا . وتعريف الكرامة . وأدلة ثبوتها للأولياء

الولىّ شرعا : هو العارف بالله تعالى وصفاته حسبما يمكن . المواظب على الطاعات . المجتنب للمعاصى . المعرضُ عن الإنهماك فى اللذات والشهوات الدنيوية ، كما يشير إليه قوله تعالى (أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفى الآخِرَةِ) .

* * *

وقد نص علماء الكلام وغيرهم على أن الكرامة : هى الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله تعالى بلا سبب على يد مسلم كامل العرفان غير مُدَّعٍ للنبوة ، قالوا والكرامة ليست لازمة لكل ولىٍّ ، إذ حقيقة الولى شرعا لا تقتضيها ، وهى عند القوم ليست من المراتب المقصودة ، وقالوا الكرامة جائزة بل واقعة .

واستدلوا على جوازها بأدلة كثيرة :

منها أن وجود الممكنات مستند إلى قدرته الشاملة لجميعها ، فلا يمتنع شىء

منها على قدرته ، ولا شك أن الكرامة أمر ممكن ، إذ ليس يلزم من فرض وقوعها محال لذاته .

وأيضا لو امتنع إظهار الكرامة فذلك إما لأن قدرة الله تعالى لا تصلح للتعلق بالخارق ، وذلك قدح فى شمول قدرته ، وإما لأن المؤمن ليس أهلا له وهو بعيد ، لأن معرفة الله والتوفيق لطاعته أشرف العطايا وأجزلها ، وإذا لم يبخل الفياض بالأشرف فَلَأَنْ لا يبخل بالأدون من باب أولى .

وأيضا إذا أحب العبد ربه وتقرب إليه بالطاعة لا شك أنه تعالى يحبه كما قال تعالى (يُحِبُّهم ويُحِبُّونه) فإذا بلغ العبد فى طاعة ربه مع عجزه إلى حيث يفعل كل ما أمره الله تعالى به فإنه لا بُعْدَ فى أن يفعل الرب مع عظم قدرته وسَعة جوده ولو مرة واحدة ما يريده العبد أو ما يكرمه به ولو لم يرده من الخوارق .

وإذا وقع إعطاء الرب عبده المسيء استدراجا فَلَأَن يعطى عبده الصالح الذى لا يستأنس بكرامته ولا يأمن من مكره ، بل كلما أطاعه وتقرب إليه فأعطاه ازداد خشية منه ورهبة ــ من باب أولى .

ومن هنا قال الحكماء : إن النفس إذا كملت بحسب قوتيها العلمية والعملية تصرفت فى أجسام العالم السفلى كما تتصرف فى جسدها .

واستدلوا على وقوعها بأمور :

منها ــ قصة مريم حيث حملت بلا ذكر ، ووجد الرزق عندها بلا سبب ، وتساقط عليها الرطب من النخلة اليابسة ، وجَعْلُ هذه الأمور معجزات لزكريا

وإرهاصا لعيسى مما لا يقدم عليه منصف ، وإنما هى كرامات لمن ظهرت على يديه ، وإن كانت معجزات مصدقة لنبيه .

ومنها ــ قصة آصف بن برخيا وهى إحضاره عرش بَلْقِيس [١] من مسافة بعيدة فى طرفة عين كما قال تعالى : (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) الآية ، ولم يكن ذلك معجزة لسليمان عليه السلام إذ لم يظهر على يده مقارنا لدعواه النبوة .

ومنها ــ قصة أصحاب الكهف ، وهى أن الله سبحانه وتعالى أبقاهم ثلاثمائة سنة فأزيد نِيَامًا أحياء بلا آفة ولم يكونوا أنبياء إجماعا .

ومنها ــ على ما روى ضرب عمر رضى الله عنه الأرضَ بالدِّرة حين وقعت الزلزلة بالمدينة وقال لها : اسكنى بإذن الله فسكنت ، وكتابتُه على الخرقة حين التهبت النار فى بعض دور المدينة « يا نار اسكنى بإذن الله تعالى » وألقيت فيها فانطفأت فى الحال .

ومنها ــ ما روى أن أبا بكر رضى الله عنه لما حملت جنازته إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ونودى السلام عليك يا رسول الله ، هذا أبو بكر بالباب ، فإذا الباب قد فتح ، فإذا هاتف يهتف على القبر أدخلوا الحبيب إلى الحبيب .

ومنها ــ ماروى أن عمر رضى الله عنه بعث جيشا إلى العراق وأمَّرَ عليه سارية ابن زُنَيم ، فبينا عمر يوم الجمعة يخطب إذ صاح فى خطبته يا سارية الجبلَ الجبلَ فسمع سارية وهو بمكانه وقت خطبته هذا الصياح ورأى شخص عمر هنالك فأسند ظهره إلى الجبل فهزم الله الكفار وظفر المسلمون بالغنائم الجمة ، ذكره ابن خلدون .

---

(١) وفى بعض التفاسير أن الذى عنده علم من الكتاب هو جبريل عليه السلام .

ومنها ما روى عن أنس قال : مررت فى طريق فوقعت عينى على امرأة ثم دخلت على عثمان فقال : مالى أراكم تدخلون علىّ وآثار الزنى ظاهرة عليكم فقلت : أَوَحْىٌ نزل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا ولكن فراسة صادقة[1] .

ويروى عن كثير من الصحابة مثل هذا ، وفى كتب الصوفية من هذا الباب روايات كثيرة ووقائع مشهودة مشهورة بين الناس فى كل عصر لاينكرها إلا معاند .

* * *

والظاهر أن هذا مفروض مع بقاء الولى على الصورة البشرية وظهور الخارق عنه حال تعلق روحه ببدنه الطبيعى ، فإذا تغلبت روحه على بدنه وانسلاخ عن البشرية أو تمثلت روحه بصورة أخرى حال حياته فلا نزاع فى أنه يظهر على يديه من خوارق العادات ما شاء الله أن يظهر ، لأنها خوارق بالنسبة إلى غيره أو بالنسبة له قبل التغلب ، وكذا الحال إذا فارقت أرواحهم أبدانهم بالموت ، بل هو أولى وأجدر ، فإن الأرواح فى هذه النشأة تكون أتم وأكمل سواء سمى ذلك كرامة أو لم يسم .

وبالجملة : فمتى أذن الله للروح فى شىء لتعلمه أو تفعله خارقا للعادة أوْ لاَتصرفت فيه حسبما هو مأذون لها وما هو مَقْضِىٌّ فى علمه الأزلى مما لايتجاوز حدّ الإمكان الروحى والكسب الإنسانى ، والأولياء كالأنبياء عليهم السلام ،

(١) وهى كرامة أكرمه الله بها .

بل والملائكة والجن وجميع أرواح البشر لا يسعهم أن يستقلوا بخلق فعل من الأفعال ضرًّا أو نفعا ، موتاً أو حياةً كما يخلق الله تعالى ، وإنما لهم المشيئة والكسب والله تعالى هو المنفرد بالخلق والإيجاد كما قال تعالى : (لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ) وقال : (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) فهذا أمر لا نزاع فيه عند المثبتين لكرامة الأولياء وغيرهم . والمعتزلة القائلون بأن العبد يخلق أفعال نفسه لا ينكرون أنها لا تقع إلا بإذنه .

كلام الصوفية فى الفرق بين المجنون والولىّ المجذوب

علم مما تقدم أن الولى شرعا هو العارف بالله تعالى وصفاته حسبما يمكن المواظبُ على الطاعات ، المجتنبُ للمعاصى ، المعرِضُ عن الانهماك فى اللذات والشهوات ، والقومُ قد يطلقونه على المجذوب الذى جذبه الحق إليه ، ولم يحفظ رسم الشريعة عليه لفقده عقل التمييز فهو غير مكلف باتفاق ولا يطلق عليه اسم الولى عند أهل النظر بل هو داخل فى حد المجنون[1] .

(١) ذكر العلامة ابن خلدون فى مقدمته : أن من لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين البهاليل الذين خلقوا من أول نشأتهم على البله وفقدوا العقل الذى يناط به التكليف ، وهم أشبه بالمجانين وليسوا منهم لأنهم لم يفقدوا نفوسهم الإنسانية ، بخلاف المجانين فإنهم فقدوها ، ولذا التحقوا بالبهائم ، ولالتزامهم وجهة لايخلون عنها أصلا من ذكر أو عبادة لكن على غير الشروط الشرعية لعدم تكليفهم ، بخلاف المجانين فإنهم لاوجهة لهم أصلا ، ولأنهم كثيرا مايتصرفون فى الناس بخير أو شر لعدم توقفهم على الإذن لكونهم غير مكلفين ، بخلاف المجانين فإنهم لاتصرف لهم أصلا . ويقع للبهاليل من الأخبار عن المغيبات عجائب ، وإنما يعرفهم من يفهم عنهم من أهل الذوق والوجد .

والفرق بينه وبين المجنون أن هذا مسلوب معوَّض فهو فاقد واجد ، أى فاقدٌ نور العقل والتمييز فى مشهد ، واجدٌ له فى مشهد آخر ، والمجنون مسلوب غير معوَّض .

والجذب كالجنون يكون متقطعًا فيكلف صاحبه فى وقت دون وقت ، ومطبقا فلا يكلف صاحبه أبدًا وظهور الخوارق على يد المجاذيب أكثر من ظهورها على يد الولى الشرعى الكامل ، وتقدم أن الكرامة ليست لازمة لكل ولى ، وأنها عند القوم ليست من المراتب المقصودة .

كرامة الولى معجزة للنبى

ثم الكرامة التى تظهر على يد الولى تكون معجزة للرسول الذى ظهرت هذه الكرامة على يد ولىّ من أمته ، لأنه يظهر بها صدقه فى ولايته ، وصدقه فى ولايته يستلزم صدقه فى ديانته التى هى الإقرار باللسان والتصديق بالقلب برسالة رسوله والمتابعة له فى أوامره ونواهيه ، وإلا لم يكن وليًّا ، وذلك يستلزم تصديق النبى صلى الله عليه وسلم فى دعواه الرسالة ، وفى كل ما يبلغه عن الله تعالى .

والحاصل أن الأمر الخارق للعادة بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم إذا أظهره الله على يديه يكون معجزة له بغير واسطة ، وإذا أظهره على يد ولى من

= والفقهاء ينكرون عليهم أنهم على شىء من تلك المقامات ، ولكن فضل الله عظيم ، يؤتيه من يشاء من عباده ، ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها ولا على التكليف ، وما دامت نفوسهم موجودة فإن الله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه اهـ ملخصا . والبهاليل : هم المجاذيب فى اصطلاحهم ، وفى اللغة البهلول : السيد الجامع لكل خير .

أمته يكون معجزة له بالواسطة ، وبالنسبة إلى الولى الذى أظهره على يديه يكون كرامة له ومعجزة لنبيه .

وتعريفهم الكرامة والمعجزة بما ظاهره التباين بينهما كليًّا ، إنما هو فى المعجزة والكرامة بدون واسطة لا مطلقا .

* * *

الفارق بين المعجزة والكرامة

ثم لا بد فى خارق المعجزة من قصد النبى صلى الله عليه وسلم إظهاره ، ومن حكمه قطعا بموجبه ، كما أنه لا بد من علمه بكونه نبيا بخلاف الولى فإنه قد لا يعلم أنه ولى وقد لا يقصد إظهار الكرامة ولا يقطع بموجبها ، بل ربما يخاف على نفسه أن يكون ذلك استدراجا .

ونقل العلامة النيسابورى فى تفسيره عن الأستاذ أبى علىّ الدقاق وتلميذه أبى القاسم القشيرى أن للولاية ركنين : « أحدهما » انقياد للشريعة فى الظاهر[1] « والثانى » كونه فى الباطن مستغرقا فى نور الحق ، فإذا حصل هذان الأمران وعرف الإنسان ذلك عرف لا محالة كونه وليًّا ، وعلامته أن يكون فرحه بطاعة الله واستئناسه بذكر الله ، ثم قال : قلت : لا ريب أن مداخل الأغلاط فى هذا الباب كثيرة ودون الوصول إلى عالم الربوبية حُجُب وأستار من نيران وأنوار ، فالجزم بالولاية خطر والقضاء بالمحبة عسر اهـ . وحاصله أنه لا يمكن القطع بالولاية مع احتمال تلك المداخل .

(١) وهذا فى غير البهاليل كما تقدم عن ابن خلدون .

الكرامة لا تدل على كمال الاستقامة

ثم اعلم أن الكرامة لاتدل على كمال الاستقامة ، كما قال ابن عطاء الله فى حكمه [ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة] وإنما تدل على اختصاص صاحبها أى أن الله أراد اختصاصه من أهل طاعته ، فيتعين تعظيمه واحترامه لاتقديمه واتباعه ، إلا أن يظهر عليه كمال الاستقامة ، وهى عند القوم كما قال سيدى أحمد زروق فى شرح الحكم : الاستواء فى اتباع الحق ظاهرًا وباطنا على منهج السداد بلا علة ، فهى إذًا توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ، وإخلاص بلا التفات ، ويقين بلا تردد ، واستسلام بلا منازعة ، وتفويض بلا تدبير وتوكل بلا وهن اه .

فمقام الاستقامة فوق مقام اختصاص الكرامة ، وكلاهما من أوصاف ذوى النفوس المطهرة .

المبحث الثانى

فى أنواع الخارق والسحر

ثم الخارق لايختص بنفوس الأنبياء والأولياء معجزة أو كرامة ، بل قد يظهره الله تعالى على يد غيرهم إرهاصا أو معونة أو استدراجا أو إهانة ، كما هو مذهب أهل الحق فى ذلك ، فقد قسم علماء الكلام الخارق إلى ستة أقسام ، لأنه إن ظهر على يد مسلم وكان مقرونا بكمال العرفان واقترن بدعوى النبوة

فمعجزة ، وإن لم يقترن بها ، وظهر على يد النبى قبل نبوته فإرهاص ، ومن غير النبى فكرامة ، وإن ظهر على يد مسلم ولم يكن مقرونا بكمال العرفان فمعونة ، وهو ما يظهره الله على يد عوامّ المسلمين تخليصا لهم من المحن والمكاره ، وإن ظهر على يد الكافر وكان موافقا لدعواه فاستدراج وإلا فإهانة ، كما روى أن مسيلمة الكذاب دعا لأعور أن تصير عينه العوراء صحيحة فصارت الصحيحة عوراء ، وقد يطلق اسم الاستدراج على ما يطلق عليه اسم المعونة .

ما يصدر عن طائفة الرفاعيين

وفى روح المعانى للعلامة الآلوسى فى تفسير قوله تعالى : (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) مانصه : وما يشاهد من وقوعه لبعض المنتسبين إلى حضرة الولى الكامل الشيخ أحمد الرفاعى قدّس سرّه من الفسقة الذين كادوا يكونون لكثرة فسقهم كفارا ، فقيل إنه من باب السحر المختلف فى كفر فاعله وقتله فإن لهم أسماء مجهولة المعنى يتلونها عند دخول النار والضرب بالسلاح، ولا يبعد أن تكون كفرا وإن كان معها مالا كفر فيه . وقد ذكر بعضهم أنهم يقولون عند ذلك : تلسف تلسف هيف هيف . أعوذ بكلمات الله تعالى التامات من شر ما خلق . أقسمت عليك أيتها النار أو أيها السلاح بحق حى حلى ، ونور سبحى ، ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن لا تضرى أو لا تصرى غلام الطريقة ، ولم يكن ذلك فى زمن الشيخ الرفاعى قدس سره ، فقد كان أكثر الناس اتباعا للسنة وأشدهم تجنبا عن مظانّ البدعة ، وكان أصحابه سالكين مسلكه متشبثين بذيل اتباعه قدس سره ، ثم طرأ على بعض المنتسبين إليه

ما طرأ، قال فى العبر : قد كثر الزغل فى أصحاب الشيخ قدس سره وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات ، وهذا لا يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه ، فنعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم اه .

والحق أن قراءة شىء مّا عندهم ليست شرطا لعدم التأثر بالدخول فى النار ونحوه ، فكثير منهم من ينادى إذا وقدت له النار وضربت الدفوف يا شيخ أحمد يا رفاعى أو يا شيخ فلان لشيخ أخذ منه الطريق ويدخل النار ولا يتأثر من دون تلاوة شىء أصلا . والأكثر منهم إذا قرأ الأسماء على النار ، ولم تضرب له الدفوف ، ولم يحصل له تغير حالٍ لم يقدر على مسِّ جمرة ، وقد يتفق أن يقرأ أحدهم الأسماء وتضرب له الدفوف وينادِى من ينادِى من المشايخ فيدخل ويتأثر .

والحاصل أنا لم نر لهم قاعدة مضبوطة بَيْدَ أن الأغلب أنه إذا ضربت لهم الدفوف واستغاثوا بمشايخهم وعَرْبَدوا يفعلون ما يفعلون ولا يتأثرون ، وقد رأيت منهم من يأخذ زِقّ الخمر ، ويستغيث بمن يستغيث ، ويدخل تنورا كبيرا تضطرم فيه النار فيقعد فى النار ، ويشرب الخمر ، ويبقى حتى تخمد النار ، فيخرج ولم يحترق من ثيابه أو جسده شىء ، وأقرب ما يقال فى مثل ذلك إنه استدراج وابتلاء ، وأما أن يقال إن الله عزّ وجلّ أكرم حضرة الشيخ أحمد الرفاعى قدّس سرّه بعدم تأثر المنتسبين إليه كيفما كانوا بالنار ونحوها من السلاح وغيره ، إذا هتفوا باسمه أو اسم منتسب إليه فى بعض الأحوال فبعيد ، بل كأنى بك تقول بعدم جوازه ، وقد يتفق ذلك لبعض المؤمنين فى بعض الأحوال إعانة

له ، وقد يأخذ بعض الناس النار بيده ولا يتأثر لأجزاء يطلى بها يده من خاصيتها عدمُ إضرار النار للجسد إذا طلى بها فيوهم فاعلُ ذلك أنه كرامة اه .

والضابط لأمثال هؤلاء ما أشرنا إليه فى تنويع الخارق من المعونة والاستدراج والإهانة لأن منهم من له فسق مكفِّر اعتقادا أو عملا ، ومنهم من لم يكن كذلك فما يصدر عن هذا الفريق من الخوارق إن لم يكن خيالا وشعوذة فمعونة وما يصدر عن الفريق الأول فاستدراج أو إهانة .

وأما مجرد تلاوة الكلمات المجهولة لأمثالنا لعدم معرفتنا بأوضاعها فلا يقتضى كفر تاليها لجواز أن تكون معروفة عنده أو منقولة نقلا صحيحا عمن يوثق به من الشيوخ كما نقل عن العارف بالله تعالى سيدى إبراهيم الدسوقى من الأوراد والأدعية والتعوذات المشتملة على كلمات لا علم للتالين لها بأوضاعها ، ولها من الأسرار والبركات ما لا يسع أحدا إنكاره كسائر الرقى والتعوذات التى تتلى على المرضى فيشفون أو تتلى لاتقاء شر الإنس والجن وسائر الهوام .

تأثير الرقى والتعوذات

وقد ذكر العلامة الآلوسى فى تفسير قوله تعالى : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ[1]) أن قراءة هذه الآية كما روى عن الحسن تدفع ضرر العين قال : وذلك من خصائص بعض النفوس ، ولله تعالى أن يخص ما شاء منها بما شاء ، فقراءة هؤلاء العامة مثل هذه الكلمات لا مانع من كونها تدفع عنهم ضرر النار اه .

(١) آخر سورة القلم .

والأقسام والتعوذات المأثورة عن أصحاب الأسرار العارفين بأوضاعها تارة تبقى بعد وفاتهم مؤثرة بإذن الله تعالى لا يتوقف تأثيرها على استئذان شيخ ولا على صلاح تال، بل ولا إيمانه، بل يكون السر الذى أودعه الله فيها كخاصة النبات والعقاقير، وتارة يتوقف على استئذان أو صلاح تال أو غير ذلك مما هو مشروط فى تأثيرها .

ثم التأثير بسببها هل يسمى خارقا للعادة مطلقاً، أو الخارق لابد أن يكون لغير سبب، وعليه فلا يسمى السحر من الخوارق ؟ .

السحر حقيقة واقعة

والجمهور على أن السحر له حقيقة[1] وأنه قد يبلغ الساحر به أن يطير

---

(١) قال ابن خلدون فى مقدمته : إن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء ، وكان فى أهل بابل ، وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين ، وكانت لهم فيها أسواق نافقة . وكذلك فى أهل مصر زمن بعثة موسى عليه السلام ، وقد نطق القرآن بذلك كله . ثم ذكر وقائع من السحر شاهدها وأخرى سمعها .

وذكر الفرق عند الفلاسفة الإلهيين بينه وبين المعجزة بأن المعجزة قوة إلهية تبعث فى النفس ذلك التأثير وصاحبها مؤيد بروح الله تعالى فى فعله بخلاف السحر، فإن الساحر إنما يفعل فعله بقوته النفسانية ، وبإمداد الشياطين له فى بعض الأحوال فهما على طرفى نقيض .

ويستدل على التفرقة بينهما بالعلامات الظاهرة وهى وجود المعجزة لصاحب الخير ، وفى مقاصد الخير وللنفوس المتمحضة للخير، والتحدى بها على دعوى النبوة، وأما السحر فيوجد لصاحب الشر وفى إيصال الشر غالبا وللنفوس المتمحضة للشر .

أما المتكلمون ففرقوا بينهما بأن المعجزة واقعة بالتحدى ، وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه ولا تقع مع الكاذب بإطلاق ووقوعها على وفق دعواه غير مقدور اه ملخصا .

فى الهواء ، ويمشى على الماء، ويقتل النفس ، ويقلب الإنسان حمارا .

وفى اللسان: السحر عمل فيه تقرُّب إلى الشيطان ومعونة منه اهـ، والفاعل الحقيقى فى ذلك ونحوه هو الله تعالى كسائر أفعال العباد ، فإنه الموجد لها والمسخِّر لأسبابها، والإنس والجن والعزائم والأقسام ليس لها إلا التسبب والكسب، لا إله إلا هو خالق كل شىء .

وقد شاع أن العمل به كفر ، والحق أنه إن كان فيه رد ما لزم من شرط الإيمان فكفر وإلا فلا ، ولعل من قال إنه لا حقيقة له أراد نوعا منه وهو الشعوذة التى هى خفة فى اليد وأخذة كالسحر تُرِى الشىءِ بغير ما عليه أصله فى رأى العين .

وفى اللسان : أصل السحر صرف الشىء عن حقيقته إلى غيره ، فكأن الساحر لما أرى الباطل فى صورة الحق وخيل الشىء على خلاف حقيقته فقد سحر الشىء عن وجهه أى صرفه .

ومن السحر الأُخْذَة التى تأخذ العين حتى يظن أن الأمر كما يرى وليس كذلك ، وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر ، والسحر البيان فى فطنة ، كما ورد إن من البيان لسحرا . قال ابن الأثير : يعنى أن منه ما يصرف قلوب السامعين وإن كان غير حق . وقال أبو عبيد كأن المعنى والله أعلم أنه يبلغ من ثنائه أنه يمدح الإنسان فيصدَّق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله ثم يذمه فيصدَّق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر ، فكأنه قد سحر السامعين بذلك .

كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فى السحر والسحرة والجن

وفى إيضاح الدلالة فى عموم الرسالة لشيخ الإسلام أبى العباس بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ رحمه الله أن الإنسان إذا فسدت نفسه ومزاجه يشتهى مايضره ويلتذ به ، بل يعشق ذلك عشقا يفسدعقله ودينه وخُلقَهُ وبدنه ومالَه ، كالشياطين الذين يشتهون الشر ويتلذذون به ويطلبونه ويحرصون عليه ، وإن كان موجبا لعذابهم وعذاب من يغوونه من الإنس، فهؤلاء السحرة إذا تقربوا إلى الشياطين بعزائمهم وأقسامهم وكتابة روحانياتهم المشتملة على ما يحبون من الشر والكفر والشرك ، صار ذلك كالرشوة لهم ، فيقضون بعض أغراضهم كمن يعطى غيره مالا ليقتلَ له من يريد قتله أو يعينه على فاحشة ، ومنهم من يكتب فى روحانياته كلام الله بالنجاسة ، ومنهم من يقلب كلامه تعالى عز وجل ، فإذا قالوا أو كتبوا ما تحبه الشياطين وترضاه منهم أعانوهم على بعض أغراضهم ، كتغوير ماء أو حمل فى هواء أو إتيان بمال إلى غير ذلك مما تفعله الشياطين على أيدى هؤلاء السحرة ، قال : وأعرف فى كل نوع من هذه الأنواع من الأمور المعينة ومن وقعت له ممن أعرفه ما يطول حكايته .

ثم قال : وصرعُهم للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق كما يتفق للإنس مع الإنس ، وقد يكون وهو الكثير الغالب عن بغض ومجازاة مثل أن يؤذيهم بعض الناس عمدا أو خطأ ، إما ببول على بعضهم أو بصب ماء حار أو بقتل له ، وإن كان الإنسى لا يعرف ذلك ، وفى الجن جهل وظلم كثير

فيعاقبونه بأكثر مما يستحق ، وقد يكون عن عبث منهم وشر مثل سفهاء الإنس .

وأربابُ العزائم والأقسام كثيرًا ما يقْسمون بها على بعضهم ليعينهم على بعض ، فتارة يبرون قسمهم وكثيرًا لا يفعلون ذلك ، بل قد يعجزون عن دفع الجنى منهم ، وكثيرا ما تسخر منهم الجن إذا طلبوا منهم قتل جنى أو حبسه أو خروجه من بدن المصروع ، فيخيل إليهم أنهم قتلوه أو حبسوه ويكون ذلك تخيلا وكذبا .

ثم قال : وجماهير الأمم يقرون بالجن ولهم معهم وقائع يطول وصفها ، ولم ينكر الجن إلا شرذمة قليلة من جهال المتفلسفة والأطباء ونحوهم ، وأما أكابر القوم فالمأثور عنهم إما الإقرار بها وإما عدم التعرض لها ، وليس لمن أنكر ذلك حجة يعتمد عليها ، وإنما معه عدم العلم إذ كانت صناعته ليس فيها ما يدل على ذلك ، كالطبيب الذى ينظر فى البدن من جهة صحته ومرضه الذى يتعلق بمزاجه وليس له تعرض لما يحصل من جهة النفس ولا من جهة الجن ، وإن كان قد علم من غير طبه أن للنفس تأثيرا عظيما فى البدن أعظم من تأثير الأسباب الطبيعية ، وكذلك للجن تأثير فى ذلك كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح «إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ »والدم قيل: هو البخارالمسمى عند الأطباء بالروح الحيوانى المنبعث من القلب السارى فى البدن سريان الماء فى العود، والظاهر أنه الدم المعروف ، وتقدم الكلام فى الروح الحيوانى .

وقد ساق الإمام ابن تيمية فى هذه الرسالة الموضوعة لبيان عموم بعثته صلى الله عليه رسلم الإنس والجن عدة آيات وأحاديث ونصوص عن العلماء تدل دلالة

واضحة على وجود الجن ، وأنهم عالمون مأمورون منهيون على لسان من أرسل إلى الثقلين صلى الله عليه وسلم وأن لهم أحكاما وأعمالا تتعلق بهم، أو بهم و بالإنس. وحكى عنهم وقائع كثيرة، وفى هذا القدر كفاية .

وعلى كل حال فخوارق العادات إن خصت بما يظهر على يد النفوس البشرية بلا سبب أصلا فالسحر ليس منها ، وإن لم تقيد بذلك دخل فيها السحر ، سواء كان معه قسم أو قرين من الجن أو روح أخرى تتسلط على تلك الروح التى ظهر على يدها ذلك الخارق ، كما فى التحضير والتنويم المغناطيسى .

وتقسيم العلماء الخارق إلى أقسامه المذكورة شامل لطريقة التخصيص والتعميم وإن كان الظاهر منه الأول بل يتعين فى المعجزة والكرامة والإرهاص أن لا تكون عن سبب كما تقدم .

المبحث الثالث

فى أن الكرامة لا تختص بحال الحياة

ثم إن الكرامة لا تختص بحال الحياة كما يفهم من بعض أدلة ثبوتها وكما يقتضيه بادىء النظر ، بل هى بعد الموت أولى وتخصيص بعضهم لها بحال الحياة اصطلاح أو نزوع إلى إنكار صدور التصرف بعد الوفاة وسيأتى ما فيه .

وقال العلامة ابن حجر : إن مطالعة كتب التصوف تحصّلُ العلم بوقوع الكرامة من الأولياء ضرورة ، وقد رأينا من كراماتهم أحياء وأمواتا ما يوجب

ذلك فلا ينكرها إلا مخذول فاسد الاعتقاد فى أولياء الله ، وخواص عباده نفعنا الله بهم اه .

* * *

ونقول : زعم بعض الناس أن الأولياء لا يتصرفون فى عالم الملك والملكوت بعد وفاتهم كسائر الموتى ، ولا تظهر على أيديهم خوارق ولا غيرها ، لأنهم انقطعوا عن هذا العالم وانتقلوا إلى عالم آخر فى غاية المباينة لعالم الأحياء ، ولأنهم مشغولون بشئون أخرى غير هذه الشئون ، فإن الموتى كما ذكره العلامة الآلوسى فى تفسير سورة النازعات ما بين سعيد شغله نعيمه وتقلبه فى الجنان عن الالتفات إلى ما فى هذا العالم ، و بين شقىّ ألهاه عذابه وحبسه فى النيران عن إجابة مناديه والإصاخة إلى أهل ناديه .

ولا يخفى عليك بعد ما حدثناك به من أحكام الروح ، وشئونها الكونية ، وحوادثها ومشاهداتها الاكتشافية ، وما يؤيد ذلك من الآيات القرآنية ، والأخبار النبوية فسادُ هذا الزعم ، وما استندوا إليه من مباينة العوالم واشتغال النفوس بعد الموت بشئون أخرى لا يمنع تصرف بعض الأرواح فى هذا العالم ، ولا نفوذها فيه متى أذن الله لها فى ذلك ، والأحاديث النبوية ، ونصوص العلماء مستفيضة بثبوت الإذن لمن شاء الله من أرواح الموتى .

على أن شأن الأرواح عند تجردها ومفارقة أبدانها غير شأنها عند اقترانها بها، فقد تظهر فى عالم متمثلة فيه وذاتها فى عالم آخر ، كالملائكة والجن ، وفى كلا الموطنين تكون قائمة بوظيفتها ، لأن مظهر الروحانىّ روحانىّ حىّ كما تقدم فى تمثيل جبريل بين يديه صلى الله عليه وسلم وذاته لم تفارق سدرة المنتهى ،

وفى كلا الموطنين قائم بوظيفته الموكل بها ، والآلوسى نفسه ممن أثبت ذلك فى رؤيته صلى الله عليه وسلم خارج القبر ، وانتقاله من جهة إلى جهة أخرى ، ورؤية المتعددين له فى أمكنة مختلفة فى وقت واحد ، وسيأتى ذلك فى خاتمة هذه الرسالة .

وقد ثبت أن أرواح الكمل من الأولياء حال الحياة وهى مشغولة بشئونها البدنية قد تسبح فى عالم الملكوت وتشاهد فيه ما تشاهد بحيث لا تشغلها الشئون الظاهرة عن تلك الشئون الغائبة فلأن يثبت للأرواح فى حال تجردها عن الشئون البدنية وهى فى عالم آخر التصرفُ فى عالم الشهادة من باب أولى[1] .

وهذه المسألة كان للمخالفين فيها قديما بعض العذر لما عساه يعترضهم إذ ذاك من شُبهٍ تحول بينهم و بين الحق الجلىّ فى ذلك ، إما لعدم استقامة أفهامهم أو لبنائها على أصول واهية أو لعدم اطلاعهم على ما يقشع عنهم غيوم هذه الشبهة أو نحو ذلك مما بُلوا فى كثير من نظرياتهم الاعتقادية ، أما وقد انكشف الغطاء الآن ، وقامت الأدلة المحسوسة ، والمشاهدات الملموسة على تصرف أرواح الموتى وأفعالهم الغريبة ، لافرق بين نفوس طاهرة مقدسة وبين غيرها من النفوس الأخرى ، فلايسع أحدا لامن المسلمين ولا من غيرهم أن ينكر أو يتردد فى تصرف أرواح الأنبياء والأولياء ، بل وأرواح غيرهم فى عالم الملك بعد وفاتهم .

(١) العبارة فى الأصل المطبوع هكذا « فلأن يثبت عكس ذلك للأرواح فى تجردها من التصرف فى عالم الشهادة وهى فى عالم آخر من باب أولى » فوضعناها كما ترى ، فتأمل اه .

وما ينقل عن بعضهم فى الكتب الإسلامية وغيرها مما يخالف ذلك أصبح بنور العلم كسراب بقيعةٍ فلا يعوّل عليه، وقد كفانا الباحثون فى أحوال الأرواح من علماء الإسلام وغيرهم حديثاً وقديماً مؤونة التدليل على هذا البحث ، فما على الناظر فيه الآن إلا أن يتصفح بعض الكتب المؤلفة فى هذه الأبحاث الذائعة ، و ينعم النظر فيها فيظهر له جليًّا أن تصرف الأرواح بعد الموت أمرٌ لاشبهة فيه ، وأن ظهور الخوارق على يد الأولياء بعد وفاتهم أولى وأقرب من ظهورها حال حياتهم المسمى كرامة عند علماء الإسلام . والحق أنها لاتختص بحال الحياة ، وإن كان ظاهر بعض أدلتها الاختصاص على أن ذلك راجع إلى التسمية لا لنفى ظهور الخارق بعد وفاتهم والله أعلم .

المبحث الرابع

فى إقسام الله تعالى بالنفوس الفاضلة وفى الاستعانة بأصحاب القبور

ونقل العلامة الآلوسى عن بعض المحققين فى تفسير قوله تعالى (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) أن ذلك إقسام بالنفوس الفاضلة حال مفارقتها لأبدانها بالموت ، فإنها تنزع عن الأبدان نزعا شديداً لعسر مفارقتها حيث ألفتها ، وكانت مطية لها فى اكتساب الخير ، ومظنة لازدياد كمالها ، فتنشط شوقاً إلى عالم الملكوت ، وتسبّح به ، فتسبق إلى حظائر القدس ، فتصير لشرفها وقوتها من المدبّرات ، ويظهر لها بعد

المفارقة آثار وأحوال فى هذا العالم ، فقد يرى المرء شيخه بعد موته فيرشده إلى ما يهمه ، وقد نقل عن جالينوس أنه مرض مرضا عجز عن علاجه الحكماء ، فوصف له فى منامه علاج ، فأفاق وفعله فأفاق ، وقد ذكره الغزالى ، ولذا قيل ، وليس بحديث كما توهم : إذا تحيرتم فى الأمور فاستعينوا بأصحاب القبور ، أى أصحاب النفوس الفاضلة المتوفين[1] ، ولا شك فى أنه يحصل لزائرهم مدد روحانى ببركتهم ، وكثيراً ما تنحل عقد الأمور بأنامل التوسل إلى الله تعالى بحرمتهم انتهى .

فهذا يدل على أن النفوس الفاضلة لها تصرف بعد الموت فى هذا العالم المحسوس ، حيث قال : ويظهر لها إلى آخره ، وظاهر أن هذه الآثار التى تظهر عنها تكون بتدخل منها تدخل الأسباب العادية فى مسبباتها عند خلق الله لها ، كأن تتوجه بنفسها إلى الله تعالى وتدعوه جلّ شأنه أن يفعل هذا الأثر المطلوب ، أو تتشكل فى صورة مثالية تسأل الله تعالى ظهور الخارق أو غيره ، كما يظهر على يد الأحياء كسباً لا خلقاً ، أو ترشد الأحياء فى منامهم إلى ما يهمهم كما قال : قد يرى المرء شيخه الخ ونحو ذلك ، مما يمكن للأحياء أرواحا أو غيرها أن يفعلوه .

وهناك حالة أخرى تسند إليهم على ضرب من التأويل ، وهى أن يظهر الله الأثر كرامة لهم ، وإن لم يشعروا به ولم يسألوا فيه كما يشير إليه قوله : ولا شك الخ

(١) أى استعينوا بأرواحهم ، وقد علمت أنها حية باقية وإن فنيت الأجسام ، وهى لاتفعل إلا بإذن الله ، وتسخيره إياها لذلك كتسخير الملائكة فيما أمرت به وفعلها بإذنه تعالى .

وظاهر أن هذا وذاك لايختص بالنفوس البالغة إلى مرتبة السابقات المدبرات ، بل يكون لمن هو دونها أيضا .

وقوله : فاستعينوا بأصحاب القبور الخ ، أى توسلوا بهم إلى الله تعالى عند دعائكم له كما تتوسلون بالأحياء منهم فى قضاء حوائجكم ، لأن هذه النفوس المتوفاة حية عالمة مدبرة ، فيجوز لكم إذا تحيرتم أن تستعينوا بهم وتسألوهم التوجه إلى الله تعالى ليطلبوا منه جل شأنه قضاء حوائجكم كما تسألون الأحياء منهم ، بل ومن غيرهم ممن هو دونهم أو دونكم ، فقد نصوا على أن هذا النوع من التوسل لايشترط فيه أن يكون المتوسَّل به أفضل من المتوسِّل ، كما إذا قلت لأخيك المسلم وإن كان أقل منك فضلا ادع لى يا فلان ، فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر « لاَ تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ » وهو دونه فى الفضل قطعا .

وقد علمت أن لافرق بين كون المتوسَّل به حيًّا أو ميتا .

وهناك نوع آخر من الاستعانة بأصحاب القبور ، وهو أن تدعو الله تعالى أن يقضى حاجتك متوسلا بحرمتهم أو جاههم وإن لم يشعروا بهذا التوسل ، كما قال : وكثيراً ما تنحل عقد الأمور الخ .

وقد تكون الاستعانة بأصحاب القبور بمجرد زيارتهم والاتعاظ بهم والدعاء عندهم ولهم وإن لم يكن هناك توسل فإن ذلك كاف فى حصول هذا المدد الروحانى ، لأن مواطن الدعاء والاتعاظ بالموتى من مواضع الإجابة ومنازل الرحمة والقبرُ ـ كما ورد ـ روضة من رياض الجنة للمؤمنين ، ودار جزاء وإكرام

للمحسنين ، فمن زاره داعيًا عنده متعظا به كان له من الكرامة والإحسان أوفر نصيب .

المبحث الخامس

فى شرح حديث

« إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ » .

علم مما تقدم جواز طلب الإعانة من أصحاب القبور والتوسل بهم على أحد الوجوه المذكورة ونحوها وأن ذلك يدل دلالة واضحة على أن لهم تصرفا فى عالم الملك بعد وفاتهم بإذنه تعالى ولا يسأل عما يفعل جل شأنه .

(وقد يقال) إن هذا ينافى ماجاء فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوما ، فقال : « يَاغُلَامُ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَإِنِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » رواه الترمذى . فإن ظاهره أنه لا سؤال ولا استعانة إلا بالله لا بأصحاب القبور ولا بغيرهم .

(وأجيب) بأن ما كتبه الله للعبد أزلا : إما أن يكون مقدراً وصوله إليه منه

تعالى مباشرة ، سواء كان معلقًا بدعاء العبد لله أولا ، وإما أن يكون مقدراً وصوله إليه بواسطة مخلوق يسخره الله له ، سواء كان معلقاً بسؤال المخلوق أو لاستعانة به أولا .

فالخاصة الذين أيقنوا بالله وتنزلوا عن الأسباب والتهافت عليها وقنعوا بأدنى معيشة ، نظروا إلى المكتوب فى لوح العلم القديم وتعففوا عن سؤال الخلق والاستعانة بهم فى أىِّ أمر من الأمور ، وتوكلوا على ربهم فأغناهم عن السؤال والاستعانة بغيره فيما قدَّر وصوله إليهم ، ورزقهم كما يرزق الطير. تغدو خماصا وتعود بطانا .

ونقل الآلوسى عن بعض الأجلة فى تفسير سورة الكهف : أن توكل الخواص ترك الأسباب بالكلية ، ومن ذلك مشى سعد بن أبى وقاص وأبى مسلم الخولانى بالجيوش على متن البحر ، ودخول تميم فى الغار الذى خرجت منه نار الحرَّة ليردها بأمر عمر رضى الله عنه ، وقد نص الإمام أحمد وإسحٰق وغيرهما من الأئمة على جواز دخول المفاوز بغير زاد وترك التكسب والتطبب لمن قوى يقينه وتوكله .

وفسر الإمام أحمد التوكل بقطع الاستشراف باليأس من المخلوقين ، واستدل عليه بقول إبراهيم عليه السلام حين تعرَّض له جبريل عليه السلام يوم ألقى فى النار ، وقال له : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ! فأصحاب هذا اليقين لا يسألون الناس ولا يستعينون بغير الله تعالى إلا عند الضرورة القصوى أو صدور الإذن لهم بالسؤال فى نوازل مخصوصة ، وفى هذه الحالة يكون سؤالهم عبودية لا تنافى التجرد والتوكل .

ومنهم[١] أهل الصُّفَّة الذين كانوا يسكنون سقيفة المسجد النبوى يستغرقون أوقاتهم فى التعلم والجهاد والعمل فى مرضاة الله تعالى ، وقد نوّه القرآن بشأنهم فى سورة البقرة ، قال تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فى الأَرْضِ) أى مشياً فيها للتكسب لشغلهم بالعمل فى مرضاة ربهم (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : هم أهل الصُّفة لا يسألون الناس أصلا ، و إليه ذهب الفراء والزجاج وأكثر أرباب المعانى ، و يدل له قوله تعالى « أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ » لأن التعفف ، حتى يُظنوا أغنياء ، يقتضى عدم سؤالهم رأسا ، كما أن قوله تعالى « تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ » كذلك ، إذ لو سألوا لَعُرفوا بالسؤال ، واستغنى عن العرفان بالسيما . وقيل : المراد أنهم لا يسألون ، و إن سألوا عن ضرورة لا يلحون [انظر روح المعانى للعلامة الآلوسى] .

فإذا كان ماقدِّر وصوله إليهم[٢] معلقاً على سؤال المخلوق وكان السؤال مقضيًّا ولكن لم يفتح لهم باب الإذن به ولم يكن عن ضرورة ، فإذا سألوا فى هذه الحالة كانوا متسببين مكتسبين لا متجرِّدين متوكلين .

ومن هؤلاء المتجردين من يتحقق أحيانا بمقام لا يسعه أن يسأل الحق فيه بلسان المقال . ففى [شرح الحكم] لابن عجيبة نقلا عن التنوير لابن عطاء الله مانصه : كن أيها العبد إبراهيميا ، فقد قال أبوك إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه

---

(١) أى من أصحاب اليقين الذين لا يسألون الناس ولا يستعينون بغيره تعالى .

(٢) أى إلى الخاصة أصحاب اليقين المتقدم ذكرهم .

(لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ) وكل ماسوى الله آفل ، إما وجوداً ، و إما إمكانا ، وقد قال سبحانه وتعالى (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم ، ومن ملته عليه السلام رفع الهمة عن الخلق فإنه يوم زُجَّ به فى المنجنيق تعرّض له جبريل عليه السلام ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبَلَى ، قال : فاسأله ، فقال : حسبى من سؤالى علمُه بحالى .

فانظر كيف رفع عليه السلام همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق ، فلم يستعن بجبريل ، ولا احتال على السؤال من الله ، بل رأى الحق سبحانه أقرب إليه من جبريل ومن سؤاله ، فلذلك سلّمه من نمروذ ونكاله ، وأنعم عليه بنواله وأفضاله انتهى .

أى فكان عليه السلام فى هذا الموطن متوكلا على ربه ، متجردا عن الأسباب ، متدثرًا بدثار العبودية المحضة ، متحققًا بمقام الرضا والتسليم للقضاء ، فلم يسعه مع كونه مضطرا أن يسأل الله بلسان المقال مكتفيا بلسان الحال وهو أصدق من لسان المقال .

وظاهر أن توكل الخواص بهذا المعنى متفاوت . وقد يكون للمريدين والسائرين إلى الله تعالى فى حال دون حال ، وفى وقت دون وقت ، ثمّ هوَ لا يخرج عن كونه أخذاً بالأفضل ، و بالأتم الأكمل ، الذى هو فى نظر الخاصة أمر محتم .

وأصحاب هذا المقام قد أصبحوا من عهد بعيد أندر من الكبريت الأحمر ، ومن بقى منهم على هذا المعنى ليس له نصيب فى قِوام العمران ولا حظٌّ فى شئون مجتمع الإنسان و إن كان لابد منه لكمال الوجود الإنسانى ، وحفظ النظام

العمرانى ، كما يومئ إليه حديث: « لَوْلاَ شُيُوخٌ رُكَّعٌ » ولذلك أقر صلى الله عليه وسلم أهل الصُّفَّة ، وأثنى عليهم ، ورغب فى الزهادة مطلقاً مع علمه أن نشأة الدنيا تكاد تأبى وجود هذا الفريق ، وقد كان المسلمون فى الصدر الأول يرونه ذخراً فى وسط العمران وصِواناً لنوع الإنسان ، والآن أصبحنا لا نراه ولا فى طرف الأودية وشعاب الجبال .

ما يحمل عليه حديث ابن عباس

فإن حمل حديث ابن عباس على معنى إذا أردت أن تسأل أو تستعين فى أى حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فاسأل الله وحده ، واستعن به دون غيره ، كما قيل : كان ذلك من التعليم الخاص بابن عباس ليروضه صلى الله عليه وسلم وهو غلام صغير على هذه النشأة الكاملة ، ومثله كل من تأهب للتجرد ، أو ضعف عن القيام بمعاشرة العامة من المريدين والسائرين .

أما العارفون بالله ، الواصلون المتمكِّنون ، فقد تولى الحق تعالى أمرهم ، وحفظ أسرارهم ، وحرس قلوبهم بجنود الأنوار ، فهؤلاء لا تؤثر فيهم ظُلَم الأغيار ، وعليه كما قيل : يحمل حال خاصة الصحابة المتسببين .

ولكن صَدْر الحديث كعَجُزِه ، ظاهر فى أنه من التعليم العام الشامل للخواص والعوام ، فإن معنى احفظ الله يحفظك عند أهل النظر : احفظ أوامره بفعل الطاعات ، ونواهيه باجتناب المعاصى والمكروهات ، وعند القوم ذلك مع حفظ المقامات والأحوال والإرادات ، ومعنى عَجُزِه أنه لا يقع نفع

ولا ضر من مجموع الأمة ، ولا من أىّ أحد لأىّ أحد إلا بما هو مكتوب فى لوح العلم القديم .

وظاهر أن نفع العباد بعضهم بعضا بما هو مكتوب وضرهم كذلك من قبيل التسبب والتكسب ، ومنه ما هو مأمور به ومنه ما هو منهى عنه ، كما أن منه ما هو مباح .

فالظاهر أن الحديث محمول على ظاهره من غير ضرورة لتقدير الإرادة فى شرطه[1] ولا قصر السؤال على الله فى جزائه[2] . والمراد : إذا سألت أو استعنت بمخلوق أو أردت ذلك فى أى أمر من الأمور فيطلب منك أن تسأل الله مع ذلك أو تستعين به بأن تذكره بما يدل على أنه المسئول أو المستعان حقيقة ، أو تستحضر ذلك معتقداً أنه الفعال ، المقدِّر للأمور، المسخِّر للأسباب ، ليكون سؤالك للغير أو استعانتك به المقرون بما ذكر عبوديةً لله تعالى ، ولنجاح طلبك وتيسير أمرك وسلامتك من الشرك الخفى والغفلة عن الفاعل الحقيقى الذى بيده ملكوت كل شىء .

وأخذاً بإشارة هذه الحكمة قصر المتوكلون المحتاطون سؤالهم فى قضاء حوائجهم على الله تعالى ، ورأوا أن ما يفوتهم من الدنيا خير مما ينالهم منها ، وأن الاشتغال بجهاد النفس والعمل فى مرضاة الله أتم وأسلم ، وقوام العمران لا يتوقف على مثلهم لقلة عَدَدهم وعُدَدهم فى تصاريف أمورهم ، وسنة الله فى الكون إقامة

---

(١) بأن يقال : معنى إذا سألت : إذا أردت السؤال .

(٢) بأن يقال : معنى فاسأل الله : فاسأله وحده دون غيره .

الجمهور فى الأسباب والنذر القليل فى التجرد والتبتل إليه تعالى : (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا) حتى لا يفوت على المجموع إقامة المصلحة العامة ، والأوامرُ التدوينيةُ ، ومنها حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، لا تطالبهم بسؤال الخلق إلا عند الضرورة القصوى أو الإذن الإلهى ، وفى هذه الحالة إذا سألوا مخلوقاً فليسألوا الله أيضا ، لأنه الفاعل الحقيقى المسخِّر للأسباب الموفق لإجابتها وذلك لا يخرجهم عن التجرد والتوكل .

ومن الأدب كما ذكره القوم أن مَن أقامه الله فى التجرد لا ينبغى أن يتطلّب الخروج عنه إلى التسبُّب حتى ينقله الله إليه ، كما أن من أقامه الله فى الأسباب لا يتطلب الخروج منها إلا بإذنه ، كما أشار إلى ذلك ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه حيث قال: إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية .

وظاهر أن مشرب الخاصة الذين أقامهم الله فى التجرد لا يتنافى مع مسلك العامة الذين أقامهم الله فى التسبب والتكسب بالنسبة لأوامر الحديث الذى نحن بصدده ، لأن سؤال الله والاستعانة به مطلوب للعامة المتسببين ، وللخاصة المتجردين ، وقَصْرُ سؤالهم عليه أخذٌ بالأتم الأكمل فى عبوديتهم ، ونجاح طلبهم ، وتيسير أمرهم ، وسلامتهم من الغفلة عن طاعة ربهم ، والحديث يُفهمه بدلالته كما يُفهم عدم القصر بإطلاق صيغته ، وعموم شِرْعته ، وتحقيق حكمته ، فالأولون إذا أرادوا سؤال حاجة لا يسألون غير الله ، ولتجردهم وصدق تيقنهم ليسوا فى حاجة إلى سؤال المخلوق إلا عند الضرورة أو الإذن ، والآخرون إذا

سألوا أو أرادوا سؤال مخلوق حاجةً فليسألوا الله مع ذلك ، ولإقامتهم فى الأسباب وتدخلهم فى شئون العباد كانوا فى حاجة إلى سؤال الخلق ، وربما كان التسبب والتكسب مع التحفظ من غوائله أرجح من التجرد .

على أن كُلاًّ فى مقامه بليغ ، لأن المتجرِّد والمتسبب على هذا المعنى كلاهما عامل لله صادق فى توجهه إليه ، وإن كان صدق التوجه فى التجرد أقوى لقلة عوائقه وقطع علائقه كما هو معلوم .

فالحديث جدير بالشمول ، وكان من دأبه صلى الله عليه وسلم وهو المشرع لسائر أمته أن يباشر الأسباب ، ويسأل أصحابه ويسألوه ، ويستعين بهم ، ويستعينوا به فى كثير من الأمور ، ومع ذلك لا يعول إلا على الله ، ولا يستمد المعونة إلا منه تعالى ، ولا يرى لنفسه ولا لغيره حَولا ولا قوة .

حث الشريعة على الأخذ بالأسباب مع التوكل

وقد حثت الشريعة الغراء على الأخذ بالتسبب والتكسب قال تعالى : (فَامْشُوا فى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) وقال تعالى (وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا) وفى الحديث « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ » وفيه « اكْتَسِبِ الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ وَلاَ تَكُنْ كَلاًّ عَلَى غَيْرِكَ ، وَخَيْرُكُمْ مَنْ لَمْ يَتْرُكْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، وَلاَ آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ » بل يعمل لكل منهما لأن الانقطاع لأحدهما من العامة موجب لاختلال النظام العام ومفوِّت لسعادة الدنيا والآخرة (نعم) ينبغى أن

يكون اهتمام المؤمن بأمور الآخرة أتم وأكمل كما يشير إليه حديث : « اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا » .

ومن الأخذ بالأسباب مساءلة الخلق بعضهم بعضاً وتعاونهم فى أمور معاشهم ومعادهم وقد قال تعالى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) وروى مسلم عن عائشة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذى تبعه فى غزوة بدر : ارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ » . فمفاده أنه صلى الله عليه وسلم يستعين بغيره من المسلمين . وقال جل شأنه (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما « سَلُوا أَهْلَ الشَّرَفِ عَنِ الْعِلْمِ ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ فَاكْتُبُوهُ فَإِنَّهُمْ لاَ يَكْذِبُونَ » أى لأنهم يصونون شرفهم عن أن يدنسوه بمعرة الكذب .

وروى على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اطْلُبُوا الْمَعْرُوفَ مِنْ رُحَمَاءِ أُمَّتِى » وفى رواية عنه صلى الله عليه وسلم قال : « اطْلُبُوا الْخَيْرَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوهِ » إلى غير ذلك مما ورد كتابا وسنة فى هذا الباب .

والأخذ بالتكسب والتسبب على الوجه الذى تقرر فى حديث ابن عباس يتضمن التوكل بالمعنى العام وهو الاعتماد على الله تعالى فى جميع الأمور ، ففى الحديث « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » أى تسبب واعتمد على الله تعالى .

ومر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوم فقال : من أنتم ؟ فقالوا :

المتوكلون ، قال : أنتم المتأكلون ، إنما المتوكل رجل ألقى حبة فى بطن الأرض وتوكل على ربه ، أى ألقاه معتمدا عليه فى إنباته وإثماره وحفظه ودفع آفاته .

فالتوجه إلى الله تعالى والاعتماد عليه عند مباشرة السبب والأخذ به لدفع خطر الغفلة عن الله وإهمال طاعته من شعب الإيمان ، فإن الاشتغال بالأسباب والأخذ بها وإن كان مشروعا مقام خطير .

وبقدر مادل التدوين والتكوين على طلب الأخذ بالأسباب دلت النصائح الدينية على التحذير من خطره ، والتحفظ من غوائله ، وتدخل الشرك الخفى من جرائه ، حتى قيل فى قوله تعالى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ) إنهم الناظرون للأسباب المعتمدون عليها .

وهذا ماعمت به البلوى فى هذا الزمان ، لا فرق بين خاصة الناس وعامتهم ، غنيهم وفقيرهم ، حقيرهم وعظيمهم ، فإذا نزل بأى واحد منهم حاجة من حوائج الدنيا هرع إلى الخلق وألح فى سؤالهم واعتمد على وعدهم بإجابته وغفل عن الله فى قضاء حاجته ولا يرجع إلى الله إلا عند اليأس من خلقه ، نعوذ بالله من جنون العمل .

وقد علمت أن حديث ابن عباس رضى الله عنهما كما يشير بحكمته إلى الأخذ بالتجرد ، والتوكل الخاص يدل أيضا على التسبب والتكسب مع التوكل العام ، وهو الاعتماد على الله تعالى وملاحظة أنه الفاعل المختار : أى إذا تسببت فسألت مخلوقا أو استعنت به فلا تعتمد عليه ولا تغفل به عن الله ، بل اعتمد على الله وسله واستعن به على المعنى اللائق بفاعليته ، وإذا لم تتسبب وأردت سؤال حاجة أو أردت الاستعانة فيها فسل الله واستعن به دون غيره .

وقد علمت محمل منطوق الشرط ومفهومه ، فهذا وذاك من الحديث موضع التعليم والإرشاد ، ومحط الإسعاد والإمداد .

وفى الحديث الشريف : « سَلُوا اللهَ كُلَّ شَىْءٍ حَتَّى الشِّسْعَ ، فَإِنَّ اللهَ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ » أى إن لم ييسره على يد مَنْ سألتموه لم يتيسر، لأنه المعطى المانع لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، له الخلق والأمر ، وبيده النفع والضر ، وهو على كل شىء قدير .

فحديث ابن عباس على هذا المعنى أفاد تقييد سؤال الخلق بسؤال الله تعالى، والاستعانة بهم بالاستعانة به ، وعموم هذا الحديث أكد ذلك وأشار إلى حكمته بقوله : « فإن الله إن لم ييسره لم يتيسر » .

والظاهر أن المراد بهذا القيد الطلب النفسى ، سواء كان معه طلب لفظى أم لا ، لأن الغرض منه وهو تيسر المطلوب والسلامة من الغفلة وخطر الشرك حاصل بالطلب النفسى ، بل مجرد اعتقاد أن الله هو الفاعل الحقيقى المنفرد بالإيجاد والخلق أو ملاحظة أن سؤال الخلق والاستعانة بهم إنما هو لكونهم مظاهر فعله ومواضع امتثال أمره كافٍ لحصول هذا الغرض، لأن المقصود الاعتماد على الله عند مباشرة السبب .

ولم يثبت مواظبة من أقيموا فى الأسباب من السلف على الجمع بين الذكر اللسانى والقلبى نعم هو الأكمل والأوفى ، بل هو الظاهر من المقابلة بين الشرط والجزاء فى لفظ الحديث .

ونظيره قوله تعالى : (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ) أى لا تقولن فى حال من الأحوال إنى فاعل ذلك غداً إلا حال

ملابسة هذا القول لذكر مشيئة الله عز وجل ، فلا تقله مجردا عن التلبس بالمشيئة ليتم مطلوبك ، وتسلم من خطر الغفلة ، وخفى الشرك ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والحكم عام له ولأمته ، فإن هذه الآية نزلت حين سألت قريش النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين فقال عليه الصلاة والسلام «غدا أخبركم» ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما ، فشقّ ذلك عليه ، وكذبته قريش وحاشاه ، ويدل على تأكد هذه الملابسة قوله تعالى : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) أى اذكر مشيئته بأن تقول : إن شاء الله تعالى إذا فرط منك نسيان ذلك ، ثم تذكرته فهو أمر بالتدارك حين الذكر ، سواء قصر الفصل أم طال .

وعلى قياسه يقال فى الحديث: إذا سألت الخ ، أى لا تسل مخلوقا ولا تستعن به إلا مع ذكر الله بما يدل على سؤاله والاستعانة به .

والأوفق أن يكون التوجه إلى الله تعالى وقصد سؤاله متقدما على سؤال المخلوق، لأنه الفاعل الحقيقى المتقدم على السبب الذى لا يؤثر على إطلاق فاعليته فى مُلكه وملكوته ، وأنه إذا نسى ذلك يذكره ولو طال الفصل قياسا على آية المشيئة .

وروى أن سيدنا موسى عليه السلام مرض بعينيه فشكى إلى ربه ، فأوحى إليه أن اذهب إلى فلان من بنى إسرائيل يدلك على ما يزيل عنك المرض ، فذهب إليه وعمل بما دل عليه فبرئ من مرضه ، ثم حصل له مثل هذا المرض مرة أخرى فعمل الدواء من نفسه واستعمله فلم يحصل له الشفاء ، فتعجب سيدنا

موسى ، فأوحى الله إليه بأن الشفاء حصل فى المرة الأولى لأنك التجأت إلينا أولا وأما فى الثانية فقد التجأت إلى الدواء أولا فلم يحصل .

وظاهر أن سؤال غير الله والاستعانة به إذا كان واجباً أو مندوبا داخل فى عموم صدر الحديث : « احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ » فإن حفظ الواجب والمندوب من حفظ أوامر الله تعالى وطاعته ، ومع ذلك لا بد فى السؤال والاستعانة بالمخلوق من تقييده بالتوجه والقصد إلى الله تعالى على النحو الذى أشرنا إليه ، وهو كاف فى الغرض المطلوب كما تقدم .

والكلام فى السؤال لغير الشحاذة والاستكثار من الدنياء و إلا فهو ممقوت شرعاً باتفاق المسلمين .

ثم بعد تقرير معنى الحديث على هذا الوجه رأيت فى شرح الأربعين للعلامة أبى عبد الله محمد بن شهاب الدين المشهور بالمسعودى الحنفى من علماء أواخر القرن الثامن ما نصه : قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا سألت فاسأل الله » معناه يتخرج على وجهين « أحدهما » إذا أردت سؤال حاجة فاسألها من الله وحده ولا تقصد فيها غيره « والثانى » إذا سألت مخلوقاً حاجة فليكن مقصدك فيها اللهَ واجعل المخلوق آلة مصرّفة ، فلا تعتقده يجلب لك منفعة أو يدفع عنك مضرة ، ففى الوجه الأول يخرّج على الندب بالتزام الطريق الأكمل، لأن من لا يقصد فى حوائجه غير الله فهو أفضل ، ولكن لا يخرج عليه سؤال الحوائج من المخلوقين بشرط أن لا يرى بأيديهم منفعة ولا مضرة ، فلذلك يتخرج فى الوجه الثانى على الأمر المحتم ، إذ فى اعتقاد المنفعة والمضرة من المخلوق شرك ، وقوله : « وإذا استعنت فاستعن بالله » معنى هذا ليكن استعانتك بالله وحده ، فإن احتجت إلى مخلوق تستعين به فلا ترى العون إلا من الله وحده ، والعون يكون من الله للعبد عند إرادة الفعل فيكون به استطاعته على إيقاع ذلك الفعل ، فإن حرم العون لم يكن له استطاعة عليه اهـ .

وكتب إلينا حضرة الأستاذ العلامة أخينا الشيخ محمد زاهد الكوثرى ما فهمه فى جملتى الحديث فقال : إذا سألت أى سؤال من أى مسئول فاسأل الله التوفيق للإجابة فى ذلك السؤال ، وإذا استعنت أى استعانة بأى مستعان فاستعن بالله للنجاح فى تلك الاستعانة ، وهذا هو المعنى الظاهر من الحديث ، وأما أن يقال فيهما إذا أردت السؤال فاسأل الله ، وإذا أردت الاستعانة فاستعن بالله ، فمعنى مجازى يحوج إلى صارف عن الحقيقة حتى لا يتحد الشرط والجواب اهـ .

وهذا وذاك قد يؤيد من وجه بعض ما قررناه بوضوح فى معنى الحديث ، وما استظهرناه فى معنى التقييد المذكور وكفايته .

وقول المسعودى : آلة مصرّفة من صرف الشىء أعمله فى وجوه عديدة ومنه « تصريف الرياح » أو من صرفت الرجل فى أمرى فتصرف فيه ، فالمخلوق آلة يصرفها الله فى أموره فيتصرف فيها و يتطلب كسب ما يخلقه الله فيه ، وقوله : فلا تعتقده يجلب لك منفعة أو يدفع عنك مضرة ، أى أنه لا يخلق شيئاً من ذلك بل ولا يكتسبه إلا بإذن الله تعالى .

☆ ☆ ☆

وعلى أى محمل من هذه المحامل يندفع التنافى بين الحديث و بين ما قيل : إذا تحيرتم فى الأمور فاستعينوا بأصحاب القبور ، أى مع استعانتكم بالله تعالى عند ذلك بأن تذكروه بما يدل على أنه المستعان الحقيقى .

وفى قوله : إذا تحيرتم إشارة إلى أنه ينبغى أن لايصار إلى الاستعانة بغير الله تعالى إلا عند الحاجة مع الشرط المار ، وهو اعتقاد أن الأمر بيد الله وأن أصحاب القبور أو غيرهم لا يملكون ضرًّا ولا نفعاً ، و إنما لهم التسبب والكسب الذى لايقع إلا بإذن الله تعالى .

وقد أطلنا الكلام فى هذا الموضوع . مع أن الجواب عن التنافى المذكور لايتوقف على كل هذا ، لأنى كنت حريصاً على شرح حديث ابن عباس على حدته تفهما له وتبركا بخدمته ، فلم أوفق ، وعند وصولى إلى تبييض هذا الموضع إذ كنت بالراشدة بالواحات الداخلة للاستشفاء بمياهها وتغيير الهواء بهوائها ، انتهزت فرصة المناسبة لشرح هاتين الجملتين ، واكتفيت بهذا القدر فى بيانهما مع ما كتبناه عنهما مما له مناسبة بمحله فى (الرسالة الثانية فى حكم التوسل بالأنبياء والأولياء عليهم السلام) فراجعه .

وقول بعض المحققين فيما تقدم : فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات مما يشير إلى تصرف هذه النفوس الفاضلة بعد الوفاة ، سواء كان بنحو شفاء المريض ، و إنقاذ الغريق ، والنصر على الأعداء أو غير ذلك . وقد علمت أنه لامانع منه كما تقدم بيانه مفصلا . وسيأتى له مزيد بيان .

وقد أسند الله إلى الملائكة ما هو فوق ذلك من التوفى و إحياء الموتى بإذن الله تعالى ، وثبت مثله لنبينا صلى الله عليه وسلم ولغيره من الأنبياء كعيسى عليه وعليهم السلام قال تعالى (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ) وهل ذلك ونحوه إلا بكون هذه الأرواح الطاهرة المقدسة لما لها عند الله من الزلفى والكرامة موضع أسراره ، ومظهر كرامته ، وخوارق عادته فيدبر الله الأمر على أيديها كما يدبره على أيدى الملائكة بإذن الله تعالى ، والمدبر فى الحقيقة هو الله وحده وهذه جنوده (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) كما قال جل شأنه (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ) فالنفوس المقدسة والملائكة المطهرة إنما يسند إليهم التدبير والتصرف على المعنى اللائق بهم، وهل ينبغى لأحد أن ينازع فى إسناد ماذكر إليهم بعد هذا .

تعقب الآلوسى لكلام بعض المحققين

والتنبيه على الجواب عنه

وبهذا تعلم مافى تعقب العلامة الآلوسى لما نقله عن بعض المحققين حيث قال إن فى حمل الآية[1] على النفوس الفاضلة المفارقة إيهام صحة مايزعمه كثير من سخفة العقول أن الأولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض ، وإنقاذ الغريق ، والنصر على الأعداء ، وغير ذلك مما يكون فى عالم الكون والفساد على معنى أن الله تعالى فوض لهم ذلك ، ومنهم من يخص ذلك بخمسة من الأولياء

(١) أى آية سورة النازعات .

والكل جهل ، وإن كان الثانى أشد جهلا اه . لما علمت أن تصرف الأولياء بنحو ماذكر أمر جائز ، بل واقع لا مرية فيه ، سواء حال الحياة أو بعد الوفاة ، فإن كان الجهل والسخافة التى وصم بها الكثير من جهة أن تصرف الأولياء بنحو ماذكر ليس من شأنهم أحياء وأمواتاً ، وإنما هو شأن الله وحده ، فقد علمت أن لهم ذلك[1] ، وأنه من شأنهم أيضا إذا وصلوا إلى هذه المرتبة أو دونها إما بالسعى فى حصوله والإرشاد إليه ، وإما بمباشرته بإذن الله تعالى كسبا لا خلقا كما يعالج الطبيب المريض فيشفى على يديه[2] ، وإن كان موضع الجهل والسخافة قوله على معنى أن الله تعالى فوض لهم ذلك ، فمع كونه ليس فى كلام بعض المحققين ما يوهمه ، فليس ذلك من الجهل ، ولا من السخافة فى شىء .

كلام الصوفية فى معنى تفويض الله تعالى لبعض أوليائه فى التصرف وأنه إذنه

فإن[3] تفويض الله تعالى للأولياء فى التصرف حال حياتهم أو بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض ، وإنقاذ الغريق ، والنصر على الأعداء وغير ذلك ، أمر ثابت عند السادة الصوفية ، بل وعند غيرهم إذ لا يمنعه عقل أو نقل ، ومعناه أن الله تعالى

(١) أى بإذنه تعالى وأمره، وهو المراد من التفويض وبذلك يندفع الاعتراض ؛ وما يوهمه لفظ التفويض عرفا .

(٢) والشفاء إنما هو بمشيئة الله تعالى لا بفعل الطبيب. (٣) تعليل لقوله فليس ذلك الخ

يأذن الولى الكامل بالتصرف فى مثل هذه الشئون الكونية التى علم الله وقوعها على يديه بأن يُعلمه بها وبأوقاتها قبل وقوعها ، ويأذنه بمباشرتها كَسْبا لا خَلْقا ، بحيث لا يحتاج عند كل حادثة إلى إذن يخصها . فقد ذكر أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه أن الولى الكامل قد يعطى الإذن من الله بالتصرف فى بعض الشئون الكونية جملةً ومَنْ دونه يُعطى الإذن بحسب النوازل والوقائع ، ومن أعطى الإذن بالتصرف جملة أو تفصيلا لا يخرج عن مشيئة الفاعل المختار، ومن زعم غير ذلك فقد محيت عنه المعارف والأنوار اه . وقد عرفت معناه وأنه مما اتفق عليه السادة الصوفية، وليس فى كلام أهل الرسم ما يخالفه ، بل فيما قصه الله تعالى عن عيسى عليه السلام وما أسنده إلى ملائكته الكرام ما هو ظاهر فى ذلك .

وتقدم فى مبحث الرؤيا عن ابن القيم نقلا عن بعض السلف أنه قال : وقد وكل الله بالرؤيا الصادقة ملَكا علّمه وألهمه معرفة كل نفس بعينها واسمها ومتقلّبها فى دينها ودنياها وطبعها ومعارفها بحيث لا يشتبه عليه منها شىء ولا يغلط منها فى شىء فتأتيه نسخة من علم غيب الله من أم الكتاب بما هو مصيب لهذا الإنسان من خير وشر فى دينه ودنياه إلى آخر ما ذكره هناك .

ولا شك أن هذا ضرب من التفويض ، وظاهر أنه لا فرق بين الإنس والملك فى هذا الباب .

وأما قوله بعد هذا التعقيب الذى علمت ما فيه: (نعم) لا ينبغى التوقف فى أن الله تعالى قد يكرم من يشاء من أوليائه بعد الموت كما يكرمه قبله بما شاء ، فيبرئ سبحانه المريض، وينقذ الغريق، وينصر على العدو، وينزل الغيث وكيت وكيت

كرامة له ، وربما يُظهِر عزّ وجلّ من يشبهه صورة فتفعل ما سئل الله تعالى بحرمته مما لا إثم فيه استجابة للسائل ، وربما يقع السؤال على الوجه المحظور شرعا فيظهر سبحانه نحو ذلك مَكرًا بالسائل واستدراجا له اهـ . فهذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين ، وهو محمل الكرامة عند العامة غالبا والخاصة قد يطلقونها على ذلك فما بال العلامة الآلوسى يتوقف فى إكرام أوليائه تعالى بمثل ما ذكر بعد وفاتهم؟! مع أن أرواحهم حية باقية سميعة باصرة صالحة للتوجه والعمل، مأذونة بالتصرف من الله تعالى فى بعض الشئون تصرف كسب لا تصرف إيجاد وخلق كما هو لها حال حياتها فى الدنيا بلا فرق ، بل تصرفها بعد مفارقة أبدانها أولى وأجدر .

والحاصل أن المثبتين لكرامات الأولياء وأنهم يتصرفون بنحو شفاء المريض وإنقاذ الغريق سواء حال الحياة أو بعد الوفاة لم يريدوا أنهم يَخلُقون ذلك ولا أن الله فوّض لهم خلقه وإيجاده ، وإنما أرادوا أن الأولياء لطهارة نفوسهم ، ولما لهم عند الله من الزلفى والكرامة إذا توجهوا إليه سبحانه بأرواحهم الزكية وهممهم العلية ، وطلبوا منه جلب منفعة أو دفع مضرة سواء صدر منهم هذا التوجه بسؤال الغير لهم والتوسل بهم أو من تلقاء أنفسهم، وسواء كانت أرواحهم على حالتها الأصلية أو متشكلة فى صورة جسدية ، فإن الله تعالى يكرمهم بإجابة طلبهم الذى تحينوا فيه وقت الإجابة حسبما هو مقدر فى علمه ومسطور فى لوحه .

وبالضرورة إذا لم يتحين الولى وقت الإجابة بل تقدم أو تأخر فى طلبه لا يستجاب له ولا يقع مطلوبه، وقد يطلع الله وليه عليه جملة أو تفصيلا فلا يتقدم ولا يتأخر .

وليس فى التوسل بهذا المعنى أدنى غضاضة أو توهم شرك أو إيهام نقص فى حقه تعالى ، فإن المتوسِّل بهم معتقد وقائل أنه لا فاعل ولا خالق إلا الله تعالى، وإنما التوسل بالولى والنبى سبب من الأسباب العادية التى يخلق الله الشىء عندها أو بها .

وهذا التوجه الروحانى هو المسمى عندهم بالفعل بالمشيئة المشار إليه بقوله تعالى : (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) ولا يشاءون إلا حيث يشاء الله تعالى كما قال تعالى : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وإن كان سياق الآية فى بعض سور القرآن فى روضات الجنات وفى بعضها أعم من ذلك .

على أن بعض الأولياء قد يتقرب إلى الله تعالى بالنوافل حتى يصير مظهرَ أسمائه وصفاته فيفعل ويتصرف بنفس مشيئة الله وعلمه وقدرته وسمعه وبصره ، بحيث تفنى آلاته وقواه الكسبية فى نظره كما جاء فى الحديث القدسى أن الله تبارك وتعالى قال : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ » رواه البخارى فى صحيحه .

وصاحب هذه المنزلة لا يتقدم فى مشيئته عن مشيئة الله ، ولا يتأخر ، بل يفعل بمشيئة الله وسمعه وبصره ، فإن العبد إذا تقرب إلى مولاه حتى وصل إلى مرتبة المحبة والقرب ، ولا يكون ذلك إلا برفع الحجب البشرية ومشاهدة

الأمر على ما هو عليه ، أعطاه الله من أسمائه الذاتية ، وصفاته الفعلية ما هو له أهل ، وجعله مظهر أسمائه وصفاته، وفى هذا الظهور يكون جلّ شأنه هو السميع البصير ، الظاهر فى عبده ، المتكلم على لسانه ، كما يشير إليه الحديث المذكور ، ومتى وصل العبد إلى هذا المقام استغنى بربه عن الآلات فى فعله وتركه ، وهذا المقام أخص من مقام الفعل بالمشيئة ، وهو أن يوجه العبد إرادته للشىء فينفعل عنه بإذن الله تعالى بدون حاجة إلى الآلات البدنية أو غيرها ، مما شأن الفعل أن يتوقف عليه ، والعارفون فى بعض الأحيان قد يستعملون الآلات فى هذه الحالة حفظًا للرسم وسترًا للوسم .

الفعل بالمشيئة لا يعارض عموم القدرة الإلهية

ثم الفعل بالمشيئة كسائر أفعال الخليقة لا يعارض عموم القدرة الإلهية ، لأنه لا يكون إلا بإذن الله وقدرته ، ومهما قويت إرادة العبد فانفعال الأشياء عنها إنما هو بمشيئة الله وقدرته الشاملة ، وليس لقدرة العبد إلا التسبب والكسب ، وإليه يشير ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه حيث قال : [سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار] ، والهمم : جمع همة ، وهى قوة انبعاث القلب فى طلب الشىء والاهتمام به ، والهمم السوابق : أى القوية لا تخرق أسوار الأقدار ، بل تدور مع القدر حيث دار ، كما دلت عليه عقول الأخيار وقضايا الشرع المختار ، فإن تعلقت بما تعلق به القدَر فقد وافقته ، ويكون الفعل للعبد كسبًا ولله أمرًا وخلقًا كما قال تعالى (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) وقال (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) .

وإن فرض أنها تعلقت بغير ما تعلق به القدَر – ولا يقع ذلك من العارفين إلا نادرًا – فلا يكون إلا ما أراده الله جل شأنه : (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) ، (وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) بل همة العارف إذا توجهت للشىء فوجدت سور القدَر مضروبا عليه تأدبت معه ورجعت لوصفها وهو العبودية ، فلا تأسف ، ولا تحزن ، بل ربما تفرح لرجوعها لمحلها وتحققها بوصفها وبمعرفتها لربها كما قيل لبعض العارفين : بماذا عرفت ربك ؟ قال : عرفته بنقض العزائم .

نعم إذا اهتم العارف بشىء وقويت همته به فإن الله تعالى يكوِّن ذلك الشىء بقدرته فى ساعة واحدة حتى يكون أمره بأمر الله ولا يخطىء فى اهتمامه إلا نادرا ، وفى الحديث « إِنَّ لِلهِ رِجَالاً لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُمْ » وفيه : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ بِهِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ » . ومن هنا قيل : إن لله أقواما إذا رفعت حوائجهم قضيت حوائجهم .

وقد يحصل هذا التأثير للهمة القوية وإن كان صاحبها ناقصا كما يقع للعائن والساحر عن خبثهما ، أو لخاصية جعلها الله فيهما إذا نظر للشىء بقصد انفعل ذلك بإذن الله تعالى .

وقد يكون للتمرين العملى دخل كبير فى تربية الإرادة النفسية ، وتقوية عزيمتها ، وتسخير الأشياء لها حتى يكون عنها من الأفعال الغريبة ما يشبه الكرامة والسحر وليس بذاك .

ومن هذا القبيل بعض الحركات الرياضية ، والألعاب التمثيلية كالمشى على الحبال والأعواد والأسلاك ، فإن ذلك فى الحقيقة يرجع إلى تربية الإرادة النفسية

وتمرينها على الأعمال الغريبة، وهذا كله أيضا لا يخرق أسوار الأقدار، قال تعالى (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) وقال تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)، وقال تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ)، وقال صلى الله عليه وسلم «كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ» أى النشاط للفعل. وأشعر قوله سوابق الهمم: أن الهمم الضعيفة لا ينفعل لها شىء وهو كذلك فى الخير والشر، نعوذ بالله من ضعف الإرادة ودناءة الهمة.

الفعل بالمشيئة لبعض النفوس الدنيئة

وقد أرانا الله سبحانه وتعالى نموذجا من الفعل بالمشيئة فى هـذه الدار على يد من هو دون تلك النفوس الزكية كالعائن الحسود، فإن روحه قد تتوجه إلى الشىء العظيم فتفسده بمجرد النظر والإرادة بدون احتياج إلى استعمال آلة متصلة كانت أو منفصلة، فكثيراً ما ينظر العائن إلى الشىء الحسن متاعًا فيتلفه، أو طفلا أو حيوانا فيفسده، وقد ورد «إن العين حق وإنها تدخل الرجل القبر والجمل القدر» وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «كَادَتِ الْعَيْنُ تَسْبِقُ الْقَدَرَ» وقد ذكر الآلوسى فى تفسير قوله تعالى (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ) ما يدل على فعل النفوس بالتوجه والإرادة بدون حاجة إلى استعمال الآلات، والقوى البدنية، حيث نقل عن بعضهم أنه كان فى بنى أسد عيّانون، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هـذه الآية. وقال الـكلبى: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب

خبائه، فيقول: لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه، فتسقط طائفة منها وتهلك، فاقترح الـكفار عليه أن يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعصم الله نبيه وأنزل عليه هـذه الآية، وقد قيل: إن قراءتها تدفع ضرر العين، وروى ذلك عن الحسن.

وفى كتاب [الأحكام] أن هذه الآية أصل فى أن العين حق، والأولى الاستدلال على ذلك بما ورد وصح من عدة طرق أن العين تدخل الرجل القبر، والجمل القدر، وبما أخرجه أحمد بسند رجاله ثقات عن أبى ذرّ مرفوعا «إِنَّ الْعَيْنَ لَتُولَعُ بِالرَّجُلِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى يَصْعَدَ حَالِقًا ثُمَّ يَتَرَدَّى مِنْهُ» إلى غير ذلك من الأحاديث الـكثيرة، قال: وذلك من خصائص بعض النفوس، ولله تعالى أن يخص ما شاء منها بما شاء، وإضافته إلى العين باعتبار أن النفس تؤثر بواسطتها غالباً، وقد يكون التأثير بلا واسطتها بأن يوصف للعائن شىء فتتوجه إليه نفسه فتفسده اهـ آلوسى

وإذا كان هذا فى النفوس الدنيئة، وأن لله سبحانه أن يخص ما شاء منها بما شاء فَلِمَ لا يكون مثله من نوع الخـير أو مطلقا فى نفوس الأولياء فيفعلون بالتوجه والإرادة، ويتصرفون بإذن الله تعالى كما فعلت عين ذلك العائن المولعة بالرجل بإذن الله تعالى، فأهلـكته بدون حركات واستعمال آلات لا فرق فى ذلك بين حال الحياة والموت.

ثم قال: ومثل ذلك ماقيل: إنه من باب التأثير بالقوة المعروفة اليوم بالقوة الـكهربائية عند الطبيعيين المحدثين، فقد صح أن بعض الناس يكرر النظر إلى بعض الأشخاص من فرقه إلى قدمه فيصرعه، أى ينومه كالمغمى عليه، وربما

يقف وراءه جاعلا أصابعه حذاء نقرة رأسه ويوجه نفسه إليه حتى تضعف قواه فيغشاه نحو النوم ويتكلم إذ ذاك بما لا يتكلم به فى وقت آخر ، وأنا لا أزيد على القول بأنه من تأثيرات النفوس ولا أكيِّف ذلك . فالنفس الإنسانية من أعجب مخلوقات الله عز وجل ، وكم طوى فيها أسرارا وعجائب تتحير فيها العقول ، ولا ينكرها إلا مجنون أوجهول انتهى . يشير إلى مسألة التنويم المغناطيسى ، وتقدم الكلام عليه مفصلا وسبق عنه أنه قال بتمثل الأرواح فى صور عديدة وقدرتها على التشكلات والأفاعيـل العجيبة التى لا تقدر عليها حال تعلقها بالأبدان إلا لمن خصه الله تعالى بقوة النفس وتسخير آلاتها ، وقواها البدنية حسبما تريد كما سخر لها الأشياء الكونية تسخيراً مقرونا بالإمداد الإلهى والإذن الربانى انتهى .

هذا ماذكره العلامة الآلوسى فى مواضع من تفسيره ، وانظره مع تعقبه المار وإنكاره تصرف النفوس البشرية فى عالم الملك بعد وفاتها ، وتعليل ذلك بما هو أوهى من بيت العنكبوت ، مرة بأنها مشغولة فى عالم البرزخ ، ومرة بأنها فى عالم آخر مباين لعالم الدنيا ، ومرة بأن التصرف بنحو شـفاء المريض ليس من شئونها بعد الوفاة ، فإن ذلك لا يلتئم مع ما نقلناه عنه هنا ، ولا مع غـيره ممن يعتد به ، والله الموفق للصواب .

كلام صدر الدين الشيرازى صاحب الأسفار وغيره

فى الفعل بالمشيئة بعد الموت

ويؤيده ماتقدم عن صاحب الأسفار وغيره من أن الروح إذا فارقت البدن وتحولت عن عالم الخلق وكثافته إلى عالم الأمر ولطافته يصير وجودها وجودا مفارقا عقلياً لا تحتاج معه فى أفاعيلها المختلفة وتصرفاتها المتفاوتة إلى البدن وآلاته وذلك من معانى تطورها فى نشأتها ، فإنها فى أصل نشأتها كانت عاقلة دراكة غنية فى كل شئونها عن هذه الآلات ؛ ثم لما تعلقت بهذا البدن الكثيف عاقتها ظلمته الجسمانية عن تذكر ما كانت عليه فى نشاتها الأولى ، واشتغلت بتدبيره وتصرفه ، ولبست ثوبا آخر فى طور جـديد ، فإذا فارقته بالموت عادت إلى ما كان لها فى نشأتها الأولى ، وأصبحت غنية فى تصرفها عن هذا البدن وآلاته إلا أنه قد يبقى مع بعض النفوس من الآثار البدنية ، والكيفيات الطبيعية مالا ينمحى إلا بعد زمن بعيد ، وقد يبقى إلى انتقالها من دار البرزخ وبعثها فى النشأة الآخرة ، ولهذا قد يلتبس عليها من المكاشفات العلمية والمشاهدات الكونية ، فلا تصل إلى حقائق الأشياء كما هى انتهى .

ومن هنا قيل : إن كشف الأولياء قد يقع فيه الغلط فيخبرون بالشىء على خلاف ماهو بدون قصد ، وقد يعبرون مايرون من طلاسم الألواح العلوية بغير ما أريد منها . أما الجن فيقع منهم ذلك عمدا وخطأ .

وبالجملة فمن وقف على أحكام الروح وتجردها عن البدن لا يسعه أن ينكر

تصرف الأرواح بعد مفارقتها للأبدان وتجردها عن حجاب البشرية المانع من اللحوق بعالم الأمر المتصرف فى الوجودين. كيف وهى فى هذه الحالة قد توفر لها من القوة والكمال مالم يكن حال تعلقها بالبدن .

ولو أن المنكرين لكرامات الأولياء وتصرف الأرواح بعد الموت عكسوا القضية وقالوا بنفى الكرامة والتصرف حال الحياة عند تعلق الأرواح بالأبدان الذى من شأنه أن يعوق النفس عن التصرفات الغريبة والأفعال العجيبة التى تقدر عليها حال مفارقتها للأبدان كما تقدم ، لكان لما ذهبوا إليه وجه فى الجملة ، والتشبث بأن الأرواح صارت فى عالم آخر مشغولة بما لديها عن التصرف فى هذا العالم المحسوس ، قد علمت ردّه ، وهل تصرفها فى عالم الكون والفساد وهى فى عالم الأمر والإطلاق أبعد من تصرفها فى العوالم الأخرى وهى متعلقة بأبدانها مدبرة لشئونها لاشك أن الأمر بالعكس .

كلام ابن خلدون والإمام فخر الدين الرازى
فى أصناف النفوس البشرية

وذكر العلامة ابن خلدون فى مقدمته : أن هناك صنفاً من النفوس البشرية يخبر بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيه يتميز بها عن سائر النفوس ، ولا يرجع فى ذلك إلى صناعة ولا يستدل عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، وإنما مداركه فى ذلك بمقتضى فطرته التى فطر عليها ، وذلك مثل العرّافين والناظرين فى الأجسام الشفافة ، كالمرايا وطساس الماء ، والناظرين فى قلوب الحيوانات

وأكبادها وعظامها وتخاطيط الكف ورسوم الأعضاء ، وأهل الزجر فى الطير والسباع ، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى وغير ذلك من الدلالات التى يختص بفهمها وحلّ رموزها أصحاب هذه الفطر ، ولا يمكن التعويل عليها لغيرهم، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان لا يسع أحدا جحدها ولا إنكارها .

وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على سبيل الكرامة معروفة ، وكذلك المجاذيب يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، و بعض هذه الأصناف يستعين على ذلك بشغل حسه عند النظر فى الماء والطساس ، وأمثال ذلك بالبخور أو بالعزائم ، و بعضهم يكون له دعِيٌّ يتبعه من الجن فيخبره عما يريده ، وقد يصدق وقد يكذب . انتهى ملخصاً .

وفى [مفاتيح الغيب] للإمام الرازى أن من النفوس البشرية ما يستعين بالأرواح الأرضية ، وأن اتصال النفس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية ، وإن كانت القوة الحاصلة للنفس بسبب اتصالها بهذه الأرواح الأرضية أضعف من القوة الحاصلة لها بسبب اتصالها بتلك الأرواح السماوية ، فإن النفوس الناطقة إذا صارت صافية عن الكدرات البدنية صارت قابلة للأنوار الفائضة من الأرواح السماوية والنفوس الفلكية ، فتقوى هذه النفوس بأنوار تلك الأرواح ، وتقدر على أمور غريبة خارقة للعادة ، وأنها فى هذه الحالة تكون مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السموات ، كأنها روح من الأرواح السماوية ، فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم ، أما إذا كانت ضعيفة

شديدة التعلق باللذائذ البدنية فلا يكون لها تصرف إلا فى هذا البدن ، و بعض الناس يحاول تعدى تأثيرها من بدنها إلى بدن آخر ، أو إلى نفس أخرى غائبة عنها فيتخذون تمثال ذلك الغير أو شبحا يضعه عند الحس و يشغل الحس به شغلا تاما فيتبعه الخيال ، وتقبل النفس الناطقة عليه فتقوى التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية ، ولذلك أجمعت الأمم على أنه لابد لمزاولة هذه الأعمال والوصول إلى غايتها من الانقطاع عن المألوفات والمشتهيات وتقليل الغذاء ومخالطة الخلق ، وكلما كانت هذه الأمور أتم كان ذلك التأثير أقوى .

و إذا اتفق أن كان للنفس التى تزاول هذه الأعمال مناسبة لهذا الأمر نظرا إلى ذاتها وخاصيتها عظم التأثير كما ذكروا نظيره فى النفوس الصافية ، و إذا كان بينها و بين بعض النفوس المفارقة لأبدانها مشابهة فى قوتها وتأثيراتها لم يبعد أن تنجذب إليها ، و يحصل لهـا نوع ما من التعلق بالبدن ، فتعاضد نفسه على أفعاله الـكثيرة ، وكلما كملت المشابهة وازدادت القوة قوى التأثير .

و بالجملة : فالنفس الناطقة عرش محيط بعالم الطبيعة التى هى القوة الإلهية السارية فى الأجسام كلها إحاطة شاملة كما أن المبادئ العالية محيطة بهما والله من ورائهم محيط .

فإذا نحت النفوس بمداركها وحركة فكرها إلى جهة المحيط ، واتصلت بالعالم العلوى كانت كأنها روح من أرواحه ومجلى من مجاليه ، يظهر فيه ، وعنه من الخوارق كل ما أراد أن يظهره الفياض من طريقه ، و إذا تنزلت إلى عالم الطبيعة واشتغلت بلذائذ البدن و شهواته لم يكن لها من الإدراك والتصرف إلا ما تسعه قواه الـكونية الضعيفة اهـ .

✲ ✲ ✲

وما قدمناه فى هذا المطلب وما قبله مختصا بتصرف الأرواح بعد الوفاة وحال الحياة فى عالم الملك والملـكوت فيه مقنع للمنكرين وأى مقنع ، وما أظن أحداً ذا فهم مستقيم يمعن النظر فى هذا البيان يرتاب فى كرامات الأولياء وتصرفات أرواحهم حال الحياة و بعد الممات ، أو يستغرب حوادث التنويم والتحضير ، أو يشك فى أن من النفوس البشرية ما يتصل بتلك المبادئ العالية ، أو يقترن بنفوس أخرى علوية كانت أو سفلية تساعدها فى إدراكها و إنبائها عن الأشياء الغائبة عنها، وتصرفاتها فى هـذا العالم المحسوس وغير ذلك من أحكام الأرواح وآثارها البادية والله أعلم .

✲ ✲ ✲

و إلى هنا انتهى ما حررناه من المطالب والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ، وقد تم تبييضها فى يوم الاثنين الموافق ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٥٠ هـ على يد أفقر العباد إلى مولاه الرءوف محمد بن حسنين بن محمد مخلوف العدوى المالـكى الأزهرى الخلوتى الشرقاوى عفا الله عنه وغفر له ولوالديه ومشايخه والمسلمين آمين .

الخـــاتمة

فى نص السؤال والجواب

الإجمالى السابق إرساله إلى السائل

السؤال : ما قولـكم فى رجل ادعى أن النبى صلى الله عليه وسلم قام من قبره وتوجه إلى بعض الجهات وخاطب بعض مشايخ الطرق شفهيا وقال له « أولادك أولادى وأصحابك أصحابى ، فهل هذه الدعوى صحيحة ؟ » .

الجواب : أما بعد حمد الله ، فاعلم وفقك الله تعالى أن النبى صلى الله عليه وسلم حى فى قبره بجسمه وروحه ، وأنه بهيئته التى كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شىء ، وأن حياته صلى الله عليه وسلم هذه نوع من الحياة غير معهود لنـا أتم من حياة الشهداء ، وأقوى وأكمل من الحيـاة الدنيوية وإن لم يحس بها ولا يدركها كل أحد ، حتى لو فرض انكشاف القبر الشريف لا يرى الناس النبى فيه إلا كما يرون سائر الأموات الذين لم تأكل الأرض أجسادهم وقد يكشف الله لبعض عباده فيرى مالا يرى الناس من أسرار تلك الحياة وآثارها ، وكذلك سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وكما أن حياته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته غير معهودة ولا مدركة لنا ، كذلك رؤيته بالبصر ليست كالرؤية المتعارفة عند الناس ، وإنـما هى جمعية

حالية وحالة برزخية وأمر وجدانى لايدرك حقيقته إلا من باشره ، وأن هـذه الرؤية إنما تقع للكاملين الذين لم يخلوا باتباع الشريعة قدر شعيرة ، أو لأهل الجذب والشهود الذين لم يفرقوا فى هذا العالم بين معقول ومشهود ، وأن الذى يرى خارج القبر وينتقل إلى الجهات إنما هو مثاله صلى الله عليه وسلم وصورته لاجسمه وبدنه ، كما عليه أكثر أرباب الأحوال ، وبه صرح الغزالى وغيره من أئمة الدين ، وذلك إما بأن تتشكل روحه الشريفة ، وتظهر بصورة مرئية مع بقائها ، متعلقة بجسمه الشريف الحى فى القبر السامى المنيف ، كما ظهر جبريل عليه السلام بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية الـكلبى وغيره ، ومع ذلك لم يفارق سدرة المنتهى ، وإما بجسد مثالى تتعلق به روحه صلى الله عليه وسلم كما هى متعلقة ببدنه الشريف، ولا مانع من تعدد الجسد المثالى إلى مالا يحصى مع تعلق روحه بكل جسد ، وبذلك ينحل السؤال عن كيفية رؤية المتعددين له عليه الصلاة والسلام فى زمان واحد فى أقطار متباعدة ، وقد يرى نفس جسده الشريف ، ولـكن فى قبره بحيث لا ينتقل من موضعه المنيف ، وإلا خلت منه الحجرة الشريفة وامتنع رؤيته فى مكانين فى زمان واحد لذوى الأحوال والمقامات ، نعم يجوز أن ينتقل من قبره فى نظر الرائى وخياله ، وعلى ذلك يرى فى أمكنة متباعدة .

كَالشَّمْسِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَضَوْؤُهَا ... يَغْشَى الْبِـلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا

وينبغى لمن وقع له ذلك من الـكمل أن لا يشيعه بين العامة لما فيه من التعرض للفتنة وحمل الناس على سوء الظن والتهمة ، وقد نصوا على أن رؤية

اليقظة باب ضيق قلّ من يقع له ذلك إلا من كان على صفة عزيز وجودها ، بل عدمت من قرون عديدة ، فما بالك بهذا الزمان الذى كثرت فيه الفتن ، وانتشرت أنواع الفسوق، وبعدت فيه المناسبة بين الناس وبين الحضرة النبوية .

وبالجملة : فرؤيته صلى الله عليه وسلم فى اليقظة ومخاطبته مقام عال ، وسرّ ربانى ، متى انكشف استتر ، ومتى ظهر خفى « انظر تفسير الآلوسى وإحياء الغزالى فيما يتعلق برؤيته صلى الله عليه وسلم » .

إذا علمت ذلك فشيخ الطريقة المنسوب إليه ما ذكر فى السؤال إن كان من الكمل أصحاب الولاية والكشف ، العارفين بالله تعالى ، فلا مانع من رؤيته للنبى صلى الله عليه وسلم على أحد الوجوه المتقدمة ، ولا من انتقال بدنه الشريف فى نظر الرائى وخياله ، أو انتقال مثاله وصورته الشريفة ، ومخاطبته له شفهيا وقوله له « أولادك أولادى » أى هم تحت نظر الحضرة النبوية ولحظها إذا كانوا على قدم الشيخ المرشد ومنهج الكتاب والسنة « وأصحابك أصحابى » أى محبوك التابعون لنهجك القويم أصحابى ، أى معى ومتمتعون بصحبتى قال تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقًا) ، ومع هذا لا يظن به إذا كان من أهل هذا المقام وله هذه المنزلة أن يتفوّه بمثل ذلك بين العامة ، أو يناجى به بعض الخاصة ، فإن ذلك سرّ من الأسرار ، وأهل التحقيق لا يرون إباحة السر ، وهذا كله على فرض أن الواقعة صحيحة .

أما الرجل الذى أسند إلى الشيخ هذه القصة ، وأذاعها بين العامة فقد أساء إليه أكثر مما أساء لنفسه ، وماذا يقصد من إذاعة هذه الحالة ، إن كان ليفهم

الناس أنه ومن حوله على قدم هذا الشيخ وأولاده لتكون له ولهم تلك الزلفى فيحترموا وينالوا من الناس أغراضهم الدنيوية فبئس ماقصد ، وإن كان لتعريف الناس مقام الشيخ تعظيما له فالشيخ إن كان من الكمل الصادقين ما أغناه عن هذا التعريف والتعظيم ، وما أشد استياءه من الكشف عن حاله والإباحة بسره وما أحوج هذا الرجل إلى تعرّف تلك الخصوصية والعمل على نيلها بالفعل لا بالقول مع التكتم والاجتهاد حتى يبلغ مبلغ الشيخ من الحظوة برؤية النبى صلى الله عليه وسلم ومكالمته والغيرة عليها ، حتى لا يجد سبيلا إلى التفوّه بها بعد ذلك .

وبالجملة : فنشر هذه الأحوال والتحدث بها بين الناس ، واتخاذها عنوانا للصلاح والتقوى ، وعُدّة لدعوى الاندراج فى عداد سلف القوم وخيارهم ، نوع من الكذب فى الأحوال وهو أسوأ حالا من الكذب فى المقال :

وَدَعْوَةُ المَرْءِ تُطْفِي نُورَ بَهْجَتِهِ   وَلَوْ بِحَقٍّ فَكَيْفَ المُدَّعِي زَلَلَا

فالسكوت أكمل ، والستر أجمل ، والله أعلم .

كتبه الفقير إلى مولاه الرءوف ، محمد بن حسنين بن محمد مخلوف العدوى المالكى الأزهرى عفى عنه .

تحريرا فى شهر ربيع الأول من سنة ١٣٢٤هـ .

مباحث

المطالب القدسية فى أحكام الروح وآثارها الكونية

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

بحمد الله وحسن توفيقه قد تمّ طبع كتاب

المطالب القدسية

فى أحكام الروح وآثارها الكونية

بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر